المجلة الثقافية

مجلة ثقافية فصلية تصدر عن الجامعة الأردنية

القدس

مامعنى القدس اليوم؟ فيصل درّاج

تقاسيم على صورة القدس محمود درويش

جبرا إبراهيم جبرا والقدس محمد عصفور

عبد الرحمن منيف: يستعيد حدثان النكبة

عدد ممتاز

هذا العدد مساهمة الجامعة الأردنية في فعاليات القدس عاصمة الثقافة العربية 2009

العدد السادس والسبعون 2009

عدد ممتاز

خاص بمساهمة الجامعة الأردنية في فعاليات
القدس عاصمة الثقافة العربية

المجلة
الثقافية

مجلة ثقافية فصلية تصدر عن الجامعة الأردنية
العدد السادس والسبعون

التوزيع
وكالة التوزيع الأردنية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2002/959/د)

© 2009 **تعود جميع حقوق النشر إلى المجلّة الثقافية.**

ما ورد في هذا العدد يعبّر عن آراء الكتّاب أنفسهم، ولا يعكس آراء هيئة التحرير، أو سياسة الجامعة الأردنية

المواد التي ترد إلى المجلة لا ترسل إلى أي جهة أخرى للنشر، وبخلافه نعتذر عن نشرها.

تكتب المواد المرسلة بخط واضح أو تطبع بواسطة الحاسب الآلي ويفضل إرسالها على قرص مدمج أو بالبريد الإلكتروني.

يخضع ترتيب المواد لضرورات فنية وإخراجية.

المواد التي ترد للمجلة لا ترد إلى أصحابها سواءً نشرت أو لم تنشر.

الاشتراكات

داخل الأردن	للأفراد	للمؤسسات
	10 دينار	20 دينار

خارج الأردن	للأفراد	للمؤسسات
	50 دولار	100 دولار

رئيس التحرير
محمد شاهين

المستشار الفني
رافع الناصري

هيئة التحرير
أمجد قورشة
رشدي خليل
عاصم الشهابي
عبد الكريم الحياري

تنفيذ الإخراج
منال عمر

التنفيذ الطباعي
مطبعة الجامعة الأردنية

المراسلات باسم رئيس التحرير، ص.ب(13088):
الرمز البريدي 11942 الجامعة الأردنية
عمان – الأردن
تلفون 5355000 فرعي 21044
فاكس 5357122 6 00962
E.mail: cult.j@ju.edu.jo

يمكنكم تصفح المجلة على موقع الجامعة
www.ju.edu.jo/publications

الافتتاحية

4 رئيس التحرير

ملف العدد: القدس

10 ما معنى القدس اليوم — فيصل درّاج

17 تقاسيم على صورة القدس — محمود درويش

20 جبرا إبراهيم جبرا والقدس — محمد عصفور

32 أمين شنّار والأفق الجديد المقدسية — إبراهيم خليل

40 شيمون بيريس وسرقة الذاكرة — هيئة التحرير

42 القدس في ذاكرة إدوارد سعيد — هيئة التحرير

44 لا تغبْ طويلاً عن القدس — عاصم الشهابي

51 عبد الرحمن منيف يستعيد حدثان النكبة — عبدالرحمن منيف

59 القدس مدينة التيه التي لا تؤسَر — فاروق يوسف

63 موسم زيارتي للقدس وما حولها — محمد شاهين

77 على كتف القدس: حكايات قرية أسطورية — يوسف عبد العزيز

إبــداع

84 في القدس — محمود درويش

86 عسكر عند الجمجمة — عمر باوند

89 شمس لسدنة الصباح — إدريس عيسى

93 مدينة ليس كمثلها شيء — محمود شقير

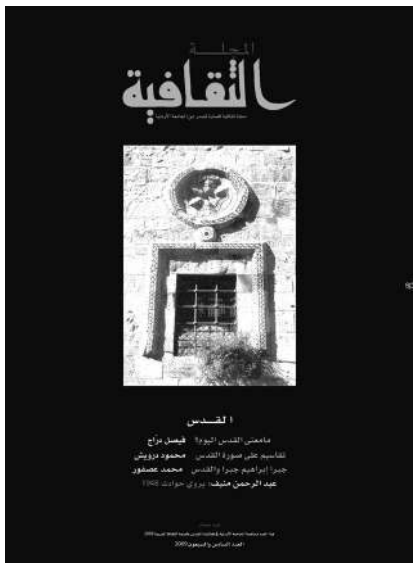

لوحة الغلاف

نافذة تواُمية معقودة لإنارة الدركاه المغطاة بقبو متقاطع، في المدرسة الجوهرية، على مقربة من الجانب الغربي للحرم القدسي الشريف، تاريخ الإنشاء 1440م.

ملف العدد القادم

الأمة والرواية

9

83

103

165

دراسات

104 مقدمة تاريخية — الكزاندر شولش

120 القدس عند الصرب — محمد الأرناؤوط

130 مسألة حائط البراق — هنري لورانس

حوارات

136 حوار مع غازي الحسيني — هيثم سرحان

145 وثيقة (1) — فنان من القدس

فنون

150 لوصف زهر اللوز — رافع الناصري

155 فيلم القدس في يوم آخر — عدنان مدانات

158 وثيقة (2) — الأفق الجديد

159 صور من القدس

أقواس

166 قصة كتاب. قدسنا: شهادة على الحدث والحقيقة — حسين ياغي

175 الصمت الدولي يفتح الطريق لتهويد القدس — فارسين أغابكيان

179 القدس في رحلة ابن عثمان المكناسي — مهند مبيضين

مراجعات

184 مشاعل عربية على طريق التنوير — يوسف بني ياسين

190 ذكريات مقدسي ليست للنسيان: سيرة ذاتية — حنين خرفان

197 إلفيس في القدس — فيصل درّاج

201 الحماقة الكبرى — آي في شلايم

الافتتاحيـة

للمقـدَّس وجهـان

رئيس التحرير

تحاول دولة إسرائيل، منذ عدة عقود، تهويد مدينة القدس، بتعنت ممزوج بالغطرسة، إلى استئصال ما هو غير يهودي كما لو كانت القدس جزءاً من التاريخ اليهودي وحده.

تفصح هذه السياسة المتواترة عن أهداف عدّة: تزوير تاريخ المدينة، الذي يقفز بخفة مستطيرة عن تاريخها العربي – الإسلامي الطويل، وإنجاز تطهير عرقي، إذ إن تهويد المدينة يقضي بإقصاء سكانها من غير اليهود. ولأن في التهويد ما يتعارض مع هوية المدينة المقدسة التي احتضنت الديانات السماوية

جميعا فإن فيه عدم اعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه، وفلسطينية القدس وعروبتها، وبأنها مكوّن أساسي من هوية الفلسطينيين.

يدور هذا السؤال في جوهره العميق حول التعصب العرقي الديني الذي يعترف بحقوق اليهود ولا يعترف بحقوق غيرهم، وحول التسامح المنشود الذي تقضي به مدينة مقدسة والذي مارسه أهل المدينة من المسلمين في حقبٍ تاريخية متواصلة.

لم يصدر هذا التسامح طويل العهد عن طبيعة المدينة فقط، إنما صدر عن تعاليم الدين الإسلامي، الذي أخذ به القادة العرب المسلمون وطبقوه على سكان المدينة من غير المسلمين، منذ الفتح الإسلامي إلى هزيمة الصليبيين. والمثال الأوضح في هذا المجال هو السياسة التي أخذ بها أكثر من خليفة عباسي؛ فقد جعل العباسيّون من القدس مدينة مفتوحة يتعايش فيها المسلمون وغيرهم، ويعثر فيها غير المسلم على ما يشاء من حقوق العيش والعبادة.

تجلى ذلك في سياسة هارون الرشيد الذي حفظ حقوق نصارى القدس، وسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس، وأقام معه علاقة إنسانية رحبة بعيدة عن التعصب والانغلاق، بل إن الخليفة العباسي تعهد بحماية الحجاج المسيحيين عند زيارتهم للمدينة ولم يعترض على بناء نُزُلٍ ديني وتشييد كنيسة جديدة ومكتبة فخمة، مصرحاً بمنظور متسامح، يتفق مع القيم الإنسانية الرشيدة ويعبر عن روح الإسلام السمحة التي تساوي بين الديانات السماوية.

وضع هارون الرشيد والخلفاء الذين جاؤوا بعده الاعتبارات الدنيوية جانباً واطمأنوا إلى رمزية المقدس التي تنهى عن التعصب والتمييز العنصريين والدينيين مبتعدين عمّا يمكن تسميته أيديولوجيات الأسلمة التي تنقض كلياً ما جاءت به دولة إسرائيل تحت شعار «أيديولوجيا التهويد».

لم يغير الخليفة العباسي اللاحق المأمون بن هارون الرشيد من سياسة أبيه، فواصل اهتمامه بسكان المدينة من غير المسلمين، الذين كان يحق لهم التجوال الحر بالمدينة وخارجها من غير عوائق وترهيب. وتعبيراً منه عن تقدير المدينة قام بزيارتها، وقام بإعادة بناء المسجد الأقصى، بعد أن ألحقت به الزلازل أضراراً كثيرة. وبداهة فإن تسامح الخليفة العباسي لم يكن مجرد تطبيق نزيهٍ لتعاليم الدين الإسلامي بل تضمن سياسة الدولة القوية القادرة، فقد كانت القدس آنذاك مدينة مستقرة، وكان لدى الخلافة الإسلامية من الأدوات والوسائل ما يسمح بالدفاع عنها. كان تسامح المأمون وأبيه ترجمة للقوة المتسامحة أو لذلك النوع من التسامح الذي يكون قادراً على التمييز بين التسامح من جهة والتنازل المجاني من جهة أخرى. فالمقدَّس الأعزل الذي تنقصه القوة لا يشكل حماية في حد ذاته، إذ هو يغري غيره به ويحرضه على انتهاكه واغتصابه بل ويجعله مستهدفاً في كل آن وزمان. إن الإيمان الحقيقي بالمقدَّس لا يَظْهر صريحاً إلا من خلال من يؤمن به ومن يكون مستعداً للتضحية والقتال المُخْلِصَين في سبيله.

تحوّل القوة العارية المقدَّس ومدنها المقدسة إلى أمر نسبي بما يجعل من مقدَّس الطرف الضعيف مختلفاً عن مقدَّس الطرف القوي. ذلك أن القداسة تستدعي مفهوماً بعيداً عن المقدس ألا وهو القوة، حيث قامت «إسرائيل» بإحلال القوة الغاشمة بدلاً من قوة الحقّ والقانون والدين والشرائع. وربما

تكون علاقة المقدس النسبي بالقوة هي ما يتجلى أساساً في الغطرسة الإسرائيلية الرامية إلى تهويد القدس. بل إن علاقة المقدَّس بالقوة هي التي صاغت تاريخ الحروب الصليبية في علاقتها بالقدس خاصة وببلدان المشرق عامةً. فعندما ضعف المسلمون في زمن الدولة السلجوقية تقدمت الحملة الصليبية عام 1190م مقررةً الوصول إلى القدس وفرض السيطرة عليها، يقول المؤرخ ابن الأثير، في هذا الصدد، سارداً علاقة المقدَّس بالقوة: «اختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد». لم يكن سقوط القدس آنذاك إلا محصلة لتداعٍ عربي شامل، فإضافة إلى تفكك الدولة السلجوقية، كانت الحملات الغربية في الأندلس تُضيّق الخناق على العرب كي تدفع بهم إلى خارج الأندلس.

لا غرابة أن يحتفي الصليبيون باحتلال القدس كما احتفى العرب والمسلمون باحتلالها زمن عمر بن الخطاب مع فارق رئيسي: احتل العرب المدينة واعترفوا بحقوق سكانها، أما الصليبيون فقد واجهوا السكان بالكراهية وبإلغاء وجودهم. يثير اختلاف الموقفين ما يدعى اليوم بعلاقة «الأنا بالآخر». لقد مارس المسلمون اعترافا مسبقا بأهل الديانات السماوية خلافاً للصليبيين الذين خلطوا بين النهب والمقدَّس وإلغاء الآخر ورموزه. لقد مارس المسلمون سياسة السلام القائمة على الاعتراف المتبادل، وتوقف الصليبيون عند مبدأ الإقصاء الشامل إلى درجة دفعتهم إلى إنكار حقوق المسلمين واليهود في العيش في المدينة. وما سياسة تهويد القدس الدارجة اليوم إلا صورة أخرى تذكر تاريخياً بموقف الصليبيين بالمقدَّس، بل إنها تزيد عليه إنشاء بنية تحتية صلبة فوق أرض المقدس، اعتقاداً أنها سترسخ حقاً وهمياً لهم في السيطرة. والمعروف أن إسرائيل انطلقت من نشر مستوطنات فوق الأرض المقدسة لتسد فراغاً فشل الصليبيون في اعتقادهم في ملئه عندما احتلوا الأرض المقدسة. وتوجه إسرائيل نقداً شديداً إلى الصليبيين لأنهم لم يثبّتوا أقدامهم في الأرض المقدسة بإنشاء أرضية تغرس جذورهم في أعماق التراب المقدَّس، بل إنهم يفتخرون بقيامهم بما لم يقم به الصليبيون من واجب الهيمنة والغطرسة على الأرض المقدسة. فتهويد المدينة هو خسارة أبعادها الدينية والثقافية المتعددة واختزالها إلى بعد واحد يتماشى مع الاعتقاد الديني بـ «شعب الله المختار»، وهذا ما يجعل إسرائيل تضيّق على ما تبقى من الفلسطينيين في المدينة وتمنعهم من ترميم بيوتهم القديمة كما لو كانت الإدارة الإسرائيلية بداية تاريخ جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وربما يكون من المجدي أن نعقد مقارنة بين تهويد القدس على الطريقة الإسرائيلية وإلغاء القدس على الطريقة الصليبية. فقد طرد الصليبيون المسلمين من القدس تماماً وحرّموا عليهم دخولها، وصادروا أماكن عبادتهم وتصرفوا بها كما يشاؤون وفقاً لأغراضٍ دينية وغير دينية. بل إن الصليبيين قاموا بطرد المسيحيين المحليين من المدينة إيماناً منهم بأنهم يناصرون المسلمين ويتعاطفون معهم، كما طردوا الكهنة الشرقيين من رجال الدين المسيحي الذين عاشوا مع العرب وتعايشوا معهم. وقد ترجمت هذه السياسة سواء ما انتسب منها إلى المقدَّس أم غير ذلك تصوراً غير ديني قوامه القوة العارية والغلبة والإخضاع، مرجعه تصور عنصري للعالم يضع الغرب فوق الشرق ويضع المسيحي الغربي فوق المسيحي الشرقي. وكأن الأمر في جوهره بعيداً البعد كله عن الدين، والتوق إلى المكان المقدس بقدر ما هو تجسيد لسياسة استعمارية خالصة تجعل

من شعب مهزوم عبداً لشعب آخر منتصر. وما تقوم به إسرائيل اليوم رغم الرطانة الدينية المفتعلة هو استعادة لسياسة استعمارية قديمة في شكل تاريخي جديد يسمح لإسرائيل بأن تعبث بحقوق العرب الفلسطينيين وبمعطيات التاريخ، مبرهنة أن القوة هي المؤرخ الوحيد الذي ينطق بالحقيقة.

عبّر صلاح الدين الأيوبي في علاقته بالقدس وتحريرها من الصليبيين عن أمرين رئيسيين: الأول استئناف التسامح الإسلامي الذي أخذ به عمر بن الخطاب واتبعه الخلفاء العباسيّون من بعده، والثاني ترجمة نموذجية لشكل العلاقة بين المقدَّس والقوة، إذ أوضح معنى المقدَّس لدى طرف إنساني يؤمن به حقيقة. ولهذا لم ينكل بغير المسلمين حين دخل القدس بل سمح للصليبيين بالخروج سالمين مع ممتلكاتهم، كما مكنت القوة المؤمنة بالمقدَّس من تأكيد القدس مدينة للسلام، تتعايش فيها ديانات سماوية متعددة من دون تنازع واقتتال.

دخل صلاح الدين مدينة مقدسة وتزود بالقيم التي تمليها على من يدخلها كما لو كان تاريخ المدينة قد أنطقه باسمه، ليؤكد أن الدفاع عن المكان المقدَّس يتجلى أولاً بالفكر والممارسة وأشكال القتال التي تليق بالمقدَّس وتعبر عن دلالته، وهذا يكشف عن الفرق بين الصليبيين وصلاح الدين. وبينما انتسب الصليبيون إلى القدس محمّلين بالكراهية والعنف والنزوع إلى الدمار والتدمير، طرق صلاح الدين أبوابها بقيم جديدة توائم روح المدينة التي دافع عنها. ومن الواضح أن الإسرائيليين هذه الأيام ينهجون نهج الصليبيين قبل قرون، موحدين بين الهوس الديني والعنف المفتوح، منطلقين من تصورين؛ لاهوتي يضع اليهودية فوق الإسلام، وعنصري يجعل الإسرائيليين فوق العرب والمسلمين، ويضع الاستراتيجية الصهيونية فوق الأديان والبشر جميعاً.

يستلزم الدفاع عن القدس العودة إلى تاريخها حين فتحها المسلمون واحتلها الصليبيون، واستعادها المسلمون مرة أخرى، وصولاً إلى إسرائيل التي احتلت المدينة من جديد. فقد جمع الفتح الأول بين الإيمان والقوة، وجمع الفتح الثاني الإيمان والإرادة والاستعداد والمهارة العسكرية. والعنصر المشترك بين الحدثين التاريخيين الكبيرين هو القوة المادية، إذ إن الإيمان وحده لا يكفي، مثلما أن الاستعداد الذي يفتقر إلى العلم والمعرفة لا يعطي الكثير. والسؤال الذي يبرز هنا والحال هذه هو: لماذا تمكن الصليبيون من احتلال القدس، وكيف استطاع الإسرائيليون احتلالها من جديد؟ مثل هذا السؤال يحيل على التفرقة لتغليب المصالح الفئوية على الغايات الجماعية وعلى البلاغة الجوفاء التي تتحدث عن العدو ولا تعرف إمكانياته حقاً. كما أن السؤال يحيل على التجزئة والتخلف والتفرقة العربية في ظرف تاريخيٍّ مختلف.

يحيل الدفاع عن القدس إلى تأمل مواضيع كثيرة ذات صلة بالماضي البعيد والحاضر أيضاً: كيف يعبر الإنسان المؤمن بقضية المقدسات عن ارتباطه بها؟ ما العلاقة بين الإيمان والتحولات التاريخية؟ هل المطلوب الحديث عن الحق المفقود، أم أن المنطقي هو الحديث عن السبل المادية والوسائل الفعلية التي تستعيد حقاً أو تتركه مخذولاً، حتى لو لم ترغب في ذلك؟◆

قبة الصخرة المشرفة والمتوضأ (الكأس) الذي أقامه الملك الأيوبي العادل (589هـ - 1193م).

ملف العدد

قراءات

فيصل درّاج
محمود درويش
محمد عصفور
إبراهيم خليل

شهادات

هيئة التحرير
عاصم الشهابي
عد الرحمن منيف
فاروق يوسف
محمد شاهين
يوسف عبد العزيز

ما معنى القدس اليوم؟

قراءة في أحوال مدينة مقدسة مقيدة

فيصل درّاج

لا ينفصل وعي الشعب، الذي له عمق تاريخي، عن الرمز الذي يرى فيه ذاته، جاء ذلك عن تصميم وإرادة أو أتت به صدفة تاريخية صيّرته عرفاً. ولا ينتقل الشعب من وعي إلى آخر إلا بانفصال عن الرمز القديم واستقدام رمز جديد. فالإنجليزي يرى رمزه في البحر الذي ينقله من جزيرة صغيرة إلى أرجاء العالم كله، والألماني يرتاح إلى رمز الغابة، التي تتمتع بالقوة والاستمرار والتجدد. وإذا كان في هذين الرمزين ما يحيل على عنصرين من عناصر الطبيعة، يقبلان بتأويل خصيب، فإن الفرنسي يستمد رمزه من الثورة الفرنسية، القائلة بالحرية والمساواة والأخوة، التي أقامت حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والأزمنة الحديثة. ولكن ما علاقة هذا التقديم بمدينة القدس وبمكانها في الوعي الوطني الفلسطيني؟

يفرض السؤال التمييز بين شعوب هادئة مستقرة، تحتفظ برموزها هادئة من دون اضطراب، وبين الشعب الفلسطيني، الذي اغتصبت أرضه ومدنه وقراه، واغتصبت مدينته المقدسة أيضاً، أي القدس. ولعل هذا الاغتصاب، الذي يتعاظم عاماً بعد عام، هو الذي يحول القدس إلى مدينة- رمز بصيغة الجمع، بعد أن كانت مدينة- رمزاً بصيغة المفرد. فقد عرف الفلسطينيون القدس رمزاً مقدساً، قبل احتلال فلسطين عام 1948، واحتفظت برمزها المقدس وغدت رمزاً لاستقلال منشود، بعد أن قالت منظمة التحرير بدولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، وأصبحت المدينة الثنائية الرمز هاجساً وطنياً متميزاً، بعد أن دخلت، منذ عام 1967 حتى اليوم، في مرحلة تهويد سافرة، تكاد أن «تقوّض» الرمزين معاً.

عرفت المدينة المقدسة في هذا التحوّل المأساوي أطواراً متعددة: مثّلت في البداية رمزاً دينياً، فرضه تاريخ خاص بها يلتبس بالقداسة، وصارت لاحقاً رمزاً دينياً- وطنياً، فهي مدينة المسجد الأقصى وعاصمة الدولة المرغوبة وتحوّلت، بعد التهويد الموسّع، إلى شبكة من الرموز، تلبي متخيلاً جماعياً متعدد العناصر، يتمازج فيه الماضي والحاضر والممكن والمحتمل والمرغوب. غير أن كل هذا لا يلغي سؤالاً مربكاً ومرتبكاً هو التالي: إذا كانت القدس المحتلة جزءاً من فلسطين المحتلة فما هو الفرق، من وجهة نظر الاحتلال والمقاومة، بين القدس وأية بقعة فلسطينية، طالما أن الاحتلال، كما الرد عليه، يساوي بين البقاع الفلسطينية كلها؟ يقضي السؤال، إن كان صحيحاً، التوقف أمام وضع المدينة المقدسة، قبل اقتراح جواب مجزوء، أو شبه مجزوء.

تميّزت القدس عن غيرها من مدن بلاد الشام، منذ «الفتح العمري» حين حظيت من الخليفة الثاني باهتمام خاص، فعمل على تنظيمها إدارياً، إعلاناً عن دورها السياسي الذي قصّرت عنه، في ذاك الزمان، مدن الشام والعراق ومصر وإيران، وقام بزيارتها وعقد صلحاً مع أهلها. أراد عمر بن الخطاب، الذي عامل القدس معاملة لم يحظ بها غيرها، أن يبرهن عن كونية الرسالة الإسلامية، التي تعترف بحقوق البشر جميعاً، متخذاً من القدس موقعاً مطابقاً يصرح بتسامح الدين الإسلامي وبقيمه الإنسانية. ومع أن بعض المؤرخين، الذي تعوزه النزاهة، يفسّر سلوك الخليفة العادل بشروط قال بها «المسيحيون» من أهل المدينة، فإن الوقائع التاريخية تقول بغير ذلك، لأن ميزان القوى العسكري، الذي كان إلى جانب العرب المسلمين، لا يسمح بشروط قاسية أو ليّنة. وواقع الأمر أن زيارة الخليفة إلى المدينة، كما الشروع ببناء المسجد الذي عرف باسمه، كانت قوام استراتيجية دينية- سياسية جلية الغاية والهدف، تتوّزع على اتجاهين: تكريس البعد الكوني للدين الإسلامي، الذي أكمل الديانات السماوية التي جاءت قبله، وتقديمه ديناً يتوّج في تسامحه وتكامل قيمه تلك الديانات. أراد عمر، وهو يتوجّه بحزم إلى الفاتحين المسلمين، أن يبرهن أن صورة الإسلام من صورة المنتسبين إليه، وأن المسلمين قادرون على ممارسة قيم كونية في مدينة كونية، تحتضن الديانات السماوية جميعاً.

سعى الخليفة الراشدي إلى ما سعى إليه بوضوح لا نقصان فيه: فقد دخل المدينة المقدسة مسلماً وأميراً للمؤمنين في آن، محاطاً بجيش يفوق تعداده أربعة آلاف جندي. عبّر في إرادته عن وحدة الإيمان والقوة، وعن بداية عهد إنساني جديد، بعد أن هزم العرب المسلمون الفرس والروم معاً. ما معنى هذا

في المتخيّل العربي- الإسلامي الفلسطيني اليوم؟ يحتقب المتخيّل الجماعي، والحال هذه، بعدين: بعداً دينياً خالصاً، يربط الفلسطيني بـ «الفتح العمري» ومسجد عمر ويضع في الروح الفلسطينية، أولاً، جملة من الذكريات والأطياف، وبعداً جوهره «القوة»، ذلك أن الخليفة الثاني لم يأتِ إلى المدينة «حاجاً» بل فاتحاً. وإذا كان في البعد الأول ما يطلق في الصدر أمواجاً من الحنين، فإن في البعد الثاني ما يثقل الصدر بالإحباط. تنوس رمزية القدس، في الشروط الراهنة، بين حنين إلى زمن لا يمكن الرجوع إليه وإحباط في زمن لا تمكن السيطرة عليه. تصبح القدس، في رمزيتها المتعددة، رمزاً للإحباط أيضاً، تدافع عنها الذاكرة، ولا يستطيع صاحب الذاكرة أن يدافع عنها.

يبلغ الإحباط، الذي تبعث به المدينة المحتلة، مرحلة جديدة، حين يتأمل الفلسطيني «مكر التاريخ» بلغة معينة، أو تجليّات القوة، بلغة أخرى. فبعد «الفتح العمري» يأتي، بعد قرون عدة، «تهويد المدينة» وبعد كونية المقدسة تأتي، بعد عقود عدة «يهودية المدينة»، التي تطرد التسامح الإسلامي القديم خارجاً، وتفرض غطرسة «العقيدة الواحدة» كما لو كانت القدس قد ولدت مدينة يهودية منذ الأزل، وكان لليهود حق تملكّها الحصري بلا أطراف «خارجية». ظهر ذلك واضحاً في إعلان «أورشليم 3000» الذي رافقته حملة إعلامية هائلة متعددة الوسائل. أراد هذا الإعلان أن يذيع، على العالم أجمع «حقائق» جديدة- قديمة لها شكل البداهة: أن القدس هي التعبير الصريح عن الدين اليهودي وتراثه، وعاصمة مملكة إسرائيل القديمة وعاصمة إسرائيل «المستعادة» وهي المدينة الموحّدة» التي استعادت ألقها وازدهرت بشكل غير مسبوق، والتجسيد الحي للمدينة القديمة، كما يريدها المتخيّل اليهودي والمسيحي الغربي معاً، وأن لها تاريخاً واحداً، يبدأ بالشعب اليهودي وينتهي به. لا غرابة أن يتضمن الإعلان تاريخ خرائطي للمدينة، منذ أن اتخذها الملك داود عاصمة له قبل ثلاثة آلاف عام، وأن تركّز الأضواء على «الحي اليهودي القديم» الذي أعيد بناؤه بعد وقوع القدس كاملة تحت السيطرة الإسرائيلية، عقب عام 1967. يقول تيدي كوليك، محافظ القدس بعد الاحتلال، في هذا المجال: «هنالك رغبة أكيدة من قبلنا، تدفعها أسباب عاطفية، لخلق مناخ يستعيد إلى الذاكرة الوضع الذي كان عليه عندما كان المركز الوحيد للحياة اليهودية».

تستثير الجملة الأخيرة تعليقاً مزدوجاً، يمس وجهه الأول البلاغة الصهيونية، ويحيل الوجه الثاني على موقف الذاكرة الفلسطينية من إعلان «أورشليم 3000». تتجلى البلاغة الصهيونية في سلطة الكلام التي هي من سلطة المتكلّم التي تترجم نهب الأرض الفلسطينية، الذي يقتضي الهدم والتدمير والاستئصال، بلغة جمالية، أو بلغة من علم الجمال تزوّر المرئي وتجمّل العدواني وتزخرف الإجرامي، كما لو كانت الكلمات تخلق الواقع وتمدّه بالشرعية المطابقة: فالرغبة الأكيدة قناع لغوي لسياسة تهويد المدينة العربية، والأسباب العاطفية محو للمعطى التاريخي بادعاءات الأسطورة، وخلق المناخ توليد فضاء يهودي خالص لا مكان فيه لـ «الأغيار» والذاكرة المستعادة هي مدينة داود التي سبقت المسجد العمري، و «المركز الوحيد للحياة» هو مركز الشعب الوحيد الذي امتلك القدس قديماً وحديثاً. تحتقب البلاغة الصهيونية العناصر الثلاثة التي تحايث كل تصور عنصري: ترهين أرواح الأجداد الذين تخترعهم ذاكرة مخترعة تمحو

المسافة بين الحاضر والماضي، وتخليق بداية مطلقة واحتكارها تنتهي، لزوماً، إلى نهاية مطلقة بما يجعل من بداية القدس ونهايتها بداية ونهاية يهوديتين، وإلغاء الحدود بين لغة السياسة ولغة علم الجمال، لا شغفاً بعلم الجمال بل لحجب حقيقة سياسية قائمة على «حقيقة القوة». هكذا يمحو داود آثار عمر بن الخطاب، وتمحو دولة إسرائيل القدس العربية.

ما الذي تثيره بلاغة «أورشليم 3000» في وجدان الإنسان الفلسطيني اليوم؟ وما موقفه وهو يتأمل لغة تيدي كوليك الواثقة المغتبطة؟ يستخرج دلالة الموقف الصهيوني في لحظة، ويرد عليه في لحظة لاحقة: يقرّر الخطاب الصهيوني، الذي يخترع ماضياً يلتبس بالحاضر، أن الفلسطيني لا حق له في الإقامة في القدس لأنها «المركز الوحيد للحياة اليهودية» وأن عاصمة داود وعاصمة دولة إسرائيل لم تكن أبداً مدينة عربية، وأن الذاكرة اليهودية تهزم غيرها، لأن صدقها من قدمها وقدمها حق منزّه عن «التزوير». وسواء كان الخطاب الصهيوني قوة عارية تغتصب معنى الحقيقة، أو حقيقة هشة تتكئ على سياق ظالم باذخ القوة، فإن للفلسطيني خطابه الذي يسعفه على الوقوف والمقاومة: هناك أولاً المتخيل الجماعي الموطّد برمزية المقدس، الذي يتضمن الإسراء والمعراج ومسجد عمر وقبة الصخرة، وهناك ثانياً فجائعية التاريخ الفلسطيني في القرن العشرين، التي تقول بمسؤولية الأحياء إزاء الأموات وبدور الأموات المعنوي في نصرة الأحياء، ونرى ثالثاً أقدار الفلسطيني المأساوي، الذي هويته من دفاعه عن حقه، فلا هوية لإنسان محتل لا يلجأ إلى المقاومة، ونجد أخيراً ذلك المبدأ الذي يخترق حياة المخلوقات جميعاً: التحدي والاستجابة، الذي يستمر قاعدة متواترة، دون الاحتكام إلى معايير النصر والهزيمة.

تأخذ القدس اليوم، في اللغة الفلسطينية، دلالتين، تتطابقان أو تتوازيان: فهي لدى الفلسطيني العادي، تحزّب أم لم يتحزّب، مدينته الأثيرة، وهي في اللغة السياسية الفلسطينية الرسمية، عاصمة دولة فلسطين القادمة. والسؤال الآن هو الآتي: إذا كان الفلسطيني العادي يلتصق بمدينته المقدسة متوسلاً الذاكرة والتربية الدينية والهوية الوطنية، فكيف تستطيع السلطة الفلسطينية أن تنتزع عاصمتها من طرف إسرائيلي يرى في القدس عاصمة أبدية لإسرائيل؟ أكثر من ذلك: هل ما تبقى من القدس التي هوّدت ويستكمل تهويدها، يسمح فعلاً أن يكون عاصمة فلسطينية؟ وما معنى الانتساب إلى هدف إن لم يكن المسؤول الفلسطيني منتسباً إلى سياسة متسقة مقاتلة قادرة على تحقيقه؟

تستدعي الأسئلة السابقة مواضيع عدة تتوزع على السياستين الإسرائيلية والفلسطينية معاً. أما السياسة الأولى، في علاقتها بموضوع القدس، فواضحة ثابتة، أنجزت ما تريده بهدوء وتستر أم أنجزته في وضح النهار دون أن تلتفت إلى أحد. فمنذ عام 1967 وإسرائيل ماضية في تغيير معالم القدس وبنيتها السكانية والمعمارية مبرّرة ذلك، أو غير آبهة بالتبرير، بالتوسع السكاني وبتحديث المدينة وبالكشف عن آثارها دون أن تعنى بقرارات الأمم المتحدة المتعددة، التي حذرت إسرائيل من التصرّف بأحوال المدينة. فما أرادته إسرائيل، ولا تزال تمسك به، هو تحويل القدس من مدينة متعددة الثقافات ومتعددة الطوائف إلى مدينة يهودية الملامح والقرار، مخالفة جوهر المدينة التاريخي، الذي مثل التعدد الثقافي والديني. وإذا كانت إسرائيل قد سعت إلى ما تريد بسياسة مضمرة مثابرة، فقد انتقلت منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي من الإضمار إلى العلن، موكلة إلى محافظ المدينة تيدي كوليك سياسة تهويد

المدينة، الأمر الذي جعله يعد بألا يتبقى من القدس العربية، في مطلع الألفية، أكثر من 10%. وهو ما احتفل به، على أية حال، في إعلان «أورشليم 3000» عام 1996، بمناسبة مرور ثلاثة آلاف عام، كما يقال، على إنشاء عاصمة داود. والعودة السريعة إلى بعض المعطيات التاريخية تكشف عن استراتيجية التهويد من دون عناء كبير. ففي عام 1967 كان يعيش في القدس الشرقية وما يجاورها حوالي 70000 من الفلسطينين، بينما كان يعيش في القدس الغربية حوالي 200000 من اليهود. وبعد أن احتُلت المدينة اعتبرت حدود المدينة البلدية لاغية وقام كوليك بإعادة «توزيع المدينة» موسعاً المساحة التي يقطنها اليهود ومقتطعاً من أرض العرب ما يشاء. وهذا ما جعل 160000 من يهود القدس الشرقية يمتلكون 90% من المناطق السكنية، مقابل 10% استبقيت لسكانها العرب. إلى أن تمددت مناطق اليهود إلى 1250 كيلومتراً مربعاً، تقوم ثلاثة أرباعها في الضفة الغربية. وإضافة إلى استباحة المدينة جغرافياً، أكملت إسرائيل مقاصدها حين تعاملت مع عرب القدس العربية: «مقيمين أجانب» لا يحق لهم الانتخاب، باستثناء المشاركة في الانتخابات البلدية، وحين منعتهم من المشاركة في مؤتمر مدريد (نهاية عام 1991)، على اعتبار أنهم ليسوا إسرائيليين ولا عرباً لأنهم، بالمعنى البسيط، «سكان» لا حقوق لهم. وفي الحالات جميعاً طبقت إسرائيل، منذ عام 1967 حتى اليوم، قاعدة تقول: «السيطرة على كل ما هو عربي ومسلم»، كي تصبح القدس مدينة «شعب الله المختار»، الذي له حقوق تفوق حقوق غيره، إلا أنه الوحيد الذي يحدد معنى الحق والحقوق.

ليست الاستراتيجية الإسرائيلية الخاصة بمدينة القدس إلا صورة عن الاستراتيجية الصهيونية في الأرض الفلسطينية كلها، وإن كانت أكثر سفوراً وصراحة. لا صعوبة تذكر في قراءة ثوابت الاستراتيجية الثانية، أو قراءة الاستراتيجيتين معاً، التي تترجم ذاتها، بلا تلعثم، في مقولات أربع: أولها اعتبار الفلسطينيين كتلة سكانية تعيش فوق أرض إسرائيل، لا تاريخ لها ولا جغرافيا ولا ثقافة، لأن هذه العناصر من نصيب شعب تاريخي له هوية وتاريخ دولة. وتقول ثاني المقولات: العمل على حشر هذه الكتلة السكانية في منطقة محدودة (عازلة) من الأرض، وتوطيد الحشر بمصاعب اقتصادية وعقوبات متلاحقة تفضي، لاحقاً، إلى هجرة طوعية أو إلى تهجير قسري جديد، إن توفرت الشروط. فبعد اغتصاب الأرض يجري اغتصاب الحق في الحياة. الذي يأكل الكتلة السكانية، أو يجعلها تأكل بعضها، في انتظار حرقها ورمي رمادها خارجاً. ولهذا لن يكون الحكم الذاتي في المنظور الإسرائيلي، وهنا القوة الثالثة، أو السلطة الوطنية، باللغة الفلسطينية، إلا مختبراً جديداً يدفع الشعب الفلسطيني إلى التآكل بأدوات فلسطينية أو بأدوات فلسطينية-إسرائيلية في آن. يسير الفلسطينيون، والحال هذه، إلى تآكل قضيتهم، ليس انصياعاً لتعاليم إسرائيلية بالضرورة، بل بسبب هندسة إسرائيل لأشكال الحياة الفلسطينية، التي تتضمن الاختناق والتصادم و «اصطياد» الفلسطينيين بعضهم بعضاً. أما المقولة الرابعة، فتتمثل في الرهان على الزمن، حيث «المفاوضات» تجري كما يشاء لها الإسرائيليون، ممتدة من عام إلى آخر ومنتقلة من اقتراح إلى غيره، وحيث «تهويد» فلسطين كلها يجري كما تشاء له الاستراتيجية السياسية الإسرائيلية أن يجري أيضاً. ولهذا قال بعض المسؤولين الإسرائيليين، بعد اتفاق أوسلو 1991، إن دولة الفلسطينيين المستقلة ممكنة في نهاية القرن ثم أضاف إليها مسؤول

آخر خمس سنوات أخرى. إلى أن صرّح «ليبرمان» مؤخراً، إن السلام مع الفلسطينيين لن يتحقق قبل 2025. سيأتي السلام بعد عقد ونصف في المنظور الصهيوني، بمعنى وحيد: إنهاء القضية الفلسطينية بشكل لا يتبقى فيه ما هو جدير بالمفاوضات، يحقق «يهودية أرض إسرائيل»، التي تتمتع بعاصمة يهودية الشكل والمضمون هي: القدس.

وإذا كان البعض يشتق تفاؤلاً مخترعاً من الوقت الراهن متحدثاً عن رغبة العرب بالسلام وبقرارات الشرعية الدولية، فإن العودة إلى التاريخ تريح من مقايسات صحفية – وعظية كثيرة. لم تقم دولة إسرائيل على أي شكل من أشكال الشرعية، قامت على القوة المسلحة التي أضافها «الغرب» إلى المطامع الصهيونية، وتوسعت وتمددت في أول كانون الأول من عام 1918، حين سأل رئيس الوزراء الفرنسي كليمانسو الوزير البريطاني لويد جورج: ماذا تريدون من الشرق الأوسط؟ أجاب الأخير: الموصل، مشيراً إلى بترول العراق، وسأله من جديد: ألا تريدون شيئاً آخر فأجاب: فلسطين. بعد أربع سنوات جاء الانتداب البريطاني وأعطى الصهاينة الجزء الغربي من فلسطين، الذي أصبح وحدة جغرافية سياسية محددة عاصمتها القدس. وبعد خمسين سنة تقريباً ستحتل إسرائيل كل فلسطين 1967. وبعد عشرين سنة أخرى تقريباً سيعلن كوليك مشروع تهويد القدس، وبعد عشرين سنة أخرى سيستمر تهويد القدس وفلسطين، انطلاقاً من مبدأ استعماري أول، يساوي بين القوة والحقيقة.

في مقابل سياسة صهيونية-إسرائيلية تعرف ما تريد، وتؤمن الوسائل المعنوية والمادية اللازمة لتحقيقه، تقف سياسة فلسطينية لها مواصفات مغايرة، فقبل الوصول إلى أوسلو، وفي سنوات كان الوعي السياسي الفلسطيني فيها مغتبطاً، تنقل الرسميون الفلسطينيون بين شعارات كثيرة، تحدثت عن: تحرير كامل التراب،الدولة العلمانية الديمقراطية، الدولة الثنائية القومية،السلطة الوطنية،... سواء جاء هذا الانتقال عن تراكم في الخبرة، أو عن تفاؤل سعيد معطوب الخبر، فقد عبّر عن اضطراب في المقدمات والنتائج. وما أن جاءت الانتفاضة الفلسطينية الكبرى عام 1987، التي تم تبديد دروسها على أية حال، حتى ظن الوعي المتفائل بالسليقة أنه ذاهب إلى فلسطين لا محالة مستبشراً هذه المرة، بلقاءات كثيرة في عواصم متعددة: أوسلو، ومدريد وواشنطن، هذه الأخيرة التي شهدت «سلام الشجعان». بيد أن «السلام الشجاع» المزنّر بتفاؤل غريزي، وافق على اتفاق معقّد دون أن يتقرى لغة الاتفاق، مكتفياً بنوايا الاتفاق زاهداً بالتفاصيل، التي يعثر الشيطان فيها على مكان مريح، كما يقال. ولهذا وجد الفلسطينيون، الذي يستبدلون بمنطق العمل السياسي منطق النوايا الحسنة، التي تقود إلى جهنم غالباً، واجهوا خريطة معقدة من ضباب منتهين، وهم الطرف الضعيف، إلى خيارين: السير من تنازل إلى آخر يحرمهم من «السلطة»، والمراهنة على «القدرة على الإقناع» التي تحاصر التنازلات وتعد «الشعب الإسرائيلي بأمان مستديم». حصدت «الدبلوماسية الفلسطينية» ثمار شعارها الغريب: إقرار المبادئ ثم الذهاب إلى المفاوضات، مخالفة المنطق السليم الذي يقول بالعكس تماماً. وزاد الأمر بؤساً، بعد أن دخلت القيادة «القفص السلطوي»، تلبية للسياسة الإسرائيلية التي توحّد بين ضرورة التنازلات المفتوحة واستعمال القمع لتحقيقها. لم يصل الفلسطينيون، بعد أوسلو، إلى السلام، بل إلى قمع يكاثر التنازلات، وإلى تنازلات جديدة تؤسس لانشقاق الشعب الفلسطيني. أكثر من ذلك: لم تأتِ

اتفاقية أوسلو، التي اعتبرها شيمون بيريس النصر الإسرائيلي الثاني بعد 1948، بالسلام ولا بدولة فلسطينية، بل جاءت بما شطّى بقية الأرض وقسم الشعب الفلسطيني، سياسياً، إلى قسمين، معطياً إسرائيل حجة جديدة، لا تحتاج إليها على أية حال، تقول: لا يمكن التفاوض مع شعب فلسطيني يفتقر إلى قيادة موحّدة. وبإمكان الأمر أن يتكشّف، مأساوياً، في اتجاه آخر، كأن يقول الشعب الفلسطيني: لا يمكن الالتفاف وراء قيادتين، تقاتل كل منهما الأخرى، وأن يقول المؤرّخون: قاتل الفلسطينيون، قبل اتفاق أوسلو، عدوهم الصهيوني وقاتلوا، بعد الاتفاقية، بعضهم بعضاً، منتهين إلى وضع مأساوي، لا يستطيع أن يفعل للقدس، ذلك الرمز الديني والوطني الكبير، شيئاً. وتزداد الصورة تعقيداً في اتجاهيها العربي والإسلامي: فإذا كانت القدس عربية، حال فلسطين كلها، فمن واجب العرب، بأقدار مختلفة، الدفاع عنها، وإذا كانت مسلمة فعلى المسلمين أن يهبّوا إلى نجدتها. والواقع لا يقول بهذا ولا بذاك.

يعود السؤال المأساوي، الذي استهل به المقال، مرة أخرى: ما معنى واقع القدس اليوم، وما معناها في الوجدان الفلسطيني؟ والجواب بسيط: القدس اليوم تتهوّد وسائرة من تهويد إلى آخر، وقدس الوجدان الفلسطيني ضبابية، واقع واحتمال وموروث وحنين، تشير إلى أندلس بعيد، حيناً، وإلى إيمان بقدسية قضيتها، تحيل على أرواح خيرة واجب التمسك بالمدينة. نقطة أخرى مستها السطور السابقة بعجالة، أو باضطراب، تقول: إذا كان واجب الدفاع عن القدس المحتلة التي هي جزء متميّز من أرض محتلة، يقع على الفلسطينيين أولاً، ومن يناصرهم في المقام الثاني، فهل يتبقى ما يميّز المدينة المقدسة عن غيرها من المناطق الفلسطينية المحتلة؟ يأتي الجواب، عقلانياً، بالنفي لأن ممارسات الاحتلال لا تفصل بين المواقع المقدسة وغيرها. ولعل هذا الواقع، الذي يساوي فيه الاحتلال بين أجزاء فلسطين جميعها، هو الذي أملى على الوعي الفلسطيني، في شكله الأدبي على الأقل، أن ينتقل من رمز إلى آخر، معبراً عن وعي دنيوي جديد قوامه: الاحتلال والمقاومة. ولهذا كتب محمود درويش ديواناً شعرياً عنوانه: «عاشق من الجليل»، مؤكداً الجليل رمزاً فلسطينياً، وكتب غسان كنفاني روايته عائد إلى حيفا، قائلاً برمز جديد، وتحدث عز الدين المناصرة عن «يا عنب الخليل» و«جفرا»... إن كانت الأزمنة الهادئة تقنع الأرواح السعيدة برمز وحيد، فقد فرضت المأساة على الفلسطينيين تعددية الرموز، التي تتنوع وتتعدّد وتترافد مقبرة فلسطين التي هي الرمز الأكبر، الذي يحتضن كل الرموز.

يشتق الوعي الدنيوي الفلسطيني ما شاء من الرموز ولا يزهد برمزية القدس، التي تحلق فوق الرموز جميعاً: فهي موقع الإسراء والمعراج، والمدينة التي أقنعت عمر بن الخطاب، الذي لم تعرف البشرية نظيراً لعدله كما يقول طه حسين، بأن يقوم برحلة واحدة من خلال حكمه، وهي المدينة التي حرّرها صلاح الدين الأيوبي، وهي عاصمة فلسطين الأبدية، على مستوى الرغبة والحلم.

إن كانت الذاكرة تشكل قوة فاعلة، فإن ديمومة القدس من الذاكرة التي تحملها، الممتدة من فلسطيني عجوز يلفظ، أنفاسه الأخيرة، إلى طفل عربي يشرح له معلمّه صفات عمر بن الخطاب ومزاياه الفريدة◆

محمود درويش

تقاسيم على صورة القدس

اليوم، علقت على خشبة... من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب ساعة، تصبح القدس زماناً، والمكان هو عيوننا، كل شيء خارجنا- المدن، الدموع، المساء الذي لا ينتهي. وفي داخلنا تستقر المدافع المضادة للطائرات ولحنين الأنبياء، لقد سمينا القدس كل الأسماء التي لا تلائمها. وأعلنّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت. لم يخرج منا «ارميا» واحد يتجول في شوارعها وفي عيوبنا... يلعننا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة فلن نصل إلى الصواب

وإذا لم تبلغنا المراثي فلن نذوق النعمى.

لتسكت... لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس.

ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد. فليس لنا فيها حائط. والقدس عاصمة الخيام البعيدة، ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين. لتسكت... لتسكت دموع اليوم حتى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفاً من الشجاعة.

حدث مرة واحدة في حياتي أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة، لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أيضاً أن تحولت صخرة إلى جندي.

حدث ذلك في القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي.

ومنذ الآن.. منذ هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علمني هذا الصمت؟ ومن علم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟

من علمني كل هذه الشجاعة؟ ومن علم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى الغمد، كلاً ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب... هذا الاغتراب... هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

لم يكن لقاء، ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعظم، هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس.

تهجم على باعة الصحف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة.. تهجم عليهم في نشوة انتحار. تأخذ أشياءهم، وتصيح تصيح بأعلى صمت: من يشتري صدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة؟ ثم تبتسم للغزاة.

ينحني ظهرك. كقوس عربية أيام كان العرب فرساناً وأيام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة! تتردد.

ليت ظهرك معدن كي لا ينكسر

وليت صمتك معدن كي يصدر صوتاً أو رنيناً

ثم يأخذك الحلم إلى مداخل المدينة: من يشتري تاريخك بلحظة انتصار من أجل الزينة.. من أجل الزينة. وأنت أمير المؤمنين بأن الجهاد حق، والموت حق.

لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أنا بائع الصحف في كل زمان ولغة... وأصحاب القدس يبيعونني ويستقبلون الفاتحين ويتكلمون في الحضارة وعلم الأجناس. لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أعطوني صحفاً أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.

(هكذا قال بائع الصحف)

-لا تطل نوافذها على شيء.

مفتوحة تأتيها الهضاب التي لا تُحصى أيام الحرب. أيام الحرب لا يُحصى إلا الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كتبوا عليها: «يا أورشليم من ذهب».

وعلى مرمى حلم صغير، رأيتني خارجاً من زنزانة الكرمل التي حجبت عني شكل الحرب، هل رآني أحد وأنا في القدس لكي أعتذر له؟ لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلّ على شيء يعنيني.

أوقفتني جندية صغيرة وسألتني عن قنبلتي وصلاتي. اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حرب، وعلى ذراعي اليسرى آثار ربّ، لكنني لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية: وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها.. ماذا تفعل بك لو ربحت؟

قلت: أشتري لوناً لعيني حبيبتي.

حسبتي الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

(المتكلم- محمود درويش)

-كنز من الصخر، والهزيمة، والشجر النادر.

لو كانت مدينتي الآن معي لتنازلت عن حنجرتي، وشربت الماء المثلج من جدول يسكن جبلاً.

لو كانت مدينتي الآن معي لاعتذرت عن كل مواعيدي، حتى مواعيد الموت التي حددتها وكنت أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكثيرة، والهزيمة الموحية.

في البدء لم يكن الفعل، ولم تكن الكلمة. في البدء كانت.. الهزيمة.

لو كانت مدينتي الآن في حقائبي لرحلت. من رآني خاصمني وقتلني لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يولد حتى الآن. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي.

لوحة من الصخر معلقة على سبعة تلال، وثلاثة آلاف سنة، وخمسين نبياً، وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمسة قرارات من الأمم المتحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتد إليها ولا تصل...

وصلت، يوماً، قبل يدي فترنحت على أحد الأرقام. لم أمسك بشيء لأني وصلت قبل يدي، وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دماً، وعيوناً، وتواريخ، وأحذية، ومراثي، وعروشاً، ومسامير، وأشعاراً... تنهمر الأرقام وتقتلني لتزيد القتلى والعشاق وأسماء القدس. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي. ويا أيها السادة كنت أكذب عليكم. ليست القدس هذه المدينة. هذه المدينة ليست القدس.

(هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة) ◆

محمود درويش، **الأعمال الكاملة** 3، (ص 469-474).

ثُرَيّاتٌ مُتَلاحِقَةٌ، اسْتِمْرارٌ لِنُجومِ السَّماءِ:

جبرا إبراهيم جبرا والقدس

محمد عصفور

يقول جبرا في مستهلِّ مقالةٍ جميلةٍ عن القدس نشرها في مجلَّة حوار في سنة 1965:

«مدينة القدس ليست مجرّد مكان: إنها زمان أيضا. فهي لا يمكن أن تُرى بوضوح ضمن نطاقها الجغرافي المحدود وحسب، لأنها حينئذ لن تُفهم. إنها يجب أن تُرى في منظورها التاريخي، وتُرى كأن التاريخ – تاريخ أربعة آلاف من السنين – اجتمع في لحظة واحدة، هي اللحظة التي يراها المرء فيها. في هذه المدينة التاريخ حيّ، ينطق به كلُّ حجر. إنه تاريخ مليءٌ بالتناقض، مليءٌ بالفجيعة. ولكنه أيضاً تاريخ مدينة عشقتها البشرية جمعاء، لأنها لم تكن يوماً مجرَّد مدينة مكانية من حجر وطين وتجارة وسياسة. لقد كانت دوماً مدينة الحلم والتوق وتطلُّع النفس البشرية إلى الله. لقد وقفت شامخة على جبل، تنظر إلى البحر من جهة وإلى البادية من جهة أخرى. وبين جدرانها جمعت بين معاني البحر ومعاني البادية: قوَّتين حضاريَّتين في تفاعل أبدي. وفي هذا التفاعل سرُّ مأساتها وسرُّ عظمتها[1].»

تضمُّ هذه الفقرة مادَّة المقالة بكاملها على نحو مركَّز: تلمِّح إلى ارتباط كاتبها بها من حيث إنها مكان له فيه ذكريات خاصة، وإلى تمعُّن الكاتب بتاريخها الذي يمتدُّ أفقيّاً ما بين حضارتي البحر والبادية، وعموديّا ما بين الأرض والسماء.

ويتَّخذ ارتباط جبرا بالقدس المكان شكلين: أحدهما شخصيٌّ والآخر موضوعيّ. وقد تمثَّل الارتباط الشخصيُّ في أبسط أشكاله بحادثة انتقال عائلة جبرا من بيت لحم للعيش في القدس في غرفة واحدة في «جورة العنّاب»، حيث اضطرَّ الصبي جبرا للعمل في أحد الدكاكين بأجرٍ مقداره قرشان ونصف يوميّاً في عطلتين صيفيتين لأن الوالد لم يعد قادراً على العمل في تلك الفترة، وحيث التحق التلميذ النجيب فيما بعد بالكلِّية العربية، وكان من بين نخبة من طلبة فلسطين المبرِّزين الذين كانوا يتبارون في حفظ الدروس والتنافس في التحصيل الأكاديمي، وحيث أحبَّ، وتفتَّحت عيناه وأعين جيله على صراع مرير بين الفلسطينيين العزَّل من جهة وبين المستعمرين الإنجليز والصهاينة من جهة أخرى.

وأما الارتباط الموضوعي فيتمثَّل في رغبة جبرا في وصف مدينته الأثيرة هذه وصفاً يعطيها حقَّها بوصفها مدينةً كلُّ حجرٍ فيها يروي تاريخاً مليئاً بالكثافة الإنسانية والصراع المستمر. ولذا فإن جبرا يحاول رسم صورة القدس كما عرفها وكما ظلَّت حيَّةً في مخيِّلته سواء في أثناء العيش فيها أو كما قد يراها السائح القادم من عمّان بالسيّارة أو من بيروت بالطائرة التي كانت تهبط في مطار قلندية آنذاك. وهنا يرسم جبرا مدينة تعجُّ بالناس والباعة والتجار والحرفيين، ولكنه يركِّز على الجانب الديني فيها تركيزاً لا يمكن تجنُّبه لأن القدس «مدينة الحلم والتوق وتطلُّع النفس البشرية إلى الله». إنها مدينة الديانات السماوية الثلاث، وهي ديانات لم تستقرّ العلاقات بينها استقراراً يجعلها تتعايش من غير توتُّر خفي أحياناً وعلني في أحيانٍ أخرى. وأغلب الظنِّ أن إشارة جبرا إلى صراع حضارتي البحر والبادية تلمِّح إلى الغزو الصليبي في العصور الوسطى. وهو غزوٌ اتَّخذ أجلى أشكاله في ما يرويه جبرا عن إقامة هيكل مسيحي داخل قبَّة الصخرة قبل استعادة القدس على يد صلاح الدين. ولعلَّ أبلغ إشارة شخصية لارتباط جبرا بالقدس المكان قولُه: «إنني أذكر القدس الجديدة، القدس السليبة، كآدم يذكر الجنة» (ص8)، وهو قولٌ يردِّده كلُّ فلسطيني أخرج من جنَّته.

أما القدس الزمان فأمرها مختلف. فالزمان يعني التاريخ، ومشاكل التأريخ لمدينة مثل مدينة القدس تفوق مشاكل التأريخ لأيِّ مدينة أخرى. فهي «مدينة عشقتها البشرية جمعاء»، ولذا فإن التأريخ لها بأيِّ قدْرٍ من الموضوعية صعبٌ إن لم يكن مستحيلاً. وجبرا ليس مؤرِّخا محترفاً ليتمكَّن من قراءة الوثائق والتمعُّن في الحفريّات للتوصُّل إلى سردٍ موضوعيٍّ قريبٍ من الحقيقة. وأنا أرى أن أكبر مشكلةٍ تواجه من يريد التأريخ لمدينة القدس هي كيفية التعامل مع العهد القديم من الكتاب المقدَّس: هل هو كتاب تاريخ أم كتاب دين؟ إذ لا تزال فئة كبيرة حتى من المسيحيين[2] تعتبر كلَّ ما ورد في العهد القديم تاريخاً لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ولذا فإن ظهور يهوه بين الحين والآخر لهذا النبي أو ذاك من أنبياء بني إسرائيل لِيَعَدَهُ – حسبما يرد في العهد القديم – بأن «أرض الميعاد» ستكون لبني إسرائيل يعدّ عندهم حقيقة تاريخية وليس تعبيراً عن رغبة اليهود في الحصول عليها

وإسقاط هذه الرغبة على يهوه (بغضّ النظر عمَّن يكون يهوه هذا)[3]. وقد بلغ من قبول الكتاب المقدَّس على أنه التاريخ الحقيقي لليهود أن صانعي الخرائط المسيحيين في العصور الوسطى ظلّوا يرفضون النظر إلى ما هو موجود فعلاً على الأرض ويرسمون ما يرد في الكتاب المقدَّس من أماكن وأسماء دون التفاتٍ إلى أي شيءٍ آخر[4].

ويتردَّد جبرا في قبول الكتاب المقدَّس كتاباً في التاريخ. فهو يشير من ناحية إلى ما أعمله الكتّاب اليهود القدامى في التوراة من تحريف (ص9)، ولكنه في أمور أخرى يقبل الروايات المتوارثة من غير تردُّد. خذ مثلاً ما يورده عمّا فعله الإمبراطور هدريان بالثوّار اليهود على الحامية الرومانية التي أقيمت في القدس في سنة 132 ميلادية. يقول: «فقد سَحَقَت قوّاتُ الإمبراطور هدريان الثوار هذه المرّة ودَمَّرَت المدينة تدميراً كاملاً، وحَرَثَت أرضَها حَرْثاً، وطَرَدَت اليهود منها طرداً قاضياً، وكانت النتيجة أنْ 'تَشَتَّتَ' اليهود منذ ذلك اليوم، وزالت عن القدس الصبغة اليهودية الظاهرة، وتحطَّم هيكل سليمان للمرَّة الأخيرة» (ص10). لكنه يعود فيقول في (ص 16) إن قبَّة الصخرة اقترنت «بمعراج النبي، وفيها أثرٌ قيل إنه أثرُ قدم النبي ليلة أسرى وحطَّ عليها، رابطاً حصانه البراق على مقربة منها – فيما كان 'مبكى' اليهود. وهي أيضاً الصخرة التي يروى أن إبراهيم الخليل أراد أن يضحّي بابنه إسحق عليها، كما أنها تقع ضمن المنطقة التي أقام سليمان عليها هيكله». وهنا نلاحظ قبول جبرا بدعوى وقوع قبَّة الصخرة «ضمن المنطقة التي أقام سليمان عليها هيكله» بينما كان قد قال لنا إن الهيكل قد أزيل على يد هدريان بُعَيْدَ سنة 132 ميلادية، أي قبل حوالي خمسة قرون وأن أرضه حرثت حرثاً. فكيف عرف المسلمون أن هذه البقعة بالذات هي مكان الهيكل؟ وأين كان حائط «المبكى» إن كانت الأرض قد حرثت حرثاً؟ إن هذا شبيه بما يرد عند الباحث أولغ غرابار في الفصل الثامن من المجلَّد الرابع من كتاب **تاريخ البشرية** الذي أصدرته منظمة اليونسكو في سنة 2000. فهو أيضاً يقول إن الهيكل قد سُوِّي بالأرض في تلك الحادثة، ولكنه يعود ليقول إن قبَّة الصخرة شُيِّدت في المكان الذي كان يحتلُّه الهيكل[5].

أما إشارة جبرا إلى أن الابن الذي أراد إبراهيم التضحية به هو إسحاق وليس إسماعيل فمسألة يمكن تفسيرها بالقول إن هذا هو ما تعلَّمه من الكتاب المقدَّس وإن إسلامه لم يرسِّخ في ذهنه الرواية الإسلامية للحادثة. [أما أن الصخرة التي أراد إبراهيم ذبح ابنه فوقها هي الصخرة التي بنيت فوقها قبَّة الصخرة فأمرٌ يصعبُ إثباته بأي شيء سوى الاعتقاد الذي لا يمكن إخضاعه لمتطلَّبات الأدلَّة التاريخية.]

لا ريب في أن جبرا رجع إلى بعض المصادر لكتابة هذا الجزء من المقالة (فهو يشير مثلاً إلى كتاب **دراسة في التاريخ** لآرنولد توينبي، وإلى «الأستاذ كريسويل في كتابه **المعمار الإسلامي في عهده الأوَّل**»)، ولكنه لا ينسب الروايات إلى قائليها ولا الاقتباسات إلى كاتبيها لأنه لم يكن يكتب تاريخاً بالمعنى الدقيق للكلمة. ولذلك فإن أجمل ما في المقالة تلك المراوحة بين التاريخ والأسطورة التي تُحِلُّ الأديب من مسؤوليات المؤرِّخ. فبعد أن يصف كنيسة القيامة والطقوس التي تجري في أسبوع الآلام وعيد الفصح يقول:

لست أحسب أن الاحتفال بعيد قيامة المسيح في أوائل الربيع مجرَّد صدفة تاريخية. فالقدس،

بل فلسطين كلها، في مثل هذا الموسم من السنة تتفجَّر وديانها وتلالها بملايين الأزهار البرِّية التي تبدو كأنها تكسو التراب والصخر على حدٍّ سواء، أينما وقعت العين. ولعلَّ أبرز هذه الأزهار وأجملها شقائق النعمان الحمراء التي ترصِّع الأرض المحيطة بالمدينة من كلِّ جانب – فتلتهب وتتألَّق كالبساط على مدى البصر. فليس عجيباً أن تكون الشقائق، منذ أقدم الأزمان، رمز الإله القتيل، ورمز عودته إلى الحياة من جديد، فتكون بالتالي رمزاً للأرض المقدَّسة (ص18).

ثم يربط جبرا بين هذا الاحتفال المسيحي واحتفال المسلمين بزيارة قبر النبي موسى على مبعدة حوالي عشرة كيلومترات من البحر الميِّت في وقت قريب من موعد احتفالات المسيحيين بعيد الفصح ويعلِّق على موكب أهل الخليل الذي يأتي بعد موكب أهل نابلس بقوله:

وكان الحفل حقّاً حفل رجال، تتجلّى فيه قوَّة الشكيمة والبأس. وإذ يعيد المرء التأمُّل في ذلك الموكب المجلجل الرائع، بأزيائه، بأصواته، بإيقاعاته، والمزمار العربي بقصبتيه يملأ المكان بموسيقاه البدائية المثيرة، يكاد يجزم أن الحفل لا بدَّ يعود في أصوله إلى مراسيم الربيع القديمة – القديمة قدم القدس – منذ العهود الكنعانية الأولى (ص19).

هنا يتحوَّل التاريخ إلى أسطورة نقبلها قبول الشعر على أنه نمط من التعبير الإنساني عن الرغبة، عمّا دعاه جبرا في الفقرة الأولى من مقالته «بالحلم والتوق وتطلُّع النفس البشرية إلى الله». ومن هنا أستطيع القول إن جبرا يكون أشدَّ إقناعاً وتأثيراً عندما يكتب بصفته فنّاناً يستعمل المادَّة نفسها دون أن يلزم نفسه بالوثائق والاقتباسات والمراجع. وهنا لا يسعني إلا أن أستعيد المقولة الأرسطية التي ترى أن الشعر أصدق من التاريخ لأن التاريخ مرتبط بما حدث (هذا إذا تمكنّا من استعادته بأيِّ قدْر من الصحة) بينما يتناول الشعر ما يمكن أن يحدث[6]. ولذا فإنني سأركز في بقية هذا البحث على ما كتبه جبرا من شعر ورواية مما له علاقة بالقدس.

يقارن جميل فرّان في بداية الفصل الثاني من رواية **صيادون في شارع ضيِّق** بين شعور الترقُّب والاهتياج العاطفي الذي يثور في نفس المسافر القادم إلى مدينة كبيرة لم يكن قد رآها من قبل وبين شعوره هو في بغداد عندما حلَّ بها «في ذلك اليوم الأوَّل من تشرين الأوَّل عام 1948»: «لن تفكِّر طويلاً بالفندق الذي ستنزل فيه لأن الشوارع تستصرخك لكي تمشي فيها... تشعر... كأنها... تزيِّن نفسها لتلقاك... وهل ثمَّة ما هو أبهج من مشاهد المباني المجهولة والوجوه الغريبة؟» (ص 15). لكن جميل، الذي هو اسمٌ آخر لجبرا في هذا الجزء من الرواية على الأقلّ (كما نبَّهنا جبرا نفسه في تصدير قصير للرواية)، ليس في وضعٍ نفسي يمكِّنه من الاستمتاع بهذه المباني والوجوه:

أما أنا فقليلة هي البهجة التي شعرت بها وأقلّ منها الإثارة التي انتابتني في ذلك اليوم... حين وصلت إلى بغداد. لم يكن السبب أنني رأيت لندن وباريس والقاهرة ودمشق. لقد نسيت أسفاري، وما عدت أستطيع أن أذكر ملامح أية مدينة في العالم سوى مدينة واحدة. مدينة واحدة أذكرها، أذكرها طيلة الوقت. تركت جزءاً من حياتي مدفوناً تحت أنقاضها، تحت أشجارها المجرَّحة وسقوفها المهدَّمة. وقد أتيت إلى بغداد وعيناي ما زالتا تتشبَّثان بها – القدس» (ص 16-15).

هذا الشعور بالاقتلاع من مدينة تشعر أنك تركت جزءاً من حياتك مدفوناً تحت أنقاضها شعورٌ يصعب محوه. ومع أن جبرا أحبَّ بغداد وقضى الجزء الأكبر من حياته فيها وصار جزءاً مهمّاً من حياتها الثقافية فإن عينيه ظلَّتا «تتشبَّثان» بالقدس. وظلَّت القدس في مخيِّلته مدينة يتحدَّث عنها بحرقة الطريد من الجنَّة ولوعة العاشق الذي أبعد عن محبوبته بالقوَّة:

ألعينيكِ أغنّي؟ أجل،
ولعشّاق الدُّنى اجتمعوا
في محجريك وفي
محجريك الأغاني
لودياني
في فلسطين وشطآنها.
ألستُ أنا قاطف الزيتون
في وادي الجمل،
صائد الأسماك في يافا
حاديَ الإبل الظاعنات
في متاهات النقب؟

من محاجر القدس اقتلعتُ
حجارتي
لأنحت طوطمي –
أجل، لعينيك يا وجه بلادي
لعينيك أبكي وأغنّي[7].

والكلمة التي تستوقفنا هنا هي «المحاجر». فهي تضمُّ تورية من الواضح أنها مقصودة. فهي تشير في أحد معنييها إلى محجري الحبيبة، أي إلى عينيها اللتين يذكرهما في عنوان القصيدة، وتشير في المعنى الثاني إلى المحاجر التي تقتلع منها الحجارة التي تستخدم لبناء البيوت الفلسطينية. والمعنى الأوَّل يفرضه تراث الغزل في الأدب العربي الذي يجعل العينين أوَّل ما يراه الشاعر في محبوبته («عيناك غابتا نخيلٍ ساعةَ السحر»، «هذه النمرةُ عيناها جمرتان»). أما المعنى الثاني فقد فرضته أمورٌ عديدة منها ارتباط القدس بالصخر («قبَّة الصخرة») والاستخدام الطبيعي للصخر رمزاً للثبات والصلابة (وللمقاومة فيما بعد). ولا يملك من يقرأ أعمال جبرا إلا أن يلاحظ تكرار لفظتي «الحجر» و «الصخر» تكراراً أقرب إلى التلبُّس. خذ مثلاً قصيدة «بيت من حجر» في ديوان **تمّوز في المدينة**. تبدأ القصيدة بمشهد في الوقت الحاضر يجمع – فيما نقدِّر – رجلاً وامرأة في خلوةٍ يلغي وجودُ المرأة المستجيبة لرغبة الرجل فيها كلَّ ذكرى خارج اللحظة الراهنة في العادة. ولكن الرجل لا يستطيع أن يلغي من ذاكرته «الذكرى التي تنحسر عنها كلُّ لمسة / لبيتٍ من حجر / على درجاته البيض استفاقت / زهراتُ الجرانيوم» رغم أن «الركبة السمراء ناعمة لليد والشفتين / تهدهد كلَّ حسٍّ، تبلسم كلَّ ذكرى». ولذلك فإن ذهنه يشرد عن صاحبته ويعود إلى البيت المبنيِّ من حجر:

(أما يزال على التلِّ رافعاً
أقواسه الثلاث، أم أنه
ركامٌ من خرائبَ، للجُرَذِ والعناكب،
وأخضرِ القُرَّيصِ مكانَ الجرانيوم؟)

هذه الصورة نفسُها نجدها في رواية **صيادون في شارع ضيِّق**. يقول جميل فرّان بعد التعبير عن تشبُّث عينيه بالقدس رغم أنه الآن في بغداد:

«قبل ذلك بحوالي ثمانية عشر شهراً كنا قد انتقلنا إلى بيتنا الذي بنيناه حديثاً على جبل القطمون في القدس الجديدة. كان البيت تحقيقاً لحلم أبي وحصيلة حياة كاملة من الكدِّ والتوفير. وعندما عدتُ من إنكلترة بعد الحرب العالمية الثانية اخترت المكان بنفسي فوق مرتفعٍ يطلُّ من أحد الجوانب على التلال التي هي أوَّل الريف، ومن الجانب الآخر على الطريق الجميل الذي يتلوّى حتى يصل قلب المدينة. لكن البيت كان يطلُّ أيضاً على الحيِّ اليهودي رحافيا، حيث كنت كثيراً ما أرى من الشرفة أزواجاً من الفتيان والفتيات يصعدون إلى بابنا ويدقّون الجرس. كانوا يقولون إنهم انجذبوا بقنطرة المدخل، وأزهار الجرانيوم التي تكسو الدرج الحجري الأبيض، والنوافذ العالية بأعمدتها الثلاثية في الطابق الثاني، التي كانت حين تعكس الشمس تتصاعد كالشعلة الملتهبة فوق الوادي»[8].

وهذه الصورة للمدينة الحبيبة لا تكتمل إلا بحبيبة من نوعٍ آخر، حبيبة من لحم ودم، بالأنثى التي أحسن جبرا باختياره الاسم المرتبط بالحب في التراث العربي لها: ليلى. فهذا الشاب القاطن على جبل القطمون سرعان ما يقع في حبِّ ليلى، بنت الجيران، وتقع هي في حبِّه، وتبدأ قصة الحب المعتادة التي يفترض أن تنتهي بالزواج. والهدف الفنّي لهذه القصَّة هو المزاوجة بين مصير ليلى ومصير القدس: فالضغط النفسي الذي يسبِّبه تدمير البيت يقابله ويضاعفه الضغط النفسي الذي يسبِّبه قتل ليلى على يد الصهاينة، ويخلِّف في ذهن البطل صورة مركَّبة عن الدمار الذي لا تنفصل فيه صورة الحبيبة عن صورة المدينة. إذ يهجم الصهاينة على الحي الذي يقع فيه بيت آل شاهين، أهل ليلى، وينسفون البيت بمن فيه، وعندما يذهب جميل لتفقُّد البيت يجده ركاماً، فيبحث فيه ويعثر على يد ليلى المقطوعة «وخاتم الخطبة يحيط بإصبع الخنصر» (ص 19).

هذه الصورة، صورة الحي المدمَّر والحبيبة القتيلة، يأخذها جميل فرّان معه إلى بغداد ولا تفارق ذهنه. ويتسبَّب البُعد الجغرافي بالارتفاع بها من مستوى الذكرى الملموسة المباشرة إلى مستوى الرمز. يقول جبرا في مقابلة أجرتها معه فاطمة الفقيه نشرت في **الأنباء** الكويتية وسألته فيها عن الأرض وكيف يراها ويحسُّ بها في رواياته:

«لعلَّك تعرفين تشبيهي الأرض وصخورها وتضاريسها ومنخفضاتها بجسد المرأة في بعض ما كتبت.

يبدأ وعي الطفل لأمه، ثم للحبيبة، ثم لفكرة الأرض كوطن بما فيها من حجارة، وأشجار زيتون، وتفّاح المجانين الذي يكثر في أرضنا بفلسطين.. أنا في الواقع جعلتُ وليد مسعود في اللحظات الأخيرة التي نراه فيها وهو يسجِّل الشريط يدمج شتيتاً من تجاربه في وحدة مليئة بالجزئيّات ولكن يصعب فرز هذه الجزئيات لأنها تتداخل، وتعكس الواحدة الأخرى بحيث لا يمكن القول أين ينتهي القديم من التجربة، وأين يبدأ الجديد؟...كثيراً ما نمرُّ في تلك اللحظات الوهّاجة التي تصبح فيها تجاربنا كلُّها، مهما طالت زمناً، وكأنها تجربة واحدة تتوقَّد كاللهيب، وتتطاير منها الشرارات الجزئية التي ما هي إلا نتفٌ من التجربة اللاهبة الكبيرة المستمرَّة...[9]»

وهذا الكلام يرد ما يشبهه في المعنى، ولكن بكلمات أخرى، في المقالة الخاصة بالقدس. يقول:

«أين تنتهي الذات ويبدأ الموضوع؟ شارع بكى فيه الولد، وجاع، وضحك، وعشق فتاة لا يعرف اسمها

لأنها ابتسمت له من غير قصد، وركض في المطر، في الظلام، مع إخوته، مع والديه، مع العشرات من أصدقائه الذين ما زال يسمع في ذهنه أصواتهم المتجاوبة بين مباني الشارع: مثل هذا الشارع هل يمكن أن يبقى امتداداً هندسيّاً موضوعيّاً مجرَّداً؟ (ص 8) «

وقد عبَّر جبرا عن تحوُّل الذكرى إلى رمز في قصيدة من أجمل قصائده هي قصيدة «زماننا والمدينة» التي تتصدَّر ديوانه **لوعة الشمس**:

جيل المأساة نحن، وعن وعي نقبلها:
جيل عاصرت أرضُه كلَّ دورات الزمن
فوعى العصور كلَّها،
عرف الزمان مضاعفاً
ضارباً عمقاً وعُلُوّاً،
عاشه عاشقاً، متمرّداً
ويعيشه كل يوم صارخاً، متحدّياً.
فلتكن المأساة زماننا،
زمان الحبيبةِ أرادوا منعها عنّا،
ولكن لن نعيش إلاّ زمانها –
زمان مدينة الطور والزيتونِ
مدينة المعراج والجلجلة:
هي وحدَها في الأرض لنا أرضٌ،
وهي وحدها في السماء لنا سماء.[10]

وهذه القصيدة تكثيفٌ للتجربة الفلسطينية بكاملها بكلِّ مآسيها وما رافق هذه المآسي من تصميمٍ ومعرفة بأن الثمن الذي سيتعيَّن دفعه باهظ. وقد كنتُ قد ربطتُ في دراسة أخرى هذه القصيدة بفكرة الكينونة الكبيرة التي عبَّر عنها جبرا في رواية **البحث عن وليد مسعود**[11] التي أشار لها جبرا نفسه في الاقتباس الذي أخذته عنه قبل قليل، ولكن أوضح ارتباط بين هذه القصيدة وبين كتابات جبرا التي تعبِّر عن تعلُّقه بالقدس يرد في رواية **السفينة**. وهنا أجدني مضطرّاً للاستعانة بجزء من دراسة للرواية يمكن للقارئ أن يجدها كاملة في كتابي الذي أشرت له منذ لحظة.

إن الشخصية المركزية في الرواية هي من غير شك شخصية وديع عسّاف. وهذه الشخصية صيغة عصرية من شخصية يولسيز أو السندباد. وقد تكون رحلتُه قد بدأت من الكويت أو من بيروت أو أي مكان آخر، ولكنها على المستوى الرمزي أو الأسطوري بدأت من الجنة (فلسطين)، ولا بدَّ أن تنتهي بالعودة إليها بعد الطرد منها والمرور في رحلة العذاب التي يُمتَحَن فيها البطل امتحاناً عسيراً. وقد كان يولسيز يريد العودة إلى مملكته (جنَّته) بعد الانتهاء من حرب طروادة. ولكن رحلته لم تكن سهلة، بل تضمَّنت من الأهوال ما لا يقل عن أهوال الحرب نفسها، تضمَّنت أهوالاً تشبه الأهوال التي يمرُّ بها السندباد في عودته من رحلاته المتكرِّرة إلى البصرة. أما البطل في العصر الحديث فلم يعد يمرّ بأهوالٍ تتضمَّن قتالَ التنّينات أو العمالقة، أو الرُّسُوَّ على الجزر المتحرِّكة، بل يمرُّ في حالات نفسية من الذلِّ والمهانة وفقدان اللهجة والهوية والإقصاء. يقول وديع:

«ما هي الحقيقة؟ على كندرتك! قلنا الصدق حتّى بُحَّت حناجرنا، وأضحينا لاجئين في خيام. توهَّمنا الصدق في أمم العالم، وإذا نحن ضحية سذاجتنا. وقد عرفنا ذلك كأمة، وعرفناه كأفراد، ولذلك فإنني، كفرد، ما عدتُ أكترث لما يقوله أحد...

في الليل تنتابني ذكريات أليمة، أليمة جدّاً. وتنتابني رغبات أليمة أيضاً. كنت فيما مضى أجد متنفَّساً في تدوين الأفكار، في كتابة الشعر...الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فأحزن، وأغضب، وأبكي. كنت مرَّةً في فندق في الشام عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات فبكيت، ورآني رجل أعرفه، فجاء يسألني ما الخبر...فقلت أبكي على أبي، وأمي، وإخوتي، وما عدتُ أعرف الخجل... محاولاتنا الإبداعية ليست إلا مسكِّنات مؤقتة. هي نوع من البكاء.... لقد داس الزمن على كلِّ ما أراه بخُفٍّ كبيرٍ ثقيل، وطمس البريق والفتنة. ولو كنت رسّاماً لرسمتُ ذلك – أتدري كيف؟ بلطخة سوداء عريضة قد أبقِّعها في مكانين أو ثلاثة بشيء من الأحمر» (ص21-22).»

وهذه الصورة الأخيرة، صورة اللوحة السوداء المبقَّعة بشيء من الأحمر، صورة تتكرّر في الرواية على شكل موتيف يلخِّص المأساة الفلسطينية تلخيصاً بليغاً لا يخاطب العقل بقدْر ما يخاطب المخزون الإنساني من المعاني المرتبطة باللونين الأسود والأحمر[12]. وينهي وديع هذا الجزء من كلامه الذي يسجِّله عصام السلمان بقوله:

«الزمن هو العدوّ. عش، ابقَ في قيد الوجود ما استطعت، ولن يكون لك غير ذلك. لطخة سوداء تملأ قماشة العمر، مع نقطة هنا ونقطة هناك – طفائف تعرض لك دون إرادة منك، ولكن دون أن تحظى بتلك التجربة العنيدة التي هي نتيجة الخيار والإرادة» (ص22)[13].

وهذا التأكيد في آخر الفقرة على «الخيار والإرادة» هو الذي يمهِّد للفعل بدلاً من تلقّي الفعل: هو الذي يمهِّد لرحلة العودة. لكنَّ مشروع العودة يبقى عند وديع عسّاف رومانسيَّ الطابع يفتقر إلى البرنامج العملي، بينما يمهِّد عند وليد مسعود إلى الكينونة الكبيرة التي تتمثَّل في العمل المسلَّح ضمن برنامج مدروس.

وأودُّ الآن أن أشير إلى صلة وثيقة بين رمز السفينة، ومدينة القدْس. وهذه الصلة تنشئها استعارة شعرية أساسية في الرواية يحسن بنا أن نضعها في سياقها الكامل:

«هذا البحر الرائق المقمر غير حقيقي. وغير حقيقية هذه الزرقة وهذا الانسياب وهذا الليل الحاني على الدنيا كالعاشق الولهان. إنما الشيء الحقيقي هو ذكراي له...وهذه الأمواج هي أنغام الفرح والأسى المرتبطة بالله والملائكة والقدّيسين، وتندمج فيها أنغام الحب والمتعات العنيفة الخفية. فيها ذكرى مياه، أشد وقعاً – وأشد إيقاعاً – في حجرات النفس الفسيحة، مياه حسبتها بحراً، ولم تكن أكثر من بركة تتجمَّع فيها مياه أمطار الشتاء خارج سور القدس – «بركة السلطان». أقف على صخرة فيها انحسر الماء عنها، وأنظر إلى المويجات التي تخلِّفها الريح حولها في المياه الخضراء، فأرى الصخرة تمخر فيها كما تمخر سفينتنا هذه المياه المتوسطية الزرقاء. كنت في الرابعة عشرة، وكلّي تحرُّق إلى البعيد، إلى المستحيل، أهرب من بيتنا وآدميّيه الكثار إلى «بركة السلطان» لأقف على الصخرة المحلِّقة عبر محيطات الخيال» (ص24).

هذه الفقرة تجعلُ «بركة السلطان» حقيقيَّةً في ذهن وديع عسّاف أكثر من البحر الأبيض المتوسِّط الذي يمخر عبابه الآن، وتجعل السفينةَ الصخريَّةَ التي كان يبحر فوقها في «بركة السلطان» أبقى في ذاكرته من السفينة التي هو عليها الآن، وتُردِّد كلمة «الصخرة» ثلاث مرّات في إشارة واضحة إلى مركزية

هذا الرمز. فالصخرة رمزٌ للثبات، والرسوخ في المكان، وصلابة الإرادة[14]، ولكن هذا الثبات لا يمنع الحركة والإبحار. والصخرة رمزٌ إسلامي مهمٌّ أيضاً لارتباط الصخرة برحلة من الرحلات التي تتحدَّث عنها الرواية حديثاً مباشراً أحياناً وغير مباشر في أحيان أخرى، ولأن قبَّة الصخرة أصبحت رمزاً ثابتاً في المخيلة الشعبية للقدس بخاصَّة ولفلسطين بعامَّة. وهي أخيراً رمزٌ مسيحيٌّ مهمٌّ لأن الصخرة رمزٌ للكنيسة. يقول وديع:

«لقد جعلنا من «الصخر» سرّاً نتقاسمه فيما بيننا. قلنا إن الصخر يرمز إلى القدس: شكلها شكل الصخر، تضاريسها تضاريس الصخر. والصخر على حافة كلِّ طريق في المدينة. أينما ذهبنا رأينا أناساً يكسرون الصخر – لرصف الطريق، أو للبناء. مقالع الصخر حول المدينة. فلسطين صخرة، تبنى عليها الحضارات، لأنها صلدة، عميقة الجذور، تتصل بمركز الأرض. والذين يصمدون كالصخر يبنون القدس، يبنون فلسطين كلها. والمسيح، من اختار من الناس ليكون خليفة له؟ سمعان الصخرة. والعرب، ما الذي ابتنوه ليكون من أجمل ما ابتنى الإنسان من عمارة؟ قبَّة الصخرة». (ص61-60).

كذلك تربط الرواية بين وديع والصخر ربطاً مباشراً في وصفِ عصام له بأنه يبدو «كأنه قُدَّ من الصخر، تلتمع فيه العينان العسليَّتان كجوهرتين» (أي كحجرين كريمين، ص104). يقول عصام:

«من السهل على من قضى صباه وشبابه في القدس أن يوحِّد بين الله وبين الأرض – أو، كما يقول، بين المسيح وبين الصخر. ولكنه يوحِّد أيضاً بين نفسه وبين المسيح والصخر معاً. فإذا احتلَّ اليهود الأرض، فقد احتلّوا إلهه: لقد احتلوا نفسه، هو الآن كمدينته مشطور، منفصم، وعليه أن يعيد إلى النفس وحدتها: لا بدَّ من استعادة الثالوث بأكمله – بالدمّ» (ص 105).

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى تلاحم الديني والسياسي في هذا الوصف، وهو وصف نسمع شيئاً شبيهاً به من وديع عسّاف نفسه:

«أنا، إن كانت لديّ عاطفة حقيقية، فهي عاطفة دينية. صوفية إن شئت. عواطفي تتحرَّك بموسيقى الكنيسة. فالألحان التي تتصاعد أليمة جريحة من حناجر المرتّلين، وألحان الأرغن الهادر في السقوف الشاهقة، وهذه الإشارات الضارعة الخاشعة إلى الله وربِّ الأرباب وملكوت السماء وحَمَلِ اللهِ الحاملِ خطايا العالم [15]– هذه كلُّها تغمرني بأحاسيس كالهستيريا. فأنا أريد أن أتمزَّق عندها – أتمزَّق فرحاً وطرباً، وأسى وحزناً. لأن الجمال حزين – أجمل ما في الحياة حزين كبلادي...»(ص23).

وهذا المزج بين الديني والسياسي في كلِّ ما يتعلَّق بالقدس خاصٌّ بالقدس وحدها لا تشاركها فيه مدينة أخرى. ولو كان المتحدِّث في هذه القطعة مسلماً يصف تجربته الدينية عقب الصلاة في المسجد الأقصى لجاء بكلام مشابه تختلف فيه المصطلحات وتتشابه العاطفة الدينية. وأيُّ حديث من أيِّ جهة من هذه الجهات الثلاث لن يكون حديثاً دينيّاً خالصاً في الظروف التاريخية التي نمرُّ بها. ولذا فإن الحديث عن القدس في هذه الرواية سرعان ما يتحوَّل إلى الحديث عن الأرض، عن الوطن:

«لك الله يا زيتونات الطالبيَّة، والقَطَمون، والمصلَّبة، والوادي المسترسل إلى المالحة...تحتك تركنا جزءاً من حياتنا، هبةً، وعُرْبوناً للعودة. تخرج

إلى العالم، وترى الأشجار البواسق، والبساتين المنمَّقة، والغابات الملتفَّة، ولكنها كلَّها لا تساوي غصناً مُعَوَجّاً واحداً من تلك الأشجار الغبراء المتباعدة، في تلك الأرض الصخرية الحمراء التي تلقَّت قدميك كقبلات عاشق، وبانت كأنها تنتشر تحت جنبك إذ تضطجع عليها كأرائك الجنة. لعنةٌ واحدة هي أوجع اللعنات: لعنةُ الغربة عن أرضك» (ص 27).

ولعنة الغربة عن الأرض في هذا السياق شبيهة تمام الشبه – بلغة الرواية – بلعنة الخروج من الجنة الأولى. والفلاّح هو أعرَفُ الناس بمعنى الغربة عن الأرض: «سل الفلاّح الذي يذكُرُ تجرُّحَ قدميه على تلك الأرض كأنه يذكُرُ لذَّةَ حياته الوحيدة، كأنه يقول إن حياته، بعد أن أُبعِدَ عن أرضه، ما عادت حياة» (ص27).

والإخراج من الأرض ليس بالأمر الذي يُقبَل بسهولة: «لم أقبل إخراجي من القدس بالرصاص والديناميت. لم أقبل رؤية فايز يتضرَّج بدمه بين يدي» (ص49). وقصة فايز عطا الله تمزج بين الديني والسياسي مزجاً يؤكِّد تلاحم الطرفين على نحو يجعلهما متطابقين تقريباً لا فكاك لأحدهما عن الآخر. وفايز عطاالله شخص حقيقي اسمه الأصلي هو ألبِرْت عطاالله. كتب جبرا عن مقتله قصيدة باللغة الإنجليزية عنوانها«On the Death of Albert Atallah by a Jewish Shell» تاريخها 1948/6/8، وورد ذِكْرُه غيرَ مرَّة في كتابات جبرا. والوظيفة التي يؤدّيها فايز (أو ألبرت) في رواية السفينة هي تجسيد التلاحم الوثيق بين الرموز الأساسية في الرواية وتلازم العالمين: الديني والسياسي. فالرواية تربط شخصية فايز بشخصية يوحنّا المعمدان الذي يقال لنا إنه ولد في قرية عين كارم من قرى القدس (ص61)، وبالصخر الذي يعانقه وديع وفايز في عينِ قريةِ سلوان، وبالماء الذي يستحمّان به في جوٍّ أشبه بطقوس التعميد، وبالنار التي «في داخله في تأجُّج دائم» (ص 64). وعندما يموت فايز متأثِّراً بجراحه تبقى «عيناه تحدِّقان في أسوار القدس كحجرين متلألئين»[16] (ص71)، ويتساءل وديع: «هل انطفأت النار في قلبه، ولم يبقَ لي إلا أن أشيل الجسد المنصهر وأوسِّد رأسه على عنقي؟... أقسمتُ أنني سأعود...غازياً، أو متلصِّصاً، أو قاتلاً، سأعود. حتى ولو قتيلاً على صخرة» (ص75). وموت فايز استكمال لمعمودية الماء في العين التي يستحمُّ بها عارياً في سلوان بمعمودية النار التي تقتله وهو يدافع عن القدس. وهو مثالٌ ناصع الوضوح على أن شخصية الشهيد تجمع الدينيَّ والسياسيَّ جمعاً لا انفصام له عندما يتعلَّق الأمر بفلسطين. ولذلك فإن مدلول عبارة مثل «القدس أجمل مدينة في الدنيا على الإطلاق» (ص21) أو مثل وصف طلبة الكلية العربية لمدينة القدس وهم ينظرون إليها من فوق جبل المكبِّر بأنها «ثريّات متلاحقة، استمرار لنجوم السماء»[17] لا ينحصر في الاستجابة الاستطيقية لجمال مدينة القدس، بل هو تعبير سياسي أيضاً عن التعلُّق بها تعلُّقاً يجعل التفريط بها أو نسيانها ضرباً من المستحيل. وعندما ينوِّع وديع على هذه العبارة ويقول إن بيوتها «كأنها جواهر منثورة على ثوب الله» (ص22) فإنه يمزج السياسة بالدين مزجاً لا يمكن التعبير عنه بغير هذا النوع من حَجْبِ المعنى بإظهار الصورة. ولمّا كان خيال وديع مشغولاً بفكرة الأرض والوطن ولا يستطيع الفكاك من رؤية الأمور ملوَّنةً بما يتلبَّسه هو من أفكار فإننا لا نستغرب حين يُسقِط هذه الألوان على علاقة عصام السلمان ولُمى ويقول عندما يعترف له عصام بأنه هارب من لُمى:

«الأرض. الأرض هي السرّ في حياتك. مع لمى أو

بغير لمى. ستجرُّك الأرض عودة إليها من جديد مهما فعلت، أينما ذهبت. لمى هي التراب، الزرع، الماء. إنها الأرض مهما تصوَّرت. مهما فشلت في الإمساك بها بيديك»(ص88).

وهذه المطابقة بين لُمى والأرض لا يمكن أن تصحَّ إلا عبر المنظور الشعري الذي يتخلَّل الرواية كلّها. والقوّة التي تدفع وديع لأن يجمع «الفلس على الفلس» من أجل «الزواج منها – أعني الأرض» ليست هي التي تدفع المهندس عصام والفيلسوفة لُمى لفعل أي شيء محدَّد خارج العلاقات الجنسية لأنهما –رغم عروبتهما – لا يحسّان (في زمن الرواية) بأن قضيتهما قضية أرض رغم كل التعاطف الذي يبديه عصام نحو وديع وقضيته. إنه متفرِّجٌ معجبٌ بشخصيةٍ تثير الإعجاب. ولذلك فإن ردَّ عصام على أفكار وديع المتعلِّقة بالأرض هو:

الأرض...تهمُّك لأنك نزحتَ عنها مكرهاً، ألا ترى يا وديع، أن حرمانك ليس جنسيّاً بل «أرضيّا»[18].

المحرومون من المرأة لا يكفّون عن الحديث عنها. وأنت محروم من الأرض» (ص88).

كيف يكفُّ عن الحديث عنها؟ لقد كان ابن حمديس قد سبقه في التعبير عن حالة مشابهة عندما قال:

فإن كنتُ أُخرِجْتُ من جنَّة

فإني أحدِّث أخبارها

وقد كتب نبيل مطر في خاتمة مقالةٍ روى فيها قصَّة زيارةً قام بها إلى مدينة الناصرة، مدينة أهله، مستذكراً ما يرد في الكتاب المقدَّس في سياقٍ له مغزاه للفلسطينيين وأعدائهم من الصهاينة:

«If I forget thee Nazareth, let my right hand wither, let my tongue cleave to palate if I do not remember you».[19].

ولا شكَّ عندي في أن جبرا كان يستذكر هذا الكلام نفسه في كلِّ ما كتب عن القدس وفلسطين◆

الإحـــــالات

1- جبرا إبراهيم جبرا: «القدس»، **حوار**، العدد 18 (سبتمبر-أكتوبر، 1965)، ص5. وسأشير فيما بعد إلى أرقام الصفحات التي أقتبس منها من هذه المقالة في المتن.

2- يوصف هؤلاء بأنهم fundamentalists وهو مصطلح يعني المؤمنين بحرفية الكتاب المقدّس. وقد أخذ هذا المصطلح يطلق مع الأسف على المسلمين ويترجم بكلمة «الأصوليين» التي لا علاقة لها بالموضوع.

3- أقول هذا لأن يهوه يبدو أنه إله قبلي يتخصّص في تنفيذ رغبات هذه القبيلة أو مجموعة القبائل التي تشكّل منها بنو إسرائيل، ولا تعنيه بقية الأمم.

4- كتب الصديق نبيل مطر الذي يعمل الآن في جامعة منيسوتا بالولايات المتحدة بحثاً ممتعاً عن هذا الموضوع أطلعني عليه قبل نشره قبل سنوات.

5- The Dome of the Rock, completed in 691-2 by order of the Umayyad Caliph ‘Abd al-Malik, «is lcated on the holy area of the ancient Jewish Temple, flattened by the Roman army in the second century AD. «see *History of Humanity: From the Seventh to the Sixteenth Century*, ed. M. A. Bakhit et al. (London: Routledge, 2000), pp. 148-9.

6- هذه الصيغة من الفكرة الأرسطية أشاعها السير فلب سدني في دفاعه الشهير عن الشعر. انظر:
Sir Philip Sidney, «The Defence of Poesy,» in *Prose of the English Renaissanc*, ed. J. William Hebel et al. (New York: Appleton-Century-Croft, 1952), p. 276.

7- جبرا إبراهيم جبرا: «آلعينيك أغني»، من ديوان تموز في المدينة (بيروت: دار مجلة شعر، 1959)، ص13-14. الصيغة المنشورة في المجموعات الشعرية الكاملة (لندن: رياض الريّس للكتب والنشر، 1990) مضطربة مع الأسف جعلت آخر أربعة أسطر من القصيدة جزءاً من قصيدة «فلاحاً ملأت بألفاظي» السابقة.

8- جبرا إبراهيم جبرا: صيادون في شارع ضيّق، ترجمة محمد عصفور، ط3 (بيروت: دار الآداب، 1988)، ص16.

9- جبرا إبراهيم جبرا: أقنعة الحقيقة وأقنعة الخيال، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992)، ص166.

10- جبرا إبراهيم جبرا: لوعة الشمس، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981)، ص9.

11- انظر كتابي نرجس والمرايا: دراسة لكتابات جبرا إبراهيم جبرا الإبداعية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009)، ص71-95.

12- من أجمل الإشارات إلى هذه الصورة صورة الدم الذي يسيل من ساق أحد المتظاهرين في القدس: «وقع أحد زملائنا أرضاً، مجروحاً في ساقه، ودمه يسيل إلى حذائه، ويرسم فراشات حمراء على الاسفلت» (ص61): لوحة سوداء مبقعة بشيء من الأحمر!

13- لاحظ أن هذه الكلمات تلخّص في سياق النثر ما تقوله قصيدة زماننا والمدينة في سياق الشعر.

14- لا يملك المرء إلا أن يلاحظ أن الرواية استبقت الهالة الخاصة التي اكتسبها الصخر وأحيطت بها الحجارة في أواخر الثمانينات بعقدين من الزمان.

15- الكلمات الخمس الأخيرة مقتبسة من قصيدة لجبرا جعل لها عنواناً لاتينياً هو Agnus Dei (حمل الله) في ديوان المدار المغلق. وهذا الاقتباس إشارة خفيّة إلى تماهي شخصية المؤلف مع شخصية البطل الروائي، الذي ينقل كلاماً عن المؤلف وكأنه من وضعه هو.

16- قارن تشبيه عيني وديع بجوهرتين في ص 104.

17- «القدس»، ص8.

18- هكذا وردت الكلمة في النص، وأحسب أن الصواب رفعُها.

19- انظر المجلة الثقافية العدد 72 (2008). ص 60.

كان نبيل يحوّر ما يرد في المزمور 137 الذي يقول (بترجمة كتاب **الحياة**): «إن نسيتك يا أورشليم، فلتنس يميني مهارتها. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ولم أفضّلك على ذروة أفراحي».

أمين شنّار
والأفق الجديد المقدسية*

إبراهيم خليل

من اللافت أنَّ الكثيرين ممن يتحدثون عن القدس، بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة العربية للعام 2009، يتجاوزون علماً من أعلامها الكبار، ورائداً تنويريّاً من روادها الأفذاذ، فهو كاتبٌ، وشاعرٌ، ومفكرٌ، وقاصٌّ، وصحفيّ، ارتبط اسمه بـ الأفق الجديد المقدسيّة، التي كان لها ما لها في النهوض بالأدب الإبداعي في فلسطين والأردن في ستينات القرن المنصرم، إنه الأديبُ الراحل أمين شنّار الذي فقدناهُ قبيل سنواتٍ أرْبع، وحقّ على من يحتفون بالقدس ألا ينسوهُ، وإنْ عدّدوا مآثرها ألا يتجاوزوهُ.

وُلد أمين شنّار في بلدة البيرة عام 1933 ودرس فيها وفي رام الله. ومنذ البداية ظهرت ميوله الأدبية فقرض الشعر، ونظمه، ونشره في الصحف المقدسية، منها صحيفة **الصريح**. ونشرت أولى قصائده عام 1949. ولم يكن عمره قد تجاوز الستة عشر ربيعاً. ثم توالت قصائده. وعندما صدرت صحيفة **المنار** التي أسسها في القدس الأخوان كامل ومحمود الشريف وصديقهما جمعة حماد، عمل فيها أمين

* لا بد من التنويه هنا إلى أن المؤسسة العربية للدراسات والنشر قامت بإعادة طباعة **الأفق الجديد** في خمس مجلدات أنيقة، وذلك بمناسبة عمان عاصمة الثقافة العربية 2001.

شنّار، وتقرر أن يكون مدير تحرير **الأفق الجديد** وهي المجلة الأدبية نصف الشهرية التي صدرت شهر أيلول/ سبتمبر (1961) بإشراف جمعة حماد. وفي تلك المجلة لمع اسم أمين شنّار، وتجمع حوله عدد من الكتّاب والأدباء والمثقفين من أمثال: خليل السواحري ومحمود شقير، ومحمد شاهين، وصبحي شحروري، وماجد أبو شرار، وفايز صيّاغ، وآخرين كثيرين لا موضع هنا لتعداد أسمائهم. وكان لهذه المجلة مراسلون في مصر ولبنان ودمشق يزودونها بالتقارير الثقافية عما يصدر من كتب، ويُقدم من عروض مسرحية، وينظم من مهرجانات أدبية، وشعريّة، على وجه الخصوص.

وفي العدد العشرين أصبح أمين شنّار رئيس تحرير للأفق بعد أنْ تنحى جمعة حماد عن هذه الرئاسة، وتحولت المجلة من نصف شهرية إلى شهريّة.

وكان أمين شنّار قد أصدر ديوانه الأول **المشعل الخالد** (1957)، الذي طبع في القدس بعد أنْ أذيعت قصائده من إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية في رام الله. وفي العام 1967 رحل مع من رحلوا إلى عمان، واتخذ من إحدى الشقق المأجورة في جبل الحسين دار إقامة له، ولأسرته الصغيرة. وفيها ظلّ يستقبل العدد المتواضع من الأصدقاء، والمريدين. وظلّ يواصل الكتابة، فنظم أشعاراً قليلة نشرتْ في بعض المجلات ومنها قصيدة «فرح لا ينتهي» التي نشرت في **أفكار**. وقصيدة «أوَيْس» التي نشرت فيها كذلك، ثم في **مختارات من الشعر الأردني** (1982). وظلّ يكتب في الرواية، والمسرحية، والمقالة، والدراما التلفزيونية، وغيرها من فنون التعبير الإبداعي.

في سنة 1967 وبعد الذي حدث من احتلال للضفة الغربية، كتب أمين شنّار روايته الأولى **الكابوس**. وكانت تعبيراً عفوياً وحاداً عن تأثير ما حدث. ونشرتْ الرواية مطلع العام 1968 وفازت بجائزة جريدة **النهار** اللبنانية مناصفة مع رواية تيسير سبول الموسومة بعنوان **أنت منذ اليوم**. ولم تكن الرواية - في رأي المؤلف - رواية متميّزة، فقد صرّح في لقاء أجراه مع المحرر الأدبي لصحيفة **الدستور** (1976/2/20) القاص الناقد خليل السواحري: بأنّها لم تكن «أكثر من ردَّة فعل صاخبة إزاء ما حدث في حزيران. أما الفكر الذي تحمله، فهْوَ الدعوة للقاء بين الأصالة والمعاصرة، لمواجهة التحدِّيات. اليوم أرى في تلك الرواية عملاً ساذَجَاً، لقد نضجتْ مُحْترقة في ردّة الانفعال، ولم تنضُجْ على نارٍ هادئة».

بعد الرواية عمل أمين شنّار في مجال الكتابة للمسرح والتلفزيون. فكتب مسلسل «فندق باب العامود»، ومسلسل «همْس القناديل»، ومسلسل «البحث عن مفقود»، وبرنامج ديني باسم «سبحان الله». وبرنامج «لفحات» الإذاعي. أما في المسرح، فقد كتب: **السد**، و**الليلة يطلع القمر**، و**قرية الشيخ حماد**، وتم تصوير هذه الأخيرة لحساب مؤسسة الإذاعة والتلفزيون. في عام 1976. طلب محمود الشريف من أمين شنّار عن طريق خليل السَّواحري أن يلتزم بالكتابة يوميّاً في صحيفة **الدستور** فانتظم في الكتابة، تارة باسمه الصريح، وطوراً باسم مستعار هو (جهينة). وقد التزم في الكتابة في زوايا يومية وأسبوعية إحداها كانت باسم (لحظات)، والثانية باسم (مع الحياة والناس) مدة ثلاثين عاماً فاشتهر بين كتاب المقالة القصيرة.

توفي أمين شنّار في 18 أيلول- (سبتمبر) من العام 2005.

نحاول هنا أنْ نلقي الضوء على أمين كاتب

المقالة، المرتبط بمجلة **الأفق الجديد**، التي ارتبطت - بدورها - بالقدس، حتى عرفت لدى الكتاب بالمجلة المقدسيّة.

كانت لأمين مقالاته الأدبية المتميزة، أو لنقلْ، في شيء من التحفظ، النقدية. فقد كان يرى جودة الأدب رهنٌ بعمق التجربة وأبعادها المتنوعة، فهو يكتب عن أدب النكبة مقالة يؤكد فيها أن هذا الأدب لم يبلغ مستوى النكبة، بل ظلت هي أعلى وأعمق من التعبير عنها، حيث الكثير من الكتاب والأدباء في رأيه حوّنوا حول التجربة، فجاء أدبهم ناتجاً عن الرغبة في كتابة شيء عن النكبة لا نتيجة مخاض فكري للتجربة التي هي مصدر كلّ إبداع رفيع. «فالفجيعة عند أكثر الكتاب طمست التجربة، ولم تنفخ فيها الحياة، فأخرجتها ثمرة فجة لم يتحْ لها النمو الطبيعي السليم.» وقد رد أمين شنّار ذلك إلى: «الواقع المنحرف الذي نعيش فيه، وعدم استعداد المتلقي، وظروف المعيشة التي تخنق الفنان المتأرجح بين المُثل العليا ولقمة العيش، بين الحرية والقيود.. » ولذا يدعو شنّار في مقالته تلك عن «أدب النكبة» إلى: «أدب جديد يتجاوز فيه الشعراء، والقصاصون، ما هو سائد فيكتبون أدبا» صادراً عن التجربة ذاتها، لا استحضارا لفكرة أو أسلوب من خارج النفس، أو من وراء الوجدان..»

وتكرارُه هذه الفكرة يؤكّدُ مقدار اهتمامه بتوضيح رأيه في أدب النكبة من جهة، وبلورة مبدأ نقدي على أساسه تقوم الأعمال الأدبية إنْ كانت شعراً أوْ نثراً. ففي تقديمه للعدد الخاص الذي خصصته **الأفق الجديد** لأدب النكبة يؤكد أهمية التجريد الانفعالي، باعتباره أساس العمل الأدبي الإبداعي، وجوهره. فهو: «يعيدُ خلق التجربة بعيداً عن وَهَجها، وفي الغوْر من أعماقها، وعلى امتدادات أبعادها الأصيلة جميعا.. وذلك جوهرٌ نزعم أنَّ أدب نكبتنا لم يعرفه» ولهذا يتبنى شنّار الدعوة لأدبٍ جديدٍ يَخلصُ منْ: «دَوار النكبة، والرزوح تحت صخرتها، واللهاث وراء لفحها، فذلك هو الزمن الضائع، الذي تتسرَّبُ لحظاته من أصابعنا المسترخية في الظلّ. وتتثاءبُ كلماته الميتة هذياناً وغثاءً واجتراراً.»

ومن يتأمل كلمات أمين شنّار تلك يُدرك تأثره اللافت بنظرية المعادل الموضوعي objective co-rrelative لدى إليوت Eliot، فهو لا يريدُ الكتابة تحت وطأة الانفعال، بل بَعْد التخلص منه، واللجوء إلى خلق عمل يُسْتخرج منَ التجربة بجلّ ما فيها منْ زخمٍ وَعُنْفوان.

الأفق الجديد والقدس

ومنْ ينظرْ في العدد الأول من **الأفق الجديد** الذي صدر في 20 أيلول - سبتمبر 1961 يجد اسم «القدس» تحت اسميْ المحرر المسئول، ومدير التحرير، الذي هو أمين شنّار. وذلك كله في رأس الصفحة الأيمن إلى جانب اسم المجلة، والعبارة التي تحدد اهتماماتها: «مجلة الأدب والثقافة والفكر». وهذه الإشارة لاسم القدس في الموقع البارز من الصفحة الأولى لم تكن إشارة عشوائية، بقدر ما هي تعبيرٌ عن انتساب هذه المجلة الفكرية لمكان طالما عُرف باعتباره موئل علم، وفكر، وأدب، لذا جاءت مساهمة عدد من أبناء القدس، وجوارها، ومنهم عيسى بلاطة، ومحمد البطراوي، ومحمد أبو شلباية، في العدد، تأكيداً لهذا المعنى، وتمثيلا لهذا المنْحى.

وقد كتب أمين شنّار معبّراً عن حاجة الناس في

القدس، وفي غير القدس، لأفقٍ جديد، فميلادها «ميلادٌ يلبي حاجة قديمة قدم حاجتنا في هذا البلد لينبوع مشرق، نشقُّ بأيدينا طريقه، لكي ننهل بأرواحنا رحيقه. حاجتنا في هذا البلد إلى مرآة صافية نصنعها من ذوب الروح ودم الفؤاد، لكي تجلو صورتنا بكل ما فيها من «ظلماتٍ وأشعة». من ذكرياتٍ وتوْق. وترينا نفوسنا عاريةً بلا تزييف، وبلا أقنعة. ظامئة إلى السنا واليقين، مُبْحرة إلى عوالم الخير على شراع الكلمة الطيبة» [1].

ويبدو أنَّ الاهتمام بتطور المجلة، وزيادة انتمائها للقدس، هو سبب التعديل الذي طرأ على العدد الثاني، فقد انتقلتْ كلمة القدس من يمين الصفحة الأولى إلى المنتصف، تحت اسم المجلة مباشرة. وتحت شعارها المعبر عن أنها مجلة الأدب، والثقافة، والفكر. وقد واصلت توجهها للقارئ، والإلحاح عليه، لكي يتواصل معها، ويقدم اقتراحاته التي يسعد أسرة المجلة تلقيها بالاهتمام الجدّي، ويضيف أمين شنّار المُحرّر مؤكداً: «وهي في نظرنا شراكة مساهمة لا يختصُّ بها طرفٌ دون آخر. شراكة رأسمالها الإخلاص للفكرة السامية، ووسيلتها تشجيع الفكر الحرّ، ورعاية الأدب» [2]. وقد أصبحت المجلة، مع صدور العدد الثاني، حلقة وصل بين مثقفي القدس وغيرها من المدن، فمن إربد يكتب لها حسن التل، ومناور عويس، ورحمة عبد السلام، ومحمود أبو عبيد، ومن عمان محمد سليم الرشدان. ومن السلط خالد الساكت وسليم دبابنة. ومن الكويت جميل علوش. ولا شك في أنّ المجلة تلقت فيضاً من الرسائل، تدفَّق عليها من القراء، والأدباء، الطامحين لقراءة ما يشتهون، مما اضطر أميناً لكتابة مقالة مطولة احتلت موقعها بعد الردود القصيرة على الرسائل بعنوان: « قارئي العزيز..»

ومن يقرأ المقالة يتوقّع أنّ العنوان الكامل لها، هو: قارئي العزيز مهلاً، أو عُذراً. فهو يتحدث فيها عن الصعوبات التي تواجه صدور المجلة في موعدها المحدد. وذلك لقلة عدد العاملين فيها، سواء من كان منهم مختصّاً بقراءة الرسائل والرد عليها، أو تصنيف الموضوعات وتحريرها وإجازتها ومتابعتها لدى الطبع من حيث التدقيق والتبويب والإخراج، مما يجعل حياة مدير التحرير أمين شنّار تتلخص في الكلمات الآتية: «صراخٌ، أو أوامرُ، ولا من مجيب إلا بصمات الليالي الساهرة على الوجوه المسمّرة في الأفق الغريب.» [3] أي أنّ **الأفق الجديد** التي ارتبطت بالقدس اسماً، ومعنىً، صدرتْ في الوقت المناسب تلبية لحاجة ماسة، وضرورية، كبرى. مما جعل الوفرة من الأدباء يحسون بأهمية الدور الذي تؤديه، وتنهض به. يقول عزت عمرو ما يأتي: «قبل صدور الأفق الجديد كانَ المواطن يُحسُّ بفراغ كبير في دنيا الثقافة والأدب، وذلك لأنَّ صحافتنا اليومية لا تساعدها إمكاناتها على سداد هذا النقص، ومن هنا جاءَ صدورها أمراً ضرورياً، ومن هنا لقيت ترحيباً حاراً، واستقبالا رائعاً.. وهذا الترحيبُ الحارُّ يجب ألا يُنسينا المجهود الكبير الذي يبذله المسئولونَ عن هذه المجلة.» [4]

لقد عُنيَتْ المجلة – ابتداءً- بموضوع القدس، متصلا بموضوع النكبة. فنشرت سلسلة مقالات تحت عنوان: «لكي لا ننسى» للكاتب زيدان عبد الحليم الجيلاني، نوقشتْ فيها ادعاءات الصهيونية بأنّ لليهود حقاً تاريخيا في فلسطين. وفيها يفند الباحث ما يسمى وعد بلفور الذي ادعى لليهود مثل هذا الحق [5]. ونشرت المجلة بحثا للمؤرخ البريطاني آرنولد توينبي ترجمه عيسى أبو شيخة عن مستقبل اليهودية في البلدان الغربية [6] وفي سلسة ردود القراء

على كلمة مدير التحرير حول «أدب النكبة» نشرت **الأفق الجديد** ردوداً أكد أكثرها الحاجة لأدب ينطلق من التجربة لا من رد الفعل، بحيث يكون أدباً معبّراً عن الأعماق بلا زيف أو تنميق[7] وقد تابعت ذلك في العدد السادس[8].

لقد شغلت القدس حيزاً كبيراً، ومساحة شاسعة من اهتمامات المجلة، فنحن نقرأ لمدير تحريرها أمين شنّار في العدد الرابع ما يعني أنّ القدس تحتل حجر الزاوية في أدب النكبة، بدليل إشارته إلى بوابة الأحزان: «مندلبوم» يقول: «فوقفة يوم عيد على بوابة الأحزان في (مندلبوم) ما هي إلا وصمة ذلّ على جبين طفل مشرد، أو بسمة صَغار على ثغر لاجئة، ونظرة حنين في عين شيخ طريد»[9] وتذكّرنا إشارته هذه - بلا ريب - بغير قليل من الأعمال الإبداعية المستوحاة من تلك البوابة، وأولها قصيدة عبد الرحيم عمر الموسومة بعنوان «لمن تقرع الأجراس» التي كتبها، ونشرها في **الأفق الجديد** لاحقاً، ثم في ديوانه **أغنياتٌ للصمت** 1963 وقد أهداها إلى الأخوة الذين يعبرون بوابة (مندلبوم) في كل عيد ميلاد»[10] مثلما تذكرنا بقصة لسميرة عزام بالعنوان «بوابة مندلبوم»، وبقصة لإميل حبيبي بالعنوان نفسه، وهي إحدى قصص مجموعته المثيرة للجدل **سداسية الأيام الستة**، وإحدى قصص المجموعة المختارة: **أنطولوجيا القصة الفلسطينية القصيرة**[11].

على أنَّ أميناً لم يكتف بتلك الإشارة الموجزة لبوابة (مندلبوم) ففي العدد السابع نشر مقالة كتبها عن تلك البوابة بعد أنْ قام بزيارة رأى فيها الوفود المكدَّسة لدى المعبر الإسرائيلي بين القدس الجديدة المحتلة، والقدس القديمة الخاضعة وقتئذ للإدارة الأردنية، فيحزُّ في نفسه ما رآه مثلما تحزُّ السكين العظم، يقول: «إن الغرب الذي يحتفل في هذه الأيام بأعياد ميلاد المسيح عليه السلام، إن الشرق الذي يحتفل هو الآخر هذه الأيام بذكرى إسراء النبي محمد(ص) خاتمِ النبيِّين، إنَّ العالم بأسرهِ مُدْعوٌّ لمشاهدة المأساة الدامية التي لم يشهدْ التاريخ لها مثيلا، المأساة التي تمثل فصولها عاماً بعد عام»[12].

ويتناول مؤرخ القدس، وفلسطين، عارف العارف في دراسة له آراء بعض المؤرخين من أمثال: غلازر، وماير، بعروبة القدس. فلكل منهما اهتمامه العميق بتاريخ غزة، والقدس، فهما يؤيدان الرواية التي تقول إن العرب هم أول من نزلوا واستوطنوا فلسطين، وقد سبقوا في ذلك العبرانيين بنحو 25 قرناً من الزمن. أما القدس تحديداً ففي رأي البروفسور ماير مدينة عربية الأصل، وقد بناها اليبوسيّون، وكانت على عهدهم تدعى يَبوس. وهم بطن من بطون العرب الأوائل، الذين نزحوا من الصحراء بعد خراب سدِّ مأرب، وهم أول من وضعوا اللبنة الأولى في القدس نحو 3000 سنة قبل الميلاد. أما الكنعانيون — وهم أيضا من قبائل العرب التي نزحت من الجزيرة — فقد عمّروا، إلى جانب القدس التي سموها أور سالم أي دار السلام أو أرض السلام، مدناً جديدة كنابلس التي سموها شكيم، وبيسان، وتل المستلم، وبيتين، وتل الجزر، وعسقلان. ولا تخالف المصادر العربية القديمة، ومنها كتاب: **فتوح البلدان** للبلاذري هذه الآراء[13].

ويتكَّررُ الاهتمام بتاريخ القدس، فعلاوة على ما ذُكر نشرت المجلة مقالة في الذكرى 800 لتحرير القدس من الصليبيين. فقد كتب علي سعيد خلف دراسة تتبّع فيها تاريخ القدس منذ دخول الصليبيين لها في العام 1099 م وما رافق ذلك من مذابح،

ملخصا مجريات الأحداث، حتى معركة حطين التي كانت في العام الهجري 583. وقد اعتمد في دراسته على مصادر أجنبية منها كتاب *The First Crusade* الذي حرره Somerset De Chair إلى جانب المراجع العربية وفي مقدمتها كتاب **النوادرُ السّلطانيّة والمَحاسِنُ اليوسفيّة** للقاضي بهاء الدين بن شداد، الذي ضبطه، وحققه، وقدم له جمال الدين الشيال، منتفعاً (أي صاحب المثال على سعيد خلف)، في الوقت نفسه، مما ورد من إشارات موجزة لصلاح الدين الأيوبي في بعض القصص الغربي، ومن ذلك رواية والتر سكوت Scott المعروفة بـ«الطلسم».

وفي باب الشعر تكرّر نشر القصائد التي تتخذ من القدس موضوعاً لها ومحوراً. ففي العدد السادس نقرأ قصيدة عبد الرحيم عمر تشير إلى بوابة (مندلبوم) على النحو الذي سبقت الإشارة إليه، والتنبيه عليه، فهي تشير إلى الأجراس الكنسية وهي تقرعُ معلنة بدء الاحتفالات بأعياد الميلاد، وفيها يسمح لبعض العائلات بالتواصل مع الأهل والأقارب في القدس القديمة وفي ذلك ما فيه من تذكير مستمر بمعاناة الفلسطينيين:

وتقرعُ الأجراس
وتبدأ الحكاية الجديدة
ويصعد الدعاء للسماء
مرنّما ينسابُ
فتنتشي القباب
وتملأ المدينة السعيدة
أغنيّة قديمة قديمة
ظلت على شفاهنا يتيمة
تشيعُ كالمساء
«المجدُ في العلاء».[14]

وفي العدد الذي يليه نقرأ قصيدة لأمين شنّار نفسه بعنوان: «بيْتُ المقدس»★. وهي قصيدة طويلة يصف على لسان المتكلم فيها جولة ابن المدينة حين يعود إليها بعد غياب قسري، فيدهشه ما يخيم عليها من صمت رهيب، وسكينة مبهمة، فيحس كما لو أنه سائح هو وقلبه في المدينة التي لم يرها منذ زمن. فتتراءى له أشباح الذكرى تارة في هيئة شخوص تذرَعُ المكان، وطوراً في أنفاس عطرة تضوع في الأسواق، تخالطها روائح العطور، والبخور، والمجد الذي ينبثق صارخاً من مقابر محفورة، مدويّاً: أين نبْعَة الحياة ثم يلتفت إلى الأسوار:

وها هنا الأسوار
مرفوعة الهامات في إصرار
مصلوبة، مهزومة، جريحة الأبواب.
تسائل القبابْ
عن عودة الغيّاب
تقول في فجيعةٍ: أقامني سلطان
عالٍ عظيم الشان
كيْ أحمل الضياءَ، والنداء، كي أكونْ
سدّاً بوجه الليل والمنونْ[15]

وعلى الرغم من أن بعض القراء يظنون أنّ اسم (أورشليم) الذي يطلقه الصهاينة على القدس اسم عبري، إلا أن الشاعر سليم دبابنة يصرّ على استخدام هذا الاسم بدلا من القدس ليقينه بأن كلمة أورشليم تحريف لكلمة أور سالم الكنعانية

★انظر في هذا العدد إشارتي إلى هذه القصيدة في «موسم زيارتي للقدس وما حولها».

التي سبق ذكرنا لها، فهو يسم قصيدته المنشورة في العدد الثاني عشر من **الأفق الجديد** بعنوان: العودة إلى أورشليم[16]. والقصيدة طويلة تتضمّن مقاطع عدة منح كل مقطع منها عنوانا مستقلا، لكن المقطع الأخير وهو (إليها) يكثف دلالات القصيدة، مما يجعله ذروتها ومحورها الرئيس. وفيه يتنبّه الشاعر لعودته القريبة إلى بيت المقدس، وقد تحرَّرَتْ من الأعداء، فانتعشت الحياة فيها حقولا من سنابل تملأ الأودية، وتغسل بالعبير البكر رمال الشاطئ. أما الرجال فيزهون بسواعدهم السمر، وبعيونهم الكبيرة، وبشمس العروبة تسطعُ على مدينة السلام:

وغداً إذا ما عدْتُ عاد بكِ القطار
فقفي هنا في الحقل بين سنابلي
إني أراها تملأ الوديانَ
تغسل بالعبير البكر رمل الساحلِ
وأراهمُ، سمرُ الزنود – وفي العيون – عيونُهم
شمس العروبة، والزنود- زنودهم- علَمُ السلام
وفي القلوب محبَّتي
وتفاؤلي
يحيون عرْس العُرْب والتاريخ
في عيد الحصاد الأولِ[17]

ويرى عبده بدوي في قصيدة له «القدس جريحة» تنزف دما غزيراً، والناس فيها ما فتئوا يصلون ويدعون والتراتيل تتصاعد من مساجدها لتلامس الأفق المخضب بالدماء وهي في طريقها نحو السماء فيما راح بعض الركع السجود يرتجفون متجمدين قرب السماء والذل يبدو على جباههم التي لا تخلو من كبرياء داثرة وشموخ زائل[18].

ومثلما حظيتْ القدْسُ بفضل الاهتمام شعرياً حظيت بذلك على مستوى الفن التشكيلي من رسم ونحت. وقد أبدى أمين شنّار عنايته بالحركة التشكيلية وبمعارض الرسم التي نظمت في المدينة، وما حققته من نجاح جماهيري. ففي العدد السابع من السنة الثانية نجده يكتب عن المعرض الذي افتتح، واستمر أسبوعا، في رابطة رعاية الفنون والآداب، في الثامن من نيسان- إبريل 1963 مخصِّصاً كلمة العدد لهذا المعرض الذي شارك فيه ثمانية من الرسامين والرسامات جاعلا منه خطوة أولى على طريق الفن المقدسي المعاصر. وقد تنبه شنّار إلى قيمة هذا النشاط، وأهميته، في الدلالة على أنّ القدس ليست عاصمة الأدب حسب، بل عاصمة الفن. وهذا المعرض «الذي كان ناجحاً، والتجاوب معه كان عظيماً، يبشر بنهضة فنية بدأت تتبلور في هذا البلد، ومن ملامح تلك النهضة تأسيس «ندوة الرسم والنحت» على غرار جماعة بغداد للفن الحديث. ويتوقع لهذه الحركة أن تعبر تعبيراً قوياً صادقاً عن مأساة فلسطين المخيمة، وعن فجر العودة المطلّ»[19]. وقد أبدى أمين شنّار حماسة لهذا المنحى، يدلُّ على ذلك دعوة «ندوة الرسم والنحت» رئيس تحرير الأفق لإلقاء محاضرة عن الفن. ومن يقرأ تلك المحاضرة التي نشرت كاملة في العدد الثاني عشر (1963) يلاحظ مدى إلمام أمين شنّار بتاريخ الفن، وحاضره. وهو شيءٌ غير متوقع، ولا مألوف، من شاعر، وصحفي، ومفكر، وأديب. ففي المحاضرة طاف المتكلم بتاريخ الفن، وتطرق لمدارسه من: كلاسيكية، ورومانسية، وتعبيرية، وانطباعية، وتكعيبية، وتجريدية، إلى دادائية، وسوريالية، معرّجاً على دور الفنان، متسائلا في هذا المقام « ترى هل عملنا على تصوير النكبة في فنٍّ يجسد مأساتنا في طفل فقد أباه على جبل غداة الرحيل؟

أو امرأة تنتظرُ وحيدها عند بوابة (مندلبوم) في القدس باكورة عيد؟ أو حنين ملوَّن إلى سفح الكرمل في حيفا بفلسطين؟ وهل عملنا على تصوير لقائنا بطبيعة بلادنا الخيرة، إيماءة إلى خصب، وعمل، ونشاط؟»[20]. وهذه الأسئلة بطبيعة الحال تومئ إلى ما كان يأمله رئيس التحرير، ويرجوه، من «ندوة الرسم والنحت» في القدس. وفي ذلك ما فيه من توجيه العناية، وتصويب الاهتمام، بموقع المدينة الخاص في الحياة الفنية، فضلا عن الثقافية، والأدبية.

خلاصة

نستخلص مما سبق أنّ لأمين شنّار فضل الريادة في الثقافة والشعر والأدب والفكر والفن، وأنّ ريادته لا تقلّ عن ريادة المفكرين التنويريين، فالدور الذي لعبه من خلال **مجلة الأفق**، على صعيد القدس، وغيرها من الأصعدة، دورٌ كان له تأثيره فيما تلاه من زمن، فكتّابُ المجلة أصبحوا سَدَنة الحركة الأدبية والشعرية والقصصية والنقدية. وقد أفلح في بعث جيل من الشعراء، والكتاب، أسْهموا فيما بعد في إغناء الحياة الأدبية، في العالم العربي◆

الإحـــــالات:

1. **الأفق الجديد**، ع1، أيلول – سبتمبر، 1961، س 1، ص49.
2. السابق، ع 2، تشرين الأول (أكتوبر)، 1961، س1، ص1.
3. السابق، ص 47.
4. السابق، ع 3، تشرين الثاني(نوفمبر)، 1961، س1، ص40.
5. السابق، ع 5، الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر)، 1961، ص 31.
6. السابق، ص 37.
7. السابق، ص 41.
8. السابق، ع6، كانون الأول(ديسمبر)، 1961، ص 44-45.
9. ص 44-45. ومن الكتاب الذين دعوا لتكثيف الاهتمام بأدب النكبة حسن التل ومحمد أبو شلباية، وأحمد أبو عرقوب.
10. السابق، ع 4، تشرين الثاني (نوفمبر)، 1961، س1، ص 1.
11. انظر: عبد الرحيم عمر: **الأعمال الشعرية الكاملة**، مكتبة عمان، عمان، ط1، 1989 ص 92.
12. إبراهيم خليل(مقدم): **مختارات القصة الفلسطينية القصيرة**، دار الكرمل، عمان، ط1، 1990، ص 55-60.
13. **الأفق الجديد**، ع 7، كانون الثاني (يناير)، 1962، ص 42.
14. **الأفق الجديد**، ع 8، الخامس عشر من كانون الثاني، 1962، ص2-4.
15. **الأفق الجديد**، ع 6، (مرجع سابق)، ص7.
16. **الأفق الجديد**، ع 7، ص15.
17. **الأفق الجديد**، ع 12، منتصف آذار، 1962، س1، ص 23.
18. **الأفق الجديد**، ع 12، مرجع سابق، ص 24.
19. **الأفق الجديد**، ع1، كانون الثاني(يناير)، 1964، س3، ص 40.
20. **الأفق الجديد**، ع 7، أيار(مايو)، 1963، س 2، ص33-34.

شيمون بيريس
وسـرقــــة الـذاكــرة

هيئة التحرير

لا يستقيم الادعاء الزائف إلا بأدلّة تسعفه على الوقوف، تحتاج بدورها إلى ظهير ينكر الحقيقة. ولهذا تكون القدس، حسب الرؤية الصهيونية، يهودية خالصة منذ ثلاثة آلاف عام، وتكون فلسطين أرضاً لا أهل لها، باستثناء «عرب يبحثون عن العمل في الحقول الإسرائيلية» ذلك أن «أرض الميعاد» التي لا تقبل بالأغيار، أخذت مكانها تحت الشمس منذ «زمن سحيق» كما يقول المؤرخون الصهاينة.

لا غرابة، إذن، أن يخترع شيمون بيريس الأرض التي يريد، والطفولة التي يُحبّ، متّخذاً من القدس مهداً لذكريات طفولة منقضية، كما جاء في حديث له مع المجلة الألمانية دير شبيجل (العدد الثالث 2009) التي خصّصت عددها عن القدس تاريخاً، وحاضراً، ومستقبلاً عبر مصادرات تأويلية مُجحفة تثبت لليهود حقوقاً كاملة في المدينة، وتنفي حقوق العرب فيها. بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك، عندما

استعرضت تاريخ الصراع على المدينة حيث تحدّثت عن محاولة العرب احتكارها واحتلالها وحرمان اليهود من حقّهم المقدّس فيها.

وهكذا فإنّ عدد دير شبيجل يمثّل مساهمة في مشروع القدس عاصمة للثقافة العربية، ولكنّها مساهمة خاصة تكشف عن حجم سيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام الغربية، وعن الأثر الذي تسعى لإحداثه في الرأي العام العالمي.

بيد أن الزعيم الصهيوني، الذي حاز على جائزة نوبل للسلام عام 1993، ينسى أن طفولته المفترضة لم تكن في القدس، فقد ولد في بولندا، وأن القدس هي الموقع المبارك الذي شهد طفولة أفواج متوالية لا حصر لها من الفلسطينيين. والواضح في خطاب «الزعيم العمالي» المتجول في أسواق سياسية كثيرة، أمران: اختراع طفولة مقدسية لا وجود لها، توسلاً لأصالة كاذبة، وعدم الاعتراف بالآخر الفلسطيني، الذي عاش في القدس ولم يخترع شيئاً. يتماهى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بالفلسطيني ويحذفه حين يغتصب مكانه، متوسلاً القتل والكذب معاً فبعد قتل الفلسطينيين وتطهير المكان تبدو شوارع المدينة المقدسة واسعة فسيحة يهودية الرطوبة والهواء، لا مكان فيها للفلسطينيين، لأن المكان كله ليهودي بولندي، جاء إلى فلسطين عام 1934، وهو في الثالثة عشرة من عمره، مع نصف السكان من قريته، مخلّفاً وراءه النصف الآخر ليلقوا حتفهم على يد النازية.

انتسب إلى عصابات الهاغانا الإجرامية، وقتل ما استطاع و«اقتطع» جزءاً من وقته ليتفرج على شوارع القدس. بعد القتل يأتي الكذب، الذي يحجب القتل ويعطي القاتل طفولة عادية مقدسية، وبعد الكذب القاتل تأتي ذكريات الزعيم الإسرائيلي الحائز على جائزة نوبل للسلام.

يتذكر بيريس طفولته ويتحدث عن السلام كما لو كان الفلسطينيون لا وجود لهم، فلو كانوا هناك لكانت لهم ذكريات مثله، أو كما لو كانوا غرباء عن القدس جاؤوا إليها ليعكروا ذكريات رئيس الوزراء الزائفة. وواقع الأمر أن بيريس، وهو الصهيونيّ المتصلّب، يتابع سياسة النهب المفتوحة، فبعد نهب الأرض بخيراتها، يُنهب الشعب وتراثه، وبعد نهب الشعب والأرض تُنهب الذاكرة الفلسطينية لصالح ذاكرة يهودية بولندية، خلفت وارسو وراءها وجاءت إلى فلسطين كي تمارس القتل والتزوير ونهب الأرواح والتاريخ والأمكنة.

في حديث بيريس عن ذكريات الطفولة في القدس يصل العنف الصهيوني إلى ذروته المطلقة ذلك أن «المنتصرين» يسرقون الأرض وما تحتها، خلافاً لـ«الانتصار الصهيوني»، وهو حالة عدوانية خاصة، الذي يسرق الأرض والروح والذاكرة.

في مقابل ذاكرة مصطنعة تختلق قدساً يهودية خالصة وتختلق لها ما شاءت من الذكريات، نقدم هذه الشهادات، التي كتبها بشر عاشوا في القدس وعرفوا شوارعها وعاداتها وعبقها، وعرف هذا العبق آباؤهم وأجدادهم. وهي جزء من ملايين الشهادات المحفوظة في الصدور وفي القبور.

يكتب الفلسطيني، كما يكتب العربي بعامة، عن قدس هي منه، ويكتب الصهيوني عن قدس سقط عليها. ولأنه لا يعرف عن دلالة المدينة المتسامحة شيئاً، فهو يطلق النار على العربي الفلسطيني ويفتش بيته وجيوبه، ويمد أصابعه إلى رأسه ويسرق ذكرياته أيضاً كأنه يريد أنْ ينتزع منه صور القدس ورموزها ◆

القدس
في ذاكرة إدوارد سعيد

هيئة التحرير

تحدث إدوارد سعيد عن القدس أكثر من مرة: فعل ذلك وهو يستذكر المدينة التي احتضنته طفلاً وصبياً مستحضراً، على طريقته، قول الفرنسي مالرو: إن في الطفولة من الأسرار ما يفوق أسرار سور الصين. جعلت هذه الأسرار من القدس طبقة من طبقات شخصية سعيد: العربي المسيحي الفلسطيني المدافع عن تعددية الثقافات والمساواة بين البشر. ولذلك رأى في المدينة حاضنة لحوار إنساني متسامح، قبل أن يقرأ فيها أبعاداً دينية عميقة الجذور.

ومرّ سعيد على ذكر القدس، حين زارها في مطلع العقد الأخير من القرن الماضي، ورغب بزيارة بيته القديم، الذي لم يعد بيته، معطياً مثالاً مشخصاً عن الظلم الصهيوني، الذي يطرد فلسطينياً، تآلف مع مكان ولد فيه، ويستقدم إنساناً غريباً عنه، يغتصب البيت وذكرياته. ومع أن سعيد لم يكن يؤمن كثيراً بالحوار مع الأموات، فقد احتشدت ذاكرته بأطياف «الأحياء»، الذين شاركوه، ذات مرة، العيش في بيت ظل ماثلاً في ذاكرته. لذا كان دفاع سعيد عن القدس دفاعاً عن «هوية» رأت النور في زوايا المدينة المقدسة.

عاد المفكّر الفلسطيني أكثر من مرة، إلى القدس، وهو يساجل أنصار السلام الزائف، كاشفاً بالأرقام والوثائق عن «تهويد المدينة» التي تتعرّف عند الإسرائيليين «مدينة توراتية» تارة، وتتحول إلى مشروع سياحي كبير، تارة أخرى، رأى سعيد في «التهويد» المدفوع بجشع صهيوني لا ينتهي، عنواناً للسياسة الإسرائيلية التي تتحدث عن «السلام» وتقوّض أسسه، وتعترف بـ«السكان الفلسطينيين» ولا تعترف بحقوقهم، وتدعو «القدس» مدينة العالم وتطرد أهلها بوسائل مختلفة.

يقول شيمون بيريس: «القدس عاصمة حياتنا» **دير شبيجل** (العدد 3، 2009، ص22)، ويؤكد إدوارد سعيد أن حياة الإسرائيلي من موت الفلسطيني، وأن من يدمر حياة «الآخر» لا يعرف الفرق بين الموت والحياة.

هل كانت المجلة المذكورة ستقابل إدوارد سعيد أو جبرا إبراهيم جبرا أو غسان كنفاني أو إميل حبيبي أو حتى ياسر عرفات لو كانوا على قيد الحياة؟ من يقرأ محتويات المجلة، وهي أحادية النظرة متصفةٌ بأيديولوجية منحازة، يدرك الجواب على الفور، بل ويزداد معرفة بما تقدم وسائل الإعلام المعادية للقارئ العربي من أجندة تنتقي توجهاتها ضمن مشروع الهيمنة.

القدس عاصمة الذين يحافظون على رموزها القديمة وسردها التاريخي الذي لا يصادر حقوق الفلسطينيين العرب فيها◆

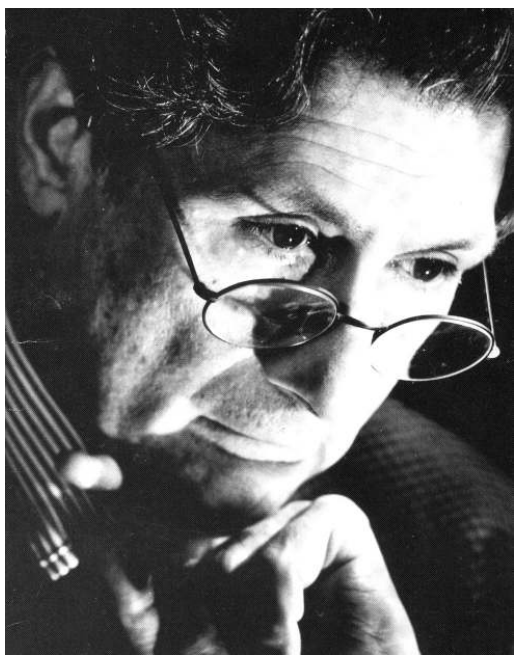

«على كل واحد منّا أن يروي قصته»

إدوارد سعيد

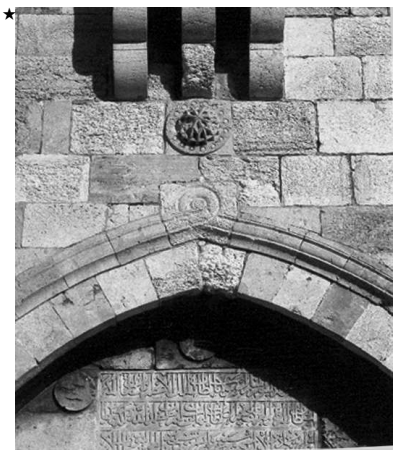

لا تغب طويلاً عن القدس

عاصم الشهابي

في صباح يوم السبت الأول من أكتوبر عام 1960، وقفت على شرفة الطابق الثاني لدارنا، أُطلّ على منظر خلاب أمامي، فدارنا كانت تقع في أول حي وادي الجوز بالقدس، ومطلة على جبل الزيتون، حيث ترى أمامك على قمة الجبل مستشفى أوغيستا فيكتوريا الذي بناه القيصر الألماني وليام الثاني تكريما لزوجته عام 1910. والمستشفى تم بناؤه حسب الطراز الألماني ليكون مقرا لإقامتها وللحجاج الألمان أثناء زيارتهم إلى القدس، ولكنه تحول إلى مستشفى منذ العام 1949 ليقدم الرعاية الصحية للاجئين الفلسطينيين وسكان القدس. وترى أمامك أيضا بنايات الجامعة العبرية ومستشفى هداسا المبنية بالحجر الأبيض والجاثمة على نفس قمة الجبل، وقد بدأ العمل فيها رسميا عام 1925.

★ تفصيل من باب الخليل – القدس.

وهذه البنايات تقع على أراضٍ عربية صادرتها سلطة الانتداب البريطاني على فلسطين مباشرة بعد احتلالها لفلسطين عام 1918 وقدمتها هدية لجمعية جامعة هداسا الصهيونية في بريطانيا. ومما يذكر أن أثرياء اليهود حاولوا عدة مرات أخذ موافقة السلطان عبد الحميد لشراء أرض وبناء جامعة عبرية في القدس، ولكن السلطان العثماني الحريص على مكانة القدس الدينية رفض الطلب أكثر من مرة. وتشاهد أمام عينيك أيضاً وعلى أعالي جبل الزيتون الغربي، ثلاثة دور لعائلة الشهابي، وداراً رابعة لعائلة العفيفي مبنية من الحجر الجميل، ومحاطة بأشجار الزيتون والتين واللوز والصنوبر القديمة. يذكر الأهل أن معظم أشجار الزيتون تعود إلى مئات السنين، وكان أحد دور العائلة يعرف بقصر خورشيد، وتم بناؤه من طابقين في منتصف القرن التاسع عشر على قطعة أرض تزيد مساحتها عن ستة دونمات، وقد صودرت وأصبحت جزءاً من حرم الجامعة العبرية. ومن المحزن أن بيوت عائلتنا الثلاثة دمرت على مرحلتين خلال فترة نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، بحجة أن هذه المنطقة يجب أن تكون منطقة خضراء وخالية من البناء والسكن، كما جاء في قرار المصادرة. وللعجب، فقد تم اقتلاع أشجار الزيتون القديمة من الأرض ونقلها لتزرع في مكان آخر في القدس الغربية لا أعرفه، كما أقيم موقف للسيارات مكان دار جدي الشيخ محي الدين في قمة الجبل. ومن هذا المكان المرتفع يستطيع الشخص الإطلال على منظر عام لمدينة القدس القديمة المحاطة بسور حجري بارتفاع أربعين قدماً ويضم أربعة وثلاثين برج مراقبة. وقد تم بناؤه بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة 1542. مساحة القدس القديمة داخل السور تقارب كيلومتراً مربعاً، ولها سبعة أبواب من مختلف الجهات الأربع. يرى المشاهد أمامه منظراً رائعاً يأخذ الألباب ويأسر القلوب. فهناك تظهر ساحة الحرم الشريف تتوسطها قبة الصخرة الذهبية وبجانبها قبة مسجد الأقصى، وكلتاهما تم بناؤهما بأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في نهاية القرن السابع الميلادي. كما يرى المشاهد عشرات القباب وأجراس الكنائس ومآذن المساجد والدور المتلاصقة داخل أسوار القدس، وتظهر كنيسة القيامة التي بنيت فوق الجلجلة أي مكان الصخرة التى صلب عليها السيد المسيح عليه السلام. وقد تم الانتهاء من بنائها عام 336 ميلادية. كما يرى المشاهد خارج السور من جهة الشرق كنيسة الجسمانية بهندستها الرائعة، وهي تعرف أيضا بكنيسة كل الأمم ومحاطة بأشجار الزيتون الكثيفة. واللوحة المرسومة على واجهة الكنيسة هي لوحة (يوم القيامة) للرسام الشهير ليوناردو دافنشي. وفي أعلى جبل الطور تشاهد الكنسية الروسية وكنيسة الفرنسيسكان وديرهم ومستشفى المقاصد وفندق جبل الزيتون. ومن جهة الغرب الشمالي تشاهد عمارة النوتردام الضخمة، التابعة للفاتيكان والتي تقع مقابل الباب الجديد بالقدس القديمة، بجانب شارع يافا. وكانت عمارة النوتردام قبل سنة 1967 مركزا عسكريا إسرائيلياً للمراقبة على حدود الهدنة الفاصلة بين جزئي القدس العربية والمحتلة عام 1948. وإذا تابعت النظر نحو الشمال الغربي، فستشاهد منطقة ماميلا والطالبية وبجانبها منطقة الشيخ جراح المرتفعة على هضبة عالية، تضم فندق الأمبسادور وأرض المفتي الحسيني ومجموعة دور جميلة لعائلات مقدسية مبنية بالحجر الأحمر والأبيض ومستشفى العيون الإنكليزي الجديد ومقبرة الإنكليز. ومن جهة الغرب الجنوبي ترى حي باب الساهرة ومتحف الآثار الفلسطيني ووادي الجوز الذي أصبح حاليا

مكتظا بالسكان. ومما يذكر أن عائلة العفيفي لا تزال تسكن في دارها بجبل الزيتون بجانب الجامعة العبرية متحدية كل الصعاب، ورغم كل الإغراءات المالية التي قدمت لهم لشراء الدار.

تركت المنزل في الصباح الباكر وكان الطقس لا تزال فيه نسمة باردة، كما هو الحال عادة في شهر أكتوبر، ومشيت باتجاه متحف الآثار الفلسطيني. وقد تم افتتاح المتحف رسميا عام 1935. مشيت بجانب سور حديقة المتحف الخلفية التي تبعد حوالي مائتي متر عن دارنا، فوصلت بعد دقائق إلى الباب الرئيسي لمدرسة الرشيدية الثانوية التي كنت قضيت فيها آخر خمس سنوات قبل الحصول على الشهادة الثانوية. وقفت أمام باب المدرسة لألقي نظرة وداع عليها وبجانبي كان يقف أبو محمد بائع الكعك بالسمسم أمام طبليته، وهو الذي اعتاد أن يقف كل صباح أمام المدرسة ليبيعنا الكعك والبيض والفلافل أثناء استراحة الصباح، وحالما رآني لم أدخل باب المدرسة، قال تأخرت، التلاميذ دخلوا إلى الصفوف قبل قليل، فالساعة الآن الثامنة صباحا، فضحكت، وقلت له بأنني أنهيت المدرسة، وقد حضرت فقط لإلقاء نظرة وداع على مدرستي من الخارج، فأنا سأترك القدس غدا للسفر إلى ألمانيا للدراسة، فرد علي بما معناه، طقس القدس أحلى من طقس ألمانيا البارد، وستعود للعيش إلى هنا مهما طال الزمان لتأكل الكعك والفلافل، فلا يوجد لهما مثيل في ألمانيا. كان كلام أبو محمد بلهجة أهل الخليل حازما، ولم يترك لي مجالا سوى الموافقة على ما يقول، فودعته، وواصلت المشي بسرعة قاطعا الشارع الذي يوصلني إلى باب الساهرة، ومنه دخلت إلى القدس القديمة وبعد أقل من دقيقة وصلت إلى زاوية الهنود الواقعة في موقع مرتفع مقابل باب الساهرة، وهدفي الأول لقاء صديق العمر والمدرسة عبد الحميد الأنصاري الذي كان يقيم بالزاوية لوداعه قبل السفر.

كنت وعبد الحميد وعدد آخر من زملاء المدرسة قد أنهينا معا دراسة عام إضافي في المدرسة الإبراهيمية للحصول على شهادة التوجيهية المصرية بعد أن حصلنا على شهادة المترك الأردنية التي تمثل حاليا شهادة التوجيهي. فالجامعات المصرية كانت تشترط الحصول على شهادة التوجيهي المصرية للسماح للطلاب العرب بالدراسة في جامعاتها. وكان معظم الذين تخرجوا معي سنة 1959، يسعون للذهاب إلى مصر للدراسة فيها. أخبرت عبد الحميد بأنني أخيرا قررت عدم الدراسة لا في مصر ولا في جامعة دمشق، وكنت وقتها حصلت على قبول لدراسة طب الأسنان فيها، وإنما قررت السفر إلى ألمانيا للدراسة في إحدى جامعاتها. في ذلك الوقت لم أكن أعرف اسم أي جامعة ألمانية ولم أراسل أي جامعة للحصول على قبول منها للدراسة، وإنما كنت أسمع أن دراسة الكيمياء في ألمانيا ممتازة، وأفضل من جميع البلدان الأخرى، لأنني كنت مهتمّاً بدراسة موضوع يساعدني على تصنيع الأدوية. وكنت أعتقد أن دراسة الكيمياء أول خطوة في هذا الاتجاه، لأن والدي كان تاجرا يستورد الأصباغ من شركة هوكست الألمانية، ويقول دائما لزبائنه، إن الأصباغ الألمانية هي الأفضل. وكنت قد سمعت أن الطالب لا يحتاج أن يدفع رسوماً عالية للجامعات في ألمانيا، ويمكنه أن يعمل ويدرس إذا لزم الأمر.

وهكذا أبلغت قراري النهائي للصديق عبد الحميد، فأيّد وجهة نظري، وأبلغني أنه عازم على السفر أولا إلى بلد والديه في الهند، ليرى إذا كان يستطيع الدراسة فيها، وإذا لم يستطع فسيعود إلى القدس وسيسافر منها إلى مصر، فهو يريد دراسة

التاريخ. بعد محادثة قصيرة مع عبد الحميد ودعته، وأكملت المشوار متجها إلى بداية حارة السعدية لوداع صديقي عاصم الأنصاري الذي لا تجمعه قرابة مع عبد الحميد، فوجدته يقف أمام البيت، فطلبت منه مرافقتي حتى باب الحرم الشريف، لأن وقتي محدود، ومشينا معا باتجاه طريق الواد، ومررنا بجانب مستشفى الهوسبيس النمساوي، ومنه مشينا عبر طريق الآلام، وفي منتصفه وقفنا أمام باب المدرسة العمرية التي درسنا فيها معا لمدة ست سنوات في المرحلة الابتدائية، والمدرسة العمرية بناية قديمة تطل على ساحة الحرم الشريف، وعلى بعد أمتار منها يقع باب الغوانمة حيث يسكن ابن عمي مدحت.

صعدت الدرج وهممت أن أطرق باب الدار للسؤال عن مدحت، فإذا بي أرى الباب يفتح ويخرج منه والده الجليل الشيخ عبد الرزاق وهو يحمل عصاه، ويلقي علينا التحية ويدعونا للدخول إلى البيت، ولكنه يستدرك ويقول: إن مدحت سافر قبل قليل إلى عمان، فهو يريد أن يأخذ فيزا للذهاب إلى النمسا والدراسة فيها. أعلمت العم الجليل بقراري السفر إلى ألمانيا، فقال لي لماذا لا تذهبان معاً إلى النمسا، فكلا البلدين يتكلم الألمانية. أجبته بأنني سأفكر بالأمر، وودعته كما ودعت صديقي عاصم الذي أعلمني أنه قرر دراسة الحقوق في مصر، وهو حاليا محامٍ يقيم في القدس، ومدحت طبيب لا يزال يعمل في النمسا.

دخلت من باب الغوانمة إلى ساحة الحرم الشريف وتابعت سيري باتجاه باب المجلس الإسلامي ومن ثم باب الحديد، حيث تقع دارة العائلة القديمة والكبيرة أو ما يعرف باسم حوش الشهابي. وكما أعرف فإن عائلة الشهابي تسكن بالدار منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ويعود بناء الدار إلى العام 1294 م كما تشير المراجع التاريخية. والدار وقف ذري لأفراد العائلة كما هو الحال مع معظم أملاك العائلات المقدسية، ولا يجوز أن يباع الوقف، ويجب أن يكون متاحا للسكن لكل فرد محتاج من العائلة، وخاصة النساء الأرامل منهم. وقد قام ببناء الدار الأمير صفي الدين المنصوري، حاكم طرابلس، لتكون سكناً لحجاج القدس القادمين من الخارج. والدار ملاصقه تماما لجدار الحرم الشريف، وملتصقة بباب الحديد، ويرقد بجانب الباب جثمان كل من شريف مكة الحسين بن علي والشهيد القائد عبد القادر الحسيني. وتقسم الدار إلى طابقين رئيسين وبينهما فضاء واسع، وتضم حوالي عشرين غرفة كبيرة وصغيرة. ومدخل الدار السفلي من جهة باب الحديد معتم لحد ما، وله أيضا درج داخلي معتم أكثر، ويدّعي اليهود حاليا أن مدخله يمثل بقية لحائط البراق، فيحضرون كل سبت للصلاة فيه. ومن يصعد الدرج المعتم لأول مرة يشعر برهبة المكان، وينتابه الخوف، لأنه لا يعرف إلى أين سينتهي به الدرج، فبعد ثلاثين درجة على ما أذكر، يظهر ضوء النهار وساحة صغيرة فارغة، كما تظهر أبواب البيوت المتلاصقة وممر مرصوف بالبلاط الحجري، وتنتشر عدة شجرات من الورد والياسمين بين البيوت. والدار لا يزال يسكنها عدد من أفراد العائلة.

مررت بساحة الدار، ودخلت أولا إلى بيت عمتي أم جواد، فوجدتها متربعة على الأريكة (الدوشك) تشرب القهوة وحدها، فأولادها ذهبوا باكرا إلى العمل في دكان لهم بسوق العطارين. قبلت يديها وأبلغتها أنني جئت لوداعها، لأنني عزمت السفر إلى ألمانيا. نظرت إليّ وتمعنت في وجهي، وبعدها دمعت

عيناها وقالت – يعني ستتركنا وتترك والدك وحيداً – يكفي أن أخوتك في الخارج. فأجبتها، لا أريد أن أترككم، أرغب فقط أن أدرس وسأعود بعد سنوات قليلة إلى القدس. نظرت لي مرة ثانية، وقالت ثلاث مرات الله يوفقك، ولا تغب عنا طويلاً. ولكنني شعرت أنها لم تكن موافقة كليا على السفر. تابعت المشي عدة أمتار أخرى للسلام على عمتي أم رشيد في بيتها الكبير، وكان عمرها قد تجاوز الخامسة والتسعين عاما، ولكنها في كامل قواها العقلية والبدنية، تعيش وحدها بعد أن مات زوجها وابنها الوحيد. وهي أيضا رحبت بي بحرارة وحلفتني أن أفطر معها، وشرحت لها أن وقتي قصير، وأنا حضرت لوداعها قبل السفر. فكرت قليلاً، وسألتني لماذا أريد السفر بعيدا، فالغربة مرة، وأضافت، يمكنك الدراسة في الشام أو مصر، وتكون قريباً منا. حاولت أن أقنعها بأن الدراسة أفضل في ألمانيا، فوافقت، وقالت ألمانيا بلاد بعيدة ولكنها عظيمة في العلم والصناعة، فتعجبت كيف عرفت عمتي بهذه المعلومة، وهي طوال حياتها لم تغادر القدس إلى أي مكان. وفي النهاية حلفتني بأن لا أغيب طويلا عن القدس، «فوالدك كبير السن وبحاجة لك، ونحن جميعا بحاجة لك ولإخوتك». تركت الحوش وفي عيني دمعة، وأنا أفكر بكلام العمّتين، وقررت ألّا أواصل وداع عمتي الثالثة ولا وداع خالتي، لأنني لا أريد أن أسمع المزيد عن لوعة الفراق، وأرى الدموع في عينيهما بعد أن وصلتا إلى عمر الشيخوخة.

في الماضي قبل إنشاء مؤسسة الوقف الإسلامي في القدس في مطلع القرن العشرين، كانت العائلات المقدسية التي تسكن حول الحرم الشريف تتقاسم حماية الحرم وصيانته وخدمته والمساجد بداخله. وكانت من وظائف عائلة الشهابي في الماضي حراسة باب الحديد وإمامة صلاه العصر، وما يتبع ذلك من تقديم دروس دينية للمصلين، كما كانت العائلة تقوم بشعائر التبرّك بشعرات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الموجودة في زجاجة صغيرة مغلقة وملفوفة عدة مرات بقطع من القماش، ويحتفظ بها داخل خزانة في مسجد قبة الصخرة. ومفتاح الخزانة موجود بيد أحد كبار أفراد العائلة يحتفظ به، ويفتح الخزانة مرة واحدة بالسنة في 27 رمضان بعد صلاة العصر في احتفال بسيط ليتم التبرّك بالشعرات من قبل المصلين. وبالمناسبة، لا توجد أي معلومة تاريخية دقيقة تبين مصدر الشعرات، وكيف تم تكليف العائلة بمهمة إقامة احتفال التبرّك بها.

غادرت الحوش وتابعت مشواري إلى طريق باب السلسلة حيث يسكن صديق المدرسة جمال أبو ليلى، فلم أجده، وعرفت أنه سافر إلى عمان ليحصل على فيزا للسفر إلى ألمانيا، فهو في الأصل كان يرغب في دراسة الهندسة في ألمانيا. وهذا بالفعل ما تم له، وتوفي قبل عدة سنوات بينما كان يعمل في ألمانيا. وبعد ذلك تابعت المشي نحو متجر والدي في نهاية شارع البيزار، وهو تاجر عطارات وأصباغ ورث التجارة عن والده. وَجَدْتُه يجلس وراء المكتب ويكتب في ورقة أمامه. نظر لي وقال هل أكملت التحضير للسفر غداً، قلت له نعم، ولكنني أريد أن أغير مكان دراستي وأسافر إلى ألمانيا للدراسة فيها بدل دمشق. استمع والدي لي بصمت، وأنا اشرح له حسنات الدراسة في ألمانيا، وبأن الدراسة فيها لن تكلف كثيراً، ويمكنني أن أعمل وأدرس إذا لزم الأمر، وذكرته كيف أنه يعتبر البضاعة الألمانية هي الأحسن في العالم. صمت والدي ولم يرد علي بكلمة واحدة، وتابع الكتابة، وعندها أخذت الجريدة التي أمامه، وبدأت القراءة فيها، وتركته يفكر في الأمر،

وأنا أنظر من بعيد إلى قسمات وجهه وعينيه، لعلني أقرأ فيهما حقيقة ما يفكر، وهل سيوافق على مشروع سفري إلى ألمانيا أم لا. ولكن إحساسي الداخلي كان يقول لي، إنه سيوافق على سفري، فوالدي كان بعيد النظر ويعرف جيدا ماذا يدور في العالم، وكان يثق بي دائما. ولم تمض سوى دقائق معدودة حتى نظر والدي نحوي بحنان لا يمكن وصفه، وقال: بصوت خافت، الله يوفقك، وأضاف فقط، كم تحتاج من فلوس للسفر؟ تركت محل الوالد وبجيبي مئة وخمسون ديناراً حسب طلبي. وكان هذا المبلغ حسب المعلومات المتوافرة لي سيكفي أجرة السفر إلى ألمانيا بواسطة قطار الشرق الذي ينطلق من اسطنبول إلى فينا بالنمسا، ولدفع تكاليف الإقامة والعيش في ألمانيا لمدة ستة أشهر، وهذا ما تأكد لي صحته فيما بعد. قمت بوداع جيران والدي من أصحاب المحلات الذين كنت دائماً على علاقة صداقة معهم مع أنني كنت أصغرهم عمراً. وتابعت المشي عبر سوق حارة النصارى ومنه إلى سوق خان الزيت وباب العامود، واشتريت في طريقي بعض ما يلزم للسفر، وكلاً من مجلة روز اليوسف وصباح الخير المصريتين، فقد كنت مواظباً على قراءتهما كل أسبوع، كما اشتريت قاموساً عربياً ألمانياً، لأنني عزمت أن أحفظ ما أقدر عليه من معاني الكلمات الألمانية التي لا أعرف كلمة منها.

وصلت بيتنا عند الظهر، فوجدت والدتي تحضر سفرة الطعام، ففاجأتها برغبتي في السفر إلى ألمانيا للدراسة فيها، فتعجبت مما أقول، وقالت ما دهاك يا عاصم؟ فشرحت لها الأسباب، وذكرت لها أن والدي قد وافق على سفري، فلم تتعجب من الأمر، فوافقت بدورها بلا تردد، فعادتها لا تحب المناقشة. بعد الغداء، قالت لي الوالدة: أريد أن أوصيك بأن لا تغيب عنا طويلا، ادرس بسرعة وعُد إلى القدس، والمهم أن لا تتزوج هناك، فأنا أعرف أن معظم الذين يدرسون في الخارج يتزوجون بنات أكبر منهم، في النهاية تأخذ الزوجات الأولاد ويرحلون إلى بلادهم. قلت لها تكرمي! وقلت لنفسي: سبحان الله، كيف يطلب الجميع مني ألاّ أغيب طويلاً.

في مساء اليوم، التقيت مع ثلاثة آخرين من زملاء المدرسة الذين يرغبون بمغادرة القدس للدراسة في الخارج، وقمنا معا بجولة وداع في شوارع القدس خارج السور، فقد كنا نقوم بمشوار كل مساء لمدة ساعة إلى ساعتين، نمشي في عدة شوارع للفرجة والحديث والمناقشة، ولم نكن نعرف بعد عادة الجلوس في المقاهي، لأنها بنظرنا كانت لكبار السن، ونادراً ما كنت ترى شابا في القدس يجلس في أحد المقاهي في تلك الفترة. مشينا أولا باتجاه شارع الزهراء ومنه إلى شارع صلاح الدين، وتابعنا المشوار باتجاه باب الساهرة، وقمت هناك بحجز مقعد بأحد سيارات سفريات البتراء التي تسافر سياراتها يومياً وتقريباً بصورة منتظمة كل ساعة من القدس وعمان. بعدها تابعنا الطريق المؤدية إلى باب العامود ومنها إلى شارع نابلس مروراً بكلية شميت الألمانية ومدرسة الفرنسيسكان والآثار الفرنسية وكنيسة سنت استيفان حتى وصلنا إلى مدخل بيت أبي العبد بجانب مصنع الخزف الفلسطيني ومقابل القنصلية الأمريكية التي كانت تبعد أمتاراً عن بوابة مندلبوم. هذه البوابة كانت المعبر الوحيد الذي كان يفصل القدس العربية عن القدس المحتلة منذ سنة 1948. كان يوجد بين شطري القدس منطقة حرام مغلقة بالأسلاك الشائكة والبيوت المدمرة تبدأ من أسوار القدس الغربية وباب العمود وتمتد على طول الطريق إلى ضواحي حي شعفاط

وعبر أراضي الضفة الغربية، ولا يستطيع أحد أن يخترقها، فقد كانت المنطقة ملغمة ويطلق الرصاص على أي شخص يحاول الاقتراب منها. وبالمناسبة كانت الجامعة العبرية ومستشفى هداسا يقعان في منطقة القدس العربية حتى عام 1967، وكان يسمح لقافلة من سيارات التموين والحراس أن تمر كل يوم أربعاء وبرعاية قوات الأمم المتحدة من شطر القدس المحتل إلى منطقة الجامعة العبرية والتي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات. كان أبو العبد يبدأ ببيع سندوتشات الفلافل من بيته ما بين الساعة الخامسة والثامنة مساء كل يوم ما عدا يوم الجمعة. اشترينا منه السندوتشات الشهية، وأكلناها ونحن نكمل المشوار باتجاه مدرسة المطران وشارع سينما النزهة ودار الطفل العربي والمدرسة المأمونية للإناث، ومنها وصلنا إلى شارع الزهراء، وأمام الفندق الوطني ودعت الأصدقاء على أمل أن أبقى على اتصال معهم في المستقبل.

حاولت أن أنام مبكراً استعداداً للسفر، ولكني لم أستطع النوم الكافي، وفي صباح يوم الأحد الثاني من أكتوبر، ودعني والدي الذي اعتاد أن يترك البيت الساعة السابعة تماماً، بقوله لي فقط: لا تغب عنا طويلاً، وكان الله معك، واكتب لنا. وأخيراً، جاءت السيارة إلى بيتنا الساعة الثامنة صباحاً لتأخذني إلى عمان، فودعت الوالدة وعمتي التي كانت تعيش معنا وآخر شقيقتين صغيرتين لي في البيت، ولاحظت الدموع في عيونهم جميعاً، فأسرعت بحمل حقيبة السفر ونزلت إلى السيارة دون أن ألتفت خلفي، فقد كنت متأكداً أن عيونهم تلاحقني، وأنا لا أطيق أن أرى أحداً يبكي لوداعي، وهذا الشعور لا يزال يلازمني حتى الآن. جلست بالكرسي بجانب السائق، وعندما وصلت السيارة طلعة رأس العامود المطلة على القدس القديمة، نظرت خلفي للمرة الأخيرة، وشعرت وقتها بحزن وقلق بأنني بدأت أغادر القدس، وشعرت بالخوف من المستقبل، لأنني أسافر إلى بلد لا أعرف لغته، ولا أعرف ما يخبئ لي الزمان من مفاجآت؟ وهل أستطيع دراسة الكيمياء كما أريد؟ ومتى سأعود إلى القدس؟ وتذكرت ما قال لي الأهل والأصدقاء وبدون أي اتفاق بينهم: لا تغب عنا طويلاً. لا أزال أذكر تماماً أني كنت شارد الذهن طوال الطريق، أنظر من خلال شباك السيارة، وأتمعن بمنظر الأرض والأشجار والناس التي تمر مسرعة أمامي دون أن أتكلم كلمة واحدة مع السائق أو مع بقية الركاب. وصحوت فجأة بعد ساعة تقريباً من شرودي على صوت السائق وهو يقول- الحمد الله على السلامة، وصلنا عمان◆

عبد الرحمن منيف
يستعيد حدثان النكبة

عبد الرحمن منيف

لقد كانت الفترة التي سبقت 15 أيار 1948 شديدة الاضطراب، ثقيلة، لأن كل يوم يحمل جديداً، وهذا الجديد ليس سارّاً في معظم الحالات، فالرهان على الحرب غير النظامية، وكان أحد رموزها المضيئة عبد القادر الحسيني، ينكسر فجأة ويتراجع حين سقط الحسيني نفسه صريعاً في معركة القسطل. القاوقجي يتحول يوماً بعد آخر إلى شكل جنرال في جيش نظامي، بالدربيل المتدلي من رقبته والنياشين التي تملأ صدره! طه الهاشمي لا يعرف إن كان لا يزال وزير دفاع للجيش العراقي أم مسؤولاً عن قيادة شعبية مهمتها إعداد الناس للمقاومة.

والإنجليز، رغم ادعاء الحياد الذي رفعوه كشعار لسياستهم في فلسطين، والإعلان عن نيتهم بالانسحاب في 15 أيار، إلا أن مساندتهم لليهود تزداد وتصبح علنية ومفضوحة، إذ أخذوا يسهلون لهم الاستيلاء على القرى العربية، وإجبار سكانها على الهجرة، كما سمحوا لهم بحصار عدد من المدن، وغضوا النظر عن الأسلحة الكثيرة والمتطورة التي تصل إليهم، الأمر الذي جعل الحياد الذي يدعونه استفزازاً إضافياً ورياء لا يمكن السكوت عليه أو تبريره. ليس ذلك فقط، بل إن العقوبات التي توقع على العربي الذي يحمل سلاحاً للدفاع عن النفس، كانت من الشدة والردع إلى درجة جرّدت الناس من أي سلاح، وجعلتهم عزلاً. وبلغ الأمر في المرحلة الأخيرة، قبل الانسحاب أن فتح الإنجليز مخازن أسلحتهم أمام المنظمات اليهودية المسلحة لتأخذ منها ما تشاء، بما في ذلك الطائرات والأسلحة الثقيلة، وقد استعملت هذه الطائرات والأسلحة فعلاً أثناء فترة الانتداب ثم بعد ذلك.

لذلك، حين تقرر أن تكون الجيوش النظامية صيغة المواجهة الأساسية أو الوحيدة، لم تجد أحداً يعترض، أو يطالب بموقف مختلف.

ومن أجل الجيوش، وفي سبيل الحرب والتحرير، لا بد أن تصمت الأصوات، وأن يمتثل الجميع، وهذا ما حصل فعلاً، أما ما تبقى من طاقة أو رغبة في النضال عند الجماهير فتحول إلى العمل الإنساني، خاصة في مجال مساعدة اللاجئين الذين أخذوا بالتدفق، وفي مجال الطبابة والتمريض.

وضع غير متكافئ، ومليء بالثغرات، إضافة إلى العجز والارتباك، ففي الوقت الذي حشد كلٌّ القادرين على حمل السلاح في الطرف الآخر، وسلحوا ودربوا، وهيئت لهم صيغة منظمة للحركة والاتصال والقتال، فإن الطرف العربي كان يتخبط ويمنع ويحرم من أبسط وسائل الدفاع عن النفس.

حين بدأت طلائع القوات العراقية تصل إلى عمان، في طريقها إلى فلسطين، كانت تستقبل بحرارة وبطريقة احتفالية بالغة الودّ والدلالة، إذ بالإضافة إلى الفرح الذي غمر الناس جميعاً، فقد حاول الكثيرون ترجمة هذا الفرح على شكل دعوات واستقبالات في البيوت والمقاهي والشوارع، وإلى رفض تلقي مقابل للسلع التي يشتريها الجنود، أو الموافقة على تلقي مقابل رمزي، هذا عدا عن نثر الرز والقمح والزهور على الوحدات أينما كانت تمر. كما كانت الابتسامات تمتزج بالدموع في كثير من الحالات تعبيراً عن الأمل والتفاؤل، وابتهاجاً بهذه اللحظات التي انتظرها الناس طويلاً.

أكثر من ذلك بدت الجدَّة في تلك الأيام فخورة أقرب إلى الزهو خاصة حين جاء أحد الأقارب ضمن هذه القوات، وقام بزيارتها.

كان يوم الزيارة حافلاً، بحيث لم يبق أحد في الحي إلا وعرف، ونظر إلى الجدة نظرة اهتمام حافلة بالودّ والتقدير، والجدة التي غرقت بالفخر والارتباك بذلت جهداً كبيراً لإقناع هذا القريب أن يترك فوراً «المسافر خانة» ويحمل أغراضه للإقامة معها، وحين اعتذر، لأن الإجازة قصيرة، لا تتعدى الساعات. ألحت عليه أن يأتي في اليوم التالي للغداء، قالت بإصرار:

-زين.. إذاً ما تقدر تبات عندنا، يابا إسماعيل، باچر تجي وتجيب رَبعك وياك.

ويبتسم واضعاً يده حول فمه، فتتابع الجدة قبل أن تسمع اعتذاره:

- وآني أروح للآمر واترخص منه.

فيرد إسماعيل، وهو يداري حيرته وخجله:

- بيبي ما يصير، لأنا ما ندري شوكت نمشي...

يضحك بقهقهة لكن لا يرفع يده عن فمه، ويتابع:

- ما أقدر أواعدكم، بيبي، لكن إذ هدّونا، إذا انطونا إجازة، ما تشوفوني إلا وأنا طاب عليكم!

- لا يابا...شلون حجي، هذا، أريد أركّب، أريد أسوي لك دولمة، تبسي...

يتغير صوتها وهي تسأل:

- علم الله صار لكم أيام ما حطيتوا الزاد بحلقكم، موها الشكل؟

- شلون يصير، بيبي، ثلاث نوبات ناكل باليوم، وأكلنا هواية زين.

- لعد ليش تبين ضعفان ووجهك مخطوف؟

- من السفر والشموس- بيبي!

- زين.. زين، باچر تجي وتتغدى ويانا.

وبعد قليل:

-مثل ما قلت لك، عيني إسماعيل، تجي وتجيب ربعك وياك، سمعت؟

- بالقرعان ما اقدر بيبي، وعليك الله لا تلحي، خليها على الله!

بعد مناقشة طويلة، تخللتها الأسئلة عن بغداد والأهل، وعن راحته وأكله، مرة أخرى طلبت منه أن يأتي بملابسه لكي تقوم بغسلها.

وهو يشرب الشاي الذي صنعته الجدة باهتمام، وأثناء تقديم الكأس الثانية، قال وهو يبتسم:

- كل شي زين بهذي الديرة إلا الشاي..

تطلعت إليه الجدة باستغراب، فأضاف موضحاً:

- بالقهاوي أبداً ما يعرفون شلون يخدرون الشاي، مو بس هالشكل، فوقها - يقدمونه بالكلاسات!

وضع يده على فمه من جديد، وقهقه ثم أضاف:

- البارحة واحد من جماعتنا، لما جابوا لنا الشاي بالكلاسات، سأل الشايجي: يابا ما عندك ليفة وصابونة؟

ضحك أكثر من قبل، وضحكت الجدة، أما الذين حوله فقد فهموا ولم يفهموا، لكنهم ضحكوا... أيضاً.

لم تنتزع الجدة منه موافقة على وعد الغداء، كل ما قاله إنه سيحاول المرور إذا لم تتحرك قطعته، وإذا حصل على إجازة.

جاء في اليوم التالي بين العصر والغروب، مع اثنين من زملائه. جاء مودعاً، واعتذر حتى عن تناول الشاي، لضيق الوقت. ويبدو أن الجدة قدرت احتمالاً مثل هذا، لذلك هيأت له كمية من «خبز عروق والكليجا»، وما كاد يمد يده مسلماً ومودعاً، حتى جاءته بالزوادة.

قالت وهي تمرر يدها على رأسه وتتمتم:

-محصنين بالرحمان، والله وملائكته تحميكم وتنصركم...

وتغيرت لهجتها:

- صيروا سباع ولدي، ارفعوا روسنا، حتى نفاخر بيكم كل الناس...

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

وتقيدوا زين، ولدي، احموا أرواحكم واحموا بعضكم.

ومع أن زيارات الجدة القليلة في الأحوال العادية، فقد حرصت في هذه الفترة أن تقوم بعدد منها، خاصة وأن الفضول الذي تولد لدى أهل الحي حين رأوا الجنود العراقيين يزورونها وسألوها عنهم، دفعها لأن تتحدث بإسهاب عن أشياء كثيرة، قالت أن هذه القوات مجرد الطلائع. الدفعات الأولى، وستلحقها قوات أخرى كثيرة هكذا أسرّ لها القريب. وأكدت أن أقرباء آخرين له سيصلون إضافة إلى عدد من أبناء المحلة، ومن المحلات الأخرى، كما أكدت أن هؤلاء الجنود أشداء شجعان وأنهم «يُخوّفون الموت»، كما قالت.

لم تكتف بذلك، فقد زارت عدداً من معارفها، وأفاضت في الحديث عما تعرف وعما تتوقع، كانت وهي تتحدث تفعل ذلك بنوع من المباهاة مع إشارات لا تخفى، إن بعض هذه الأمور سرية أو لا يعرف بها الكثيرون وما كانت لتبوح بها لولا الثقة!

وزيادة في تأكيد الدور الجديد أخذت تنزل إلى السوق أكثر مما تفعل عادة، ولا تتردد في سؤال بعض الجنود ما إذا كانوا يعرفون قريبها إسماعيل، الذي هو واحد من هذه القوات ولأن أغلب الذين تسألهم لا يعرفونه، فقد كانت الفرصة مواتية لأن تؤكد لهم أنها من بغداد، وأن لها قريباً معهم، وتتبسط في الحديث وقبل أن تتركهم ترفع يديها إلى السماء طالبة من الله أن ينصرهم.

لو قُدِّر لرغبات الجدة أن تصبح واقعاً، وأن تتحول أمنياتها إلى أوامر لأخذت الأمور مساراً مختلفاً.

إذ بعد أن حل الخامس عشر من أيار، وبدل أن تندفع الجيوش العربية بقوة إلى جبهات الحرب، ضمن خطة محددة وهدف واضح، فقد غرقت في وحول السياسة، وفي متاهات السياسيين.

فالجيش العراقي الذي غادر إلى فلسطين، توقف القسم الأكبر منه فترة طويلة عند الحدود العراقية لكي يستريح ويستعد! أما الطلائع التي وصلت، وكان يفترض أن تتبعها قوات كبيرة، كما أسرّت الجدة للجارات، للكثيرين، فقد نُشرت في مساحة واسعة الأمر الذي جعلها عاجزة عن الهجوم أو الدفاع، مما اضطرها للعودة مجدداً إلى الأراضي الأردنية، وحين جاء إسماعيل مرة أخرى لزيارة الجدة، فقد كان بالغ التأثر:

- بيبي، هدونا بالجول وراحوا، وما نعرف شنو نسوي...

يهز رأسه بحزن ويضيف:

- هسّا يجي الأمر، هسّا يجي الأمر، لكن أبد..

وتغيرت لهجته، أصبحت غاضبة:

- قواويد... أدب سيزيه وين خرايطكم، وين خططكم، وشراح تسووا؟ شمرونا، وقالوا: ستصلكم الأوامر، ونحن ما ندري: يلزم نكون في حالة هجوم؟ في حالة دفاع؟ نتخندق ونتحصن، أو راح نشيل ونمشي!

- هدأ قليلاً ثم تابع:

- بعد ما تهجولنا هنا..هنا، جاءت الأوامر بالانسحاب. قالوا: راح نخش على اليهود من درب ثاني، وهسّا ما يندرى شراح نسوي، وشراح يصير!

- قالت الجدة في محاولة للتخفيف عنه:

- عيني إسماعيل.. لا تنحمق، وهاي الخرابيط منها هواية، وكل الأمور ما ترهم وتصير إلا يواش يواش!

- يعني بعد ما نموت موتة كلاب؟

- بعيد عنك، عيني، لا تفاول!

- لعاد وينهم هذول الترسية التارسين صدورهم نياشين وقالوا: فلسطين نحررها بيومين؟

- الصبر زين عيني، طول بالك

- بيبي، آني ما احچي هذا الحچي لغيرك، أريد أبرد فؤادي.

حصل الشيء ذاته لألف إسماعيل وفي كل الجبهات، مع اختلاف بسيط في التفاصيل، وخلال الفترة التي امتدت من الخامس عشر من أيار إلى الحادي عشر من حزيران تاريخ إعلان الهدنة الأولى سقطت مدن، وقتل الآلاف وتشرد مئات الآلاف. وكان كل ذلك يرى بوضوح في عمان.

فهذه المدينة التي استقبلت آلاف اللاجئين خلال الشهور الماضية، لم تكن مضطربة أو خائفة، بل كان حقدها يزداد، وكانت تنتظر حلول منتصف أيار بلهفة، موعد انسحاب القوات البريطانية من جهة، وموعد دخول الجيوش العربية من جهة ثانية. كانت تعض على آلامها وجروحها وتنتظر، وكان اللاجئون أنفسهم، رغم التعب والمعاناة مملوئين ثقة وتفاؤلاً، انتظاراً لذلك التاريخ، أما الآن، وبعد أن حل، وحمل معه المزيد من الخسائر والفواجع، إذ سقطت مدن، واحتلت أراض واسعة، وتدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الجدد، فقد خيمت حالة من التعاسة وسوء الظن والشكوك.

بدت عمان في نهاية الربيع مليئة بالجروح والمرارة، كما أن الأسئلة التي كانت محرمة في السابق أصبحت وحدها على جميع الألسنة، ووحدها التي يتداولها الناس.

إن هول الصدمة وقسوتها لم يتركا شيئاً كما كان من قبل، لا أحد يصدق ما حصل، الحياة أقرب إلى الكابوس، كل إنسان في حالة من الغضب، الاستياء أقرب إلى السيولة والرخاوة والجنون.

حتى قبول الهدنة كان بذاته صدمة كبيرة، خاصة وأن الطرف الآخر، الذي طلبها وفرضها، لم يتقيد بها من ناحية، إذ استمر بخرقها واحتلال المزيد من الأراضي كما أنه أخذ يستعد إلى أقصى درجة للجولة الجديدة، من ناحية ثانية، كانت تتوالى الأخبار عن الطائرات التي تصل، والكميات الهائلة من الأسلحة التي تحمل إلى المستعمرات، هذا عدا عن عمليات القتل والتهديد. في الوقت الذي تبدو القوات العربية حائرة، تنتقل من مكان إل آخر بعيون زائغة، وبإرادة رخوة، وقد اتضحت خلال هذه الفترة، أكثر من قبل الفروق بين العسكريين والسياسيين، وبدأت تروى قصص كثيرة حول ذلك.

حسن سلامة الذي كان يماثل الحسيني، وكان لا يزال محارباً شعبياً عنيداً، ومختلفاً عن القادة الذين يصرخون كثيراً ولا يفعلون شيئاً، وقد راهن عليه الكثيرون يهوي كالنجم كما هوى قبله عبد القادر، وينكسر شيء في داخل قلوب الناس، أما عبد الرحيم محمود فقد أصبح رمزاً لمقاومة باسلة ويائسة في نفس الوقت، وحين جاء نعيه، فقد قال

الكثيرون: «صدق أبو الطيب ووفى بالوعد، مثل سميه أبو الطيب المتنبي. والشجرة التي ارتوت بدمه لا يمكن أن تموت أو تنتهي... والأيام بيننا!»

والطلبة الذين غرقوا في الاستعداد لامتحانات مبكرة، اكتشفوا الزيف أكثر من أية فترة سابقة، وأحسوا بوجع داخلي لأن الموت المبكر يترصدهم، والذي يحوم فوق رؤوسهم ولذلك أصبحوا أكثر عصبية، وبدرت منهم حركات تنم عن الرفض والتحدي.

بدؤوا يطالبون من جديد بالتجنيد والالتحاق بالمحاربين، أسوة بالشباب اليهود الذي أصبحت قصص تجنيدهم ومشاركتهم على كل لسان.

يتذكر طلبة الكلية الإسلامية ذلك اليوم الربيعي المتأخر حين جاء الضابط معن أبو نوار لاختيار المناسبين للتجنيد، بعد أن تزايدت المطالبة بذلك.

كان ضابطاً شاباً، ورغم الحزم الذي ارتسم على وجهه وتصرفاته، لم يكن معادياً، حتى لما طلب من الراغبين بالتجنيد أن يتقدموا خطوة، بعد أن انتظم الطابور فقد مر على هؤلاء لكي يتأكد من صلاحيتهم، كان بعصاه العسكرية القصيرة يطلب من الكبار، الأقوياء، أن يبقوا متقدمين خطوة، أما الذين تقدموا من الصغار أو أولئك الذين لا يتمتعون باللياقة الجسدية فكان ينقر على صدورهم بعصاه لكي يتراجعوا. فعل ذلك، وبعد أن سُجلت أسماء المقبولين، غادر.

الذين لم يتم اختيارهم كانوا حساداً كباراً، كانوا يتمنون لو أنهم اختيروا أيضاً، لو كانوا ضمن هذه الكوكبة لكن الأمر على الأقل الآن، لا يحتمل أي استئناف ولا يقبل أية مناقشة.

أبلغت الإدارة الذين تم اختيارهم والآخرين أيضاً، أن يستعدوا الآن للامتحان، وحالما تنتهي السنة الدراسية ستبدأ مرحلة جديدة!

الذين اختيروا، والذين تجاوزهم الاختيار، كانوا في حالة من الانفعال والغضب جعلت الجميع يلجؤون إلى التظاهر.

المظاهرة التي قام بها الطلبة بين الهدنتين فريدة من نوعها: فقد حمل الطلبة نعشاً فارغاً، لفوه بالسواد، وظل النعش يدور وينتقل، تعبيراً عن الحزن والاحتجاج إلى أن تلقاه الناس في ساحة الجامع الحسيني فأصبح هذا النعش رمزاً لحالة واحتجاجاً عليها في نفس الوقت، حالة التقاعس والشلل، والمطالبة بتجاوزها.

إن تدوين التفاصيل الكاملة لتلك الأيام الحزينة ضروري لأقصى حد، فمن خلالها نكتشف نقاط الخلل والضعف والخراب، ونعرف كيف هزمنا، ولماذا، وهذا التدوين ليس بقصد جلد النفس والتلذذ بالألم، وإنما محاولة للتجاوز وفهم أعمق للنفس والظروف وللآخر في نفس الوقت.

فإذا كانت الهدنة، أية هدنة، التقاطاً للأنفاس ومحاولة لتلافي النقص، وأيضاً لمعالجة الحالات الإنسانية، فإن هدنة 1948 كانت خديعة كبيرة تضاف إلى مجموع الخدع التي انطلت على العرب، وأدت بهم، بالتالي، إلى المزيد من الضعف والارتباك، وأخيراً إلى الخسارة.

وتتالت بعد ذلك الهزائم، سقطت اللد والرملة، وتم احتلال مناطق تتجاوز بكثير ما كان «مقرراً» في قرار التقسيم، وأصبح الوضع العربي مكشوفاً فباتت فيه الثغرات والندوب والعلل.

وزيادة في الإهانة والتحدي ولإثبات التفوق قامت طائرة بالإغارة على عمان.

جرت الغارة في أواخر الليل، ومثلما كان الناس يخرجون إلى الأسطحة والأماكن المكشوفة في ليالي الخسوف، خرجوا هذه المرة أيضاً، وخرجت معهم الأسلحة القديمة المخبئة، أطلقت كمية كبيرة من الرصاص على الطائرة التي سمع صوتها، لكن لم يرها أحد، واختلف الناس حول المكان الذي ألقت عليه قنابلها، وحول مدى الأضرار والخسائر التي خلّفتها.

خلال الأيام التالية نصبت بعض المدافع المضادة للطائرات في عدة أماكن عند الملعب الصغير قرب اللاسلكي، وغير بعيد عن الحاووز الكبير وعلى بعض التلال المحيطة بعمان، لكن الغارات لم تتكرر!

وانتهت الهدنة الأولى وتجددت الحرب لكن الموقف العربي لم يتغير، وبدأت الهدنة الثانية. واغتيل الكونت برنادوت، الوسيط الدولي. اغتاله اليهود جهاراً، لأنهم اعتبروا الاقتراحات التي قدمها للتسوية، بما فيها إلحاق القدس والنقب بالدولة العربية الفلسطينية غير مقبولة، ولم تستطع الأمم المتحدة أن تفعل شيئاً أكثر من الاحتجاج!

وتوقفت الحرب العربية-الإسرائيلية الأولى، «واستقر» معظم النازحين في عمان. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة شيئاً مختلفاً بمزاجها، بعدد سكانها بامتدادها واتساعها، وأيضاً بحجم القلق والخوف الذي سيطر عليها، لأن هناك أحداثاً حين تقع تجعل الناس يكبرون، بل يهرمون، خلال فترة قصيرة، وربما قياسية، حتى الفتيان الصغار بعد أن وقعت تلك الأحداث غدوا رجالاً تثقلهم الهموم وتملؤهم الأسئلة، الكبار الذين كانوا ملء العين والقلب، تحولوا فجأة إلى أناس حائرين.

لقد خلقت هذه المأساة جروحاً عميقة، وإذا كان بعض هذه الجروح قابلاً للشفاء بمرور الوقت، فإن جروح الروح لا تندمل أبداً. قد تختفي لبعض الوقت، قد تنسى لكنها هناك، في الأعماق، توالي نزفها، فتولد وجعاً كاوياً، وتولد لوعة في الجسد والروح، لا يمكن لهما أن يزولا إلا إذا زال الظلم وصححت الأخطاء وخضعت العلاقات إلى العدل والمنطق ومصلحة الأجيال القادمة.

ففلسطين أكثر من أرض، وأكبر من جيل، وأبعد من مجرد جيوش تتصادم فينتصر جيش ويهزم أخر، إنها لا تعني الذين يسكنون هذه الأرض وحدهم، ولا تتوقف عند حدود من يهزم من؟ أو من أكثر مكراً مِنْ مَنْ؟ كما أن الآخرين البعيدين، الأقوياء، يمكن أن يتدخلوا ليعطوا للأحداث مساراً في وقت من الأوقات، لكن هذا الآخر البعيد القوي الآن، لا يمكن أن يظل المقرر، أو أن يبقى قوياً إلى الأبد، أو أن ينوب عن الآخرين، أو عن حركة الحياة، وقوة التاريخ وعتو الجغرافيا، إن ذلك مستحيل تماماً كاستحالة من يحاول التحكم بالشمس أو بالمد والجزر، أو كمن يريد أن يغير اتجاه الرياح وحركة الأمواج ومواعيد الليل والنهار.

فإذا استطاع اليهود، اعتماداً على التوراة، أن «يخلقوا» وضعاً ويفرضوه مستفيدين من التقدم الذين حصلوا عليه في الأماكن التي سكنوا فيها، ومن العلاقات التي لهم مع «الآخرين» ومستغلين ضعف الطرف الآخر في هذا الصراع، فإن هذا الطرف الضعيف الآن، المذهول، الذي يثقل عليه التخلف وقسوة الأنظمة، لن يبقى ضعيفاً إلى الأبد،

ولن يظل مستسلماً إلى ما لا نهاية، ولن يقوى الحكام على أن يستمروا هكذا، أو أن يفرضوا ما يشاؤون، إضافة إلى أن الطرف العربي يعتمد على حقائق تتجاوز الأوراق القديمة واللفائف، كما لن يخضع أو يستسلم للقوة المسيطرة الآن، أو عند الأمر الواقع المفروض نتيجة هذه القوة.

الجيل الذي ولد في قلب العاصفة قد تحمله رياحها في الاختيار لهذا الاتجاه أو ذاك، وقد تطرح به فيتيه، خاصة وأن جيل الآباء لم يفطن لما كان يدبر، ولم يستعد، لكن الجيل الذي يليه، والجيل الذي سيعقبه، لا بد أن يتوقف ويراجع ويستفيد من أخطاء الذين سبقوه، ومن حقدهم أيضاً، لكي يغير المعادلات ويصحح المسارات، وقد يشعل حروباً كبيرة، كما حصل في أكثر من مكان، وفي أكثر من عصر، نتيجة القسوة والظلم والإهانة، وبالتالي تكون الأجيال القادمة مضطرة لأن تدفع ثمن أخطاء الأجيال التي سبقتها، وبذلك يصبح الدم القانون الذي يحكم المنطقة لأزمان كثيرة قادمة.

إن الأمر الواقع المستند إلى القوة الغاشمة وحدها لا يشكل قانوناً رياضياً، أو أزلياً، كما لا يمكن أن يقاس المستقبل واحتمالاته على ضوء الواقع الراهن وحده، أو نتيجة له، لأن قوانين الحياة: التبدل، والتغير باستمرار ودون توقف، وهذا التبدل والتغير لا يعني بالضرورة، وفوراً، نحو الأحسن، إذ قد يكون المخاض طويلاً وقاسياً، ولكن لا بد من ولادة جديدة، ولا بد من صيغة مختلفة.

لقد مرت أيام كثيرة على أحداث 1948، لكن الآثار التي خلفتها لا يمكن أن تنسى، أكثر من ذلك، ستبقى تتفاعل وتؤثر إلى أن يتم الوصول إلى حلول بعيدة عن الفرض والعسف، وبعيدة عن التزوير وصفقات الظلام والسمسرة، لأن الإنسان، أي إنسان، أعجز من أن يستطيع تغيير الجغرافيا والتاريخ، والقوة وحدها لا يمكن أن تديم الأمر الواقع، كما أن القوة ذاتها لا تدوم لنفس الجهة وبنفس المقدار.

قد يكون هذا حكم قيمة أو استنتاجاً مستنداً إلى القيم المعنوية والشعور بالظلم، وبالتالي ترحيل القضايا من الجيل الحالي إلى الأجيال القادمة.

إن استنتاجاً من هذا النوع، أو الخضوع إلى منطق الآلية والتكرار لا يؤدي إلى نتيجة دون فعل الإنسان، شرط أن يكون هذا الفعل منسجماً مع الحركة الكلية للأشياء وقوانينها الفاعلة.

دللت الوقائع أن أحد أهم التحديات، والتي تؤدي إلى مقتل، اعتبار الحقيقة الجزئية حقيقة كلية، واعتبار لحظة بمفردها تلخيصاً للزمن، والاعتماد على عنصر واحد في قراءة التطور أو تحديد اتجاهه وحركته الكلية، الأمر الذي يؤدي إلى سيادة الجزئي والمؤقت والعارض، وتأجيل المشكلة، لا الوصول إلى حلول حقيقية ودائمة لها.

ولأن الحياة لا تعرف التوقف أو الثبات، وهي شديدة الحركة والتغير والتنوع، فإن الهموم والمشاكل والتحديات والطموحات، وأيضاً الرغبات، إضافة إلى الأحلام، تظل تفعل وتحرك وتغير، كا تظل تدفع إلى البحث للوصول إلى صيغة أكثر قوة وعدلاً وتلبية للوقائع والحقائق المادية، وصولاً إلى اختصار جزء من الآلام الكامنة في الصيغة الراهنة◆

سيرة مدينة (ص233-243)

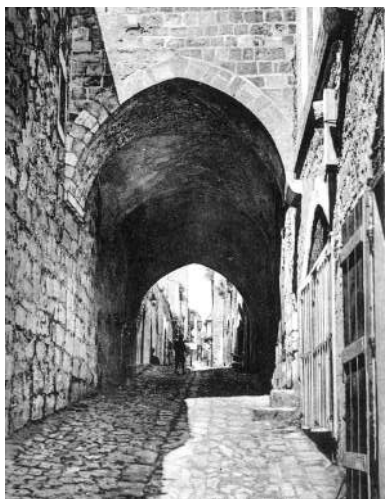

القــدس
مدينـة التيـه التي لا تُؤسر

فاروق يوسف

القدس المدينة المكان ليست سوى واحدة من الصور التي تشي بتجليات الفكرة الإلهية: المادة التي تخرج حية من الروح «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي». هذا التبادل النقي والمتسامي ما بين عالمين لا يمت أحدهما بصلة إلى الآخر هو ما يهب القدس صفة البوابة التي ترتج باستمرار بتأثير الهواء الذي تحركه أصوات أجنحة الملائكة. هي ذي مدينة لا تقع على الأرض، بل هي تقع أحيانا على طريق النبوءة التي لا تحكمها الصدفة. القرار الغامض الذي يلحقها بلغز فطرتها المنغم مثل حجر مضيء. ما من مدينة على الأرض يمكنها أن تتحمل هذا التقاطع الكوني بين بروق النبوات مثلما فعلت القدس. قدرها أن يمر بها الأنبياء، حتى أولئك الذين ولدوا بعيدا عنها ولم تشغلهم أحوال سكانها أو مراثيها. من وصلت به أقدامه إليها ومن حطت به أجنحة البراق على صخرتها ومن عاد بندم أخوته إلى أبيه الأعمى. شيء من عطرها لابد أن يعلق بأفواه الأنبياء لكي تكون النبوة كاملة. «ليس من بعير ضائع إلا في الطريق إليها» كان من الحكمة أن نتلهف شوقا لرؤية ذلك البعير الضائع.

نوع من المزاج الثقافي الساحر أحكم الطوق على نبرة التيه لكي تكون تلك النبرة شاهداً على صدق المعنى الملتبس. ألم يذهب المخلص إلى معابدها مستفهماً؟ كان لديه ما يقوله مستلهماً عباراتها الصامتة، موسيقى حنوها، وذهول أباطرتها. ليت القسوة عثرت على مكان آخر، لكي تخلص القدس إلى معدنها: إيلياء التي فتحت أبوابها للجميع؛ غزاة وفاتحين، أصحاب رؤى ومتسولين، أقداماً حائرة وعقولاً تبحث عن الخبر.

• • •

أحقا كانت هناك؟ هل أدخلت في الحكاية عنوة لكي تكون موجودة في السلام؟ «وتحيتهم فيها سلام» كان السلام حصراً عليها من قبل أن تكون الحرب. من يصدق أن مدينتين اختصتا بالسلام لحق بهما من الخراب واليتم والوحشة والعزلة ما لم يلحق بسواهما من المدن. لن تكون بغداد نوعاً من القدس إلا في مصيرها. ملكة الجهات الثلاث ترى إلى عرشها المحاط بالماء وقد غزته الأفاعي. صورة المنفى كاملة كما لو أنها كتاب مقدس، لا تمحى سطوره حتى لو أغرقت بمياه المحيطات. حبرها السري يطعن في هذيانه كلما حاولت المياه تهذيب شعائره. الملكة تسترسل في غسّل دروبها بالماء والخمر والعسل واللبن لكي لا يلوث شيء من غبارها أقدام الأنبياء القادمين فجأة. كانت هناك دائما في صفتها حاجة للملائكة قبل البشر. لن يخترع المرء صفة لمكان هو في حقيقته نوع من المتخيل الذي تلوذ به الملائكة في المسافة التي تفصل بين غيابين. ذلك الإنسان المقدسي كيف يمكنه أن يصنف نفسه، بشرا أم ملاكاً؟ لا مشكلة للأنبياء في ذلك. الأمر يكاد يكون محسوماً بعناية إلهية. ولكن ألا يحق لنا جميعاً أن نكون مقدسيين وقد ازدهر ذهب الأقصى بين أوتار حناجرنا؟ يحتاج المقدسي إلى أفكار الملاك عن حضوره لكي يكون إنسياً وإلى أفكار الإنسان عن غيابه لكي يكون ملائكياً. بين الملاك والإنسان حوار لم ينته بعد.

• • •

قيل لي هي ذي أضواء القدس. من غور الأردن في ليل صافٍ كنت أرى كل شيء أمامي لولا تلك الجملة التي ملأت عيني بدموع الضعف. صارت الإسطوانة تدور في رأسي (مريت بالشوارع). يمكنها أن تكون مكاناً إذن؟ المدينة التي لا تخطئ طريقها إلى خطوات الأنبياء. تضع قدمك على الموقع عينه الذي وضع أحد الأنبياء قدمه عليه. كيف لا تنتقل إليك العدوى؟ عبر التاريخ صار الإلهام موهبة شبت نيرانها بثياب المقدسيين. أروقة القدس العتيقة تؤدي إلى البلاد التي هي نوع من الحكاية: ليت الكتب المقدسة رحمتها قليلاً. شغف الأنبياء بها وضعها في قلب الحقيقة. أن تكون نبياً معناه أن تترجم وجودك مقدسياً. ألا يعني ذلك حق النبوة المتاح لكل مقدسي؟ صرت أرى الأنبياء وهم يزهدون بالحقيقة طمعاً بما يلحق بها. القدس هي حقيقة الحقائق. ما قبلها وما بعدها ليسا سوى ظلالاً لفتنتها. في اللحظة ذاتها حين نظرت بعينين مليئتين بالضباب كانت القدس وديعة اللحظة التي يشتبك الخالق فيها بفكرته عن خلائقه. كنت أسعى إلى اختراع عذر للبكاء يتشبه بذلك السبب الذي يسوّغ الخلق. كنت وحيداً إلى الدرجة التي مكنتني من تخيل وحدة الإله قبل أن يخلق بشره الفانين. وحدها القدس في إمكانها أن تشعر المرء بوحدة من هذا النوع. المدينة التي لا تُمس. المنسية كما لو

أنها لم تُخلق بعد. الشغب كله والشغف كله. ترابها الذي يعج بأصوات الملائكة. والرماد الذي يخبئ جمرة وحيدة، هي الجمرة الأخيرة التي تندلع منها نار القيامة. يعنيني أن أصدق كل شيء إلا أن تكون القدس مكاناً غير متاح. ما الذي يحدث لو أن أحد الأنبياء فكر في العودة إليها؟ ألم ينس فيها أحدهم شيئاً ما؟ جواز سفره إلى السماء السابعة مثلاً.

• • •

خيال القدس أكبر من أن يترجم. مرّ الجميع بها من غير أن تنبت لغاتهم المدنية على أسقف كنائسها. المدينة التي لا عقل لها لم يكن يعنيها أن تنتفع بأحد. كان ضميرها يحيط بحضارة هي أشبه بالإبرة التي يخترق لمعانها الوجود. كوكب لا يعترف إلا بنزاهة أخلاقه. كانت امتحاناً لدراية البشر بمستوى إنسانيتهم ودربتهم، تحضّرهم وبربريتهم، نزاهتهم وفسادهم، علوهم وانحطاطهم. الكلمة الأخرى التي يمكن من خلالها تفسير الجملة التي سبقتها. ليس خيال القدس تفسيرا لما قبله ولا هو عذر لما يلحق به. إنه الصوت الذي يتحقق من أصالة رؤاه من خلال عزلته. الطبيعة تفرض قوانينها، القدس مدينة عزلها قدرها النبوئي عن العالم. هي مدينة أخرى دائما. عصية التصنيف. كانت كذلك وستبقى كذلك دائما. في إمكان خيالها أن ينتصر على كل مزحة ثقيلة. يحجّ إليها العالم كله من غير أن تشعره بالواجب. خفتها تحمي مشاعر الآخرين من الندم. لقد ارتكبت البشرية آثاما بحق القدس لو أنها ارتكبت بحق مدينة أخرى لطلبت تلك المدينة من البشرية كلها أن تأتي إليها زاحفة تعبيرا عن شعورها بالذنب، ولكن القدس ليست مدينة، إنها يد الرب وقد ملئت رحمة.

«أدعوكم إلي، كلكم من غير استثناء». سأصبر قليلا لأمشي بين الجموع. الخراف لا تكذب. النايات هي الأخرى لا تكذب. ولكن البشر وحدهم يكذبون. ظل اللغة ليس اللغة تماما. اللغة نفسها تحتمي بما يثير شهوتها. كان الأنبياء يمشون بين أزقتها مثلما يفعل مجانين كل عصر ذهبي. في ذلك الزمن لم يكن هناك مجانين. كانت القوة للإلهام وحده. وكانت القدس وحيدة. هي وليدة الكلام الذي يلهم. حين يصمت الوحي تكون في حيرة من أمرها. إبراهيم السومري ومحمد العربي اكتملت نبوتهما بها. ولكن كيف؟ القدس هي عاصمة الأبد. هي المدينة التي لن يتمكن منها الزوال. لو أن جلجامش اهتدى إليها لكف عن بحثه عن عشبة الخلود. الطريق إلى الله سالكة من خلالها. هذا ما أكدته تجربة النبي العربي لاحقا. الملك السومري سبق الأنبياء في تيهه، لذلك لم يهتد إلى القدس بالرغم من أنه كان يسعى قريبا منها. أبو الأنبياء ذهب إليها وفي صدره شيء منها، شيء يشي بها ويقربه منها. كانت خارطة نبوته نوعا من التأسيس لمشيئة قدر استثنائي في استبساله: هي ذي المنطقة التي ستكون مصدرا للعقائد. وكانت القدس هي قلب ذلك الكنز. «هل جئنا متأخرين؟» لا أظن أن أحدا لم يسأل نفسه هذا السؤال وهو يرى مدينة تقترح الكمال جزءاً من أجندة وجودها. هي دعوة لكي يكون المرء موجوداً في قلب السؤال. لن يكون القلق بلا معنى. الحج إلى القدس هو نوع من السؤال. أتذكر أن حجيجنا العراقيين كانوا يمرون بالقدس قبل أن يتوجهوا إلى مكة. لم يكن الحج إلى مكة ليكتمل من غير المرور بالقدس. شعيرة نسيها الكثيرون في هذا الزمن العصيب. سوء الحظ وحده يجعلنا نعيش عصر بداهة مختلفة. وهو ما يجعلنا نكتشف أن القدس مدينة محتلة. وهو ما لا يمكن أن يستقيم ومعادلة وجودها. المدينة التي قدر لها أن تكون ميزانا. البشرية إذا في خطر.

الكلمة الأخيرة لها. ليست لها صورة واحدة. هي مجموعة صورها الافتراضية التي تخترق العصور. سيرتها الموجعة والشاسعة جعلتها رمزا وأقسى ما يمكن أن توصف به مدينة أنها رمز، فالمدن كلها تحلم بأن تكون مكانا رحيما للعيش اليومي. رمزية القدس مستلهمة من قدرتها على أن تكون مائدة مفتوحة يجلس حولها بشر قدر لهم أن يكونوا مختلفين. مثل أبوابها، كل باب هو نداء لهبة بعينها: الرحمة والسكينة والتوبة والبراق. مثل طريق الآلام يلهم كل دروبها غبطة العيش على الحافات. مثل قبابها التي تلهم العين حفريات بصرية تذهب بها إلى أعماق منجم التعبير عن ذات مطلقة. كانت ولا تزال على مر العصور عنوانا للخلق. مثل براريها التي تهب السماء لون زعترها البري. مثل وديانها التي يقتفي الندى فيها آثار خطوات الغرباء العابرين إلى مسراتها. القدس لا هيئة لها، كل الصور الأيقونية في إمكانها أن ترتجل شيئا منها، شيئا يكون على صلة بمعناها المؤجل. المدينة التي ينتظرها الجميع لم تكن يوما ما تنتظر أحدا. كل الأديان زحفت إليها لتبصر في مرآتها شيئا من نقائها. كل الأنبياء عبروا الفيافي إليها لتهب كلماتهم شيئا من فصاحة لسانها. كل المحاربين استبسلوا من أجل الوصول إليها ليتطهروا بمياه آبارها من آثامهم. لولا أن الكلمة الأخيرة لها لكانت القيامة قد سبقتنا إلى العرش. لن تكون الملائكة مسرورة حتى ترى تلك العذراء بثيابها البيضاء وقد أومأت بهمسٍ للسماء أن استعدي لاستقبال الأمانة وللأرض أن أستعدي لاستقبال الأصوات التي تثمر أجنحة تسيل برقة العسل. حينها تفيض المحبة، وتتكئ المرأة الوحيدة على جذع من النخل وهي تشعر بالاطمئنان. سيعود ابنها ملكاً. لن يكون هناك هتاف إلا من أجل الرحمن الذي استعاد مدينته. هذه المرة لن يسيء أحد إليه. العالم كله ملك يديه ما دامت مدينته محررة◆

مـوســـــم زيارتي للقدس وما حولها

محمد شاهين

كنت في الثالثة عشرة تقريباً عندما تيسرت لي سبل الزيارة الأولى للقدس. اصطحبت سائق شاحنة تنقل العنب من مسقط رأسي حلحول إلى القدس. فالمعروف أن ما يرزق الله حلحول من عنب في موسم الصيف يفيض عن حاجة جبل الخليل بأكمله. ويبقى تسويقه حاجة ملحة تتطلبها ضرورات العيش. وكانت أسواق القدس (تليها أسواق عمان) صاحبة الأولوية. استطعت أن أقنع أبا عزمي، سائق الشاحنة التي تنقل البضاعة في صناديق خشبية، أن ينقلني معه وكأني جزءً من البضاعة المحمولة على ظهر الشاحنة. الفرق فقط أنني أجلس في مقدمة الشاحنة. ماذا أقول لوالدك لو سألني عن الموضوع؟ سألني أبو عزمي مبدياً تحفظه على سفري معه. أنت أدرى، قل له ما شئت، كانت إجابتي. وانتهى الأمر، وصعدت سلم الشاحنة المعوج وتوجهنا عبر طريق وادي النار الذي كان المنفذ الوحيد إلى القدس بعد حرب 1948 مباشرة، ثم تغير بعدها إلى طريق أقصر قليلاً في منتصف الخمسينات، أي أن الطريقين كانا بديلين للطريق القصيرة جداً من بيت لحم إلى القدس والتي أصبحت في قبضة الاحتلال.

*المدخل الرئيسي لدار المعلمين الريفية – بيت حنينا– القدس.

وصلنا القدس قبيل مغيب الشمس. تركت الشاحنة تفرغ حمولتها في الحسبة (سوق الخضار والفواكه) وبدأت أتجوّل في المدينة. أقرب معلم لي كان باب الساهرة، تمشيت في الأزقة الضيقة التي تقوم على جوانبها بيوت قديمة رشيقة، آثر أصحابها الحفاظ على استمرار الحياة فيها وكأن عبق التاريخ أصبح سيرورة حياتهم التي يمكن استشعارها من الحديث الذي يصل آذان المارة من داخل هذه البيوت. فالأزقة الملاصقة تماماً للبيوت لا تشكل حاجزاً يحرم قاطنيها من حريتهم في الحديث عن أي موضوع ولو بصوت مرتفع في بعض الأحيان.

فجأة وجدت نفسي في بهو المسجد الأقصى وقبة الصخرة. فرحة كبيرة أن أجد نفسي وجهاً لوجه أمام معلمين قرأت عنهما في الصفوف الابتدائية. صليت عدداً من الركعات ودعوت وتمنيت الكثير الكثير. فرصة لن تعوّض. في الركعة الأخيرة وجدت نفسي أقرأ «قل هو الله أحد» «لن يصدقني أحد». تداركت الخطأ على الفور. لكني أدركت فيما بعد أن مصدر الخطأ نجم عن شرود ذهنٍ قادني إلى الاعتقاد أن الناس لن يصدقوني عندما أروي لهم أنني وصلت هذا المكان.

سلكت طريقاً مغايراً للطريق الذي جئت منه أملاً في التعرف على المزيد من معالم المدينة. تملكني شعور أن المدينة تهدي زائريها وأن الضياع فيها مستحيل وأن كل الطرق تؤدي في النهاية إلى المسجد الأقصى والصخرة وتتفرع منه إلى أبواب المدينة المختلفة. تسلحت بالعبارة التي تعلمتها في المدرسة ورغبت في تطويرها: من سار على دربك يا قدس وصل.

وصلت باب العامود بقليل من المشقة. استقبلني هواؤه الرطب الذي يستقبل الزائرين وكأنه مبرد هواء رباني. نظرت إلى أعلى السور. جنود الجيش العربي في حالة حراسة. علمت أنه يمنع تسلق السور. نظرت غرباً. عمارة أصابتها قنابل الحرب عام 1948 تدعى نوتردام (لم أستطع لفظها من المرة الأولى) تشهد على أن معركة مع العدو قامت هنا. مشيت بمحاذاة السور الهشّ الذي يفصلنا عن الآخر. خلفه منطقة حرام يمنع الوصول إليها منذ حطت الحرب أوزارها. واصلت السير بمحاذاة ذلك الحاجز بيننا وبينهم إلى أن وصلت ما يسمى بوابة مندلبوم. كانت الباصات تسير مسرعة بمحاذاة السور متوجهة شمالاً إلى رام الله ونابلس. البيوت الجميلة المسقوفة بالقرميد في بداية الشيخ جراح كانت تثير دهشتي إذ إنني اعتقدت أن مياه الشتاء تخترقها وذلك لجهل مني بطبيعة القرميد واستخدامه، فلم يكن هنالك بيت واحد في الخليل وضواحيها يستخدم القرميد آنذاك!

عدت إلى المقر، إلى الحسبة، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله. بحثت عن بعض صناديق الخشب الفارغة في عمق الحاصل، كما يسمونه، وعملت منها سريراً آوي إليه بعض ساعات الليل، وكان أبو عزمي قد أعارني بطانية. كانت أضواء كشافات الكهرباء التي لم أعتد عليها من قبل تحول بيني وبين النوم، واكتفيت بإغماض عيني والاسترخاء. يبدأ العمل الجاد في السوق بعيد صلاة الصبح، إذ يحضر التجار لمعاينة البضاعة ويجري حديث طويل أو قصير مع صاحب الحاصل حول سعر الصناديق المتراصفة أمام المحل، وتتم الصفقة، وبقدرة قادر تختفي أكوام الصناديق من باب المحل بعد أن يأخذ كل صاحب نصيب نصيبه من البضاعة. وقبل أن تسطع شمس الضحى يكون الأمر منتهياً. يأتي بعد ذلك باعة الزوادة يحملون طبليات كعك السمسم

والخبز والبيض والزعتر والكبّة التي كنت أجهلها، وما إلى ذلك. تزودت بما تيسر، ثم استأذنت أبا عزمي أن أغيب عنه ساعة أو بعض ساعة لأعيد التجوال في المدينة قبل شروعنا بالعودة. تمشيت من باب الساهرة إلى باب العامود غرباً. أدهشني ازدحام المدينة صباحاً وأيقنت أنها مدينة أخرى في وضح النهار. أطياف آدمية مختلفة في لباسها (حتى رجال الدين) ولونها وشكلها ولغتها. متحف آدمي متحرك يجوب المدينة. حتى الباحة الخارجية لباب العامود وجدتها مفروشة بسلال الفواكه والخضار الطازجة التي قدمت بها القرويات من ضواحي القدس وكأن الباحة تحولت إلى سوق مصغر للسوق الكبير. منظره يسر الناظر من بعيد وهو يرى الخير مبسوطاً وكأنه معرض صباحي لا نهاية له. وترى الناس يندفعون بشوق إلى داخل المدينة من باب العمود ويخرجون منه منتشين ببركات التاريخ وقدسية المدينة.

عدت، كما قدمت، في معية أبي عزمي، محملاً بدهشة يؤرقني عدم قدرتي على التعبير عنها بكلمات. كانت إحساساً ساكناً فاتناً مكبّلاً في الأعماق، يطفو على السطح أحياناً دون قدرة على الانطلاق. لكني أدركت فيما بعد وعندما توفرت لدي قوة التعبير أن زيارة القدس هذه كان لها أثر واضح في امتصاص جزء من الشعور بالانكسار الذي تكوّن لدي ولدى بقية الخلق في السنوات التي تلت الحرب مباشرة. إذ انقضت أيام صباي الأولى وأنا أستمع إلى قصص من شهود عيان تتحدث عن مهزلة النكبة أكثر من مأساتها. بعض هؤلاء الشهود روى كيف أن قذائف المدفعية المصرية كانت تصيب الطائرة دون أن تلحق بها أذى في معركة الفالوجة. آخرون رووا كيف أن الرشاش يتحول في يدي المدافع المصري إلى لهب من النار مباشرة بعد إطلاق عيارات قليلة. أما الحديث عن «ماكو أوامر» في معركة جنين فكنت أسمعه كثيراً، دون أن أعي معنى الكلمة الأولى! إلى آخر ذلك من قصص موجعة ضاع من خلالها الوطن.

تساءلت ونحن نصعد طريق جبل النار، والشاحنة تسير مثل السلحفاة، لو استطعت أن أنقل لوالدي مشاعري الكامنة هل كان بالإمكان أن يخفف عني العقوبة – عقوبة زيارتي للقدس دون إذن مسبق منه؟ تركت الجواب معلقاً في الهواء دون أن أعذب نفسي بالبحث عن جواب يقطع الشك المؤرق بيقين وهمي.

لم يفاجئني تجهم وجه والدي عندما قابلته في المساء وكنت مستسلماً لاستقبال توبيخ قوي من لسانه الذرب. كان من عادته أن يستبق الحديث بصمت قصير. اغتنمت فرصة الوقت الضائع وبادرت بالقول: هل تعلم يا والدي أن القدس تختلف عن الخليل بل وعن العالم؟ ابتسامته الخفيفة لم تشعرني بالأمان فاستطردت قائلاً: إنها مدينة عظيمة جميلة ترحب بالزائر من كل مكان ومن كل سن، وقبل أن أقول أكثر قاطعني وقال: هل تريد يا ولدي أن تعرفني على القدس؟ لقد عرفتها قبل أن تخلق. أستطيع أن أجوبها وأنا مغمض العينين دون أن أضلّ الطريق. ألا تعلم أن قدميّ حفيتا لكثرة ما مشيت فيها. سنوات طويلة وأنا أقود الجمّالة (جمع جمّال) وجمالهم تحمل البضاعة وتنقلها إلى القدس. نحن (والإشارة هنا إلى والده، جدّي) أول من زرع البندورة (الطماطم) في فلسطين. وكانت بضاعتنا تلقى استقبالاً منقطع النظير من الأطياف المختلفة التي تقطن القدس. كانت الرحلة تستغرق يوماً أو بعض يوم ولم تكن الطريق معبّدة آنذاك.

لكنها كانت يا ولدي أياماً جميلة. كانت فلسطين كلها لنا، لم تكن قصتنا مع اليهود قد اتخذت هذا المنحدر. قصّ علي والدي (وكان قاصاً بامتياز عشت وأنا أتحسر على أنني لم أمتلك شيئاً من تلك القدرة) الكثير من القصص، لو كنت على وعي بقيمة الموضوع آنذاك لعملت على الاحتفاظ بتلك القصص أو ببعضها على الأقل، لكني كنت مهتماً في تلك اللحظة بألّا تضيع قصة زيارتي في قصصه وألا تعود قضية!

كما أنني تجنبت مقاطعته رغم كل ما كان لدي من استفسارات، كي لا ينقلب السحر على الساحر ويتحول عن قصصه إلى قصتي. وبالفعل ذابت معالم قصتي في قصصه التي كان يرويها بنوستالجيا مؤلمة. مشعلاً السيجارة تلو الأخرى من التبغ المحلي (الهيشي) ذي الرائحة المنفرة. وبعد ساعات انفك الارتباط بين الراوي والمروي عليه وانصرف كل إلى شأنه يحلم بالقدس على طريقته الخاصة. أيقنت أن الدعاء في المسجد الأقصى قد تحقق مفعوله!

أما القصة التي ما زالت تستوقفني والتي لسوء الحظ لم أتحرّ صحتها فهي قصة الساعة. ذكر والدي أكثر من مرة أن ساعة بيغ بن التي نسمع دقاتها في هيئة الإذاعة البريطانية هي في الأصل ساعة جلبها الأتراك من مكان ما، ربما من إحدى دول أوروبا الشرقية ووضعوها في البقعة، أو جورة العنّاب أو البصّة، لا أذكر تماماً، من أحياء القدس الغربية وسرقها الإنجليز بعيد دخولهم فلسطين. كان يحلو لوالدي أن يذكر هذه القصة كلما سمع دقات بيغ بن!

بعد ما يقرب من عامين انتقلت إلى مدرسة الخليل الثانوية –الحسين بن علي- وكم كانت تغريني المقارنة بين القدس والخليل، ليس من قبيل التفضيل، بل من قبيل الاختلاف، مجرد الاختلاف، الأشياء في القدس في حالة حركة، وهي في الخليل في حالة سكون، تخيلت أن سيدنا إبراهيم عليه السلام اختار أن يكون ضريحه في الخليل لأنها آخر ما عمّر الله. وتخيلت وأنا أمر بالسهلة، مقبرة المدينة أنها تذكر العباد بيوم الحشر حيث يلتقي الأحياء والأموات في مكان. أما الكرنتينة، المركز الصحي للمدينة، الذي يطل على السهلة، فكنت أظنه حداً لا حد وراءه. كذلك بدا لي سوق الحلال أو الجمعة الذي يقع بعد بركة السلطان، أنه المكان الذي يلمّ شمل البشر والحيوان ولو ليوم واحد وكأنه هو الآخر يذكر بيوم الحشر. لكن هذا السكون يتبدد في فصل الصيف من خلال الموسم الزراعي، إذ تدبّ الحياة في أهل المدينة وقراها، وتتحول الخليل إلى قرية كبيرة تجمع قراها وما حولها. ورغم اختلاف اللهجة مثلاً إلا أنها تشاطر القرى المجاورة، (وخصوصاً حلحول التي تعدّ امتداداً جغرافياً لها من جهة الجنوب)، حبها واعتمادها على الزراعة في الدرجة الأولى.

لا يوجد مكان في العالم تجد شجرة الكرمة فيه عزّها أكثر مما تجده في الخليل وحلحول، أما مذاق ثمارها فلا يحتاج إلى شهادة. إنه متميز. كان محمود درويش يقول عند عودته من رام الله إلى عمان في موسم الصيف إن أهم إنجازاته أنه شبع من عنب الخليل. والمعروف أن أهم طقس من طقوس الخليل هو الانتقال في موسم الصيف من بيوت المدينة إلى حقول العنب، حيث يقضي الناس أغلب أيام الصيف في العُروش التي يبنيها الناس من جذوع أشجار الكرمة. هنالك قصة أصبحت متداولة في منطقة الخليل وخارجها، وهي لسوء الحظ تروى بدون وعي كامل بمغزاها الحقيقي.

القصة هي أن نفراً من الإسرائيليين مروا بمزارع خليلي يحرث الأرض بالقرب من «جورة بحلص» في الخليل وسألوه عن شعوره بالوضع الجديد بعد الاحتلال 1967 فأجاب: الوضع كما ترونني فيه الآن. وكيف ذلك؟ أنا الآن أحرث الأرض، قبلي حرثها أبي أثناء وحدة الضفتين، وقبلها حرثها جدي عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وقبل ذلك حرثها جد جدي أثناء حكم الأتراك وبقي يسير في هذا التسلسل إلى أن توقف عند الجد العاشر من حارثي الأرض حسب معرفته. شعار الخليلي الأرض أولاً. أما القصة الأخرى المعروفة فهي أن البابا في الستينات الماضية (وربما كان البابا واجهة)عرض على صاحب عمارة هندية (نسبة إلى صاحبها هنديّة وهو خليلي يقيم في القدس) المقابلة لباب العامود مبلغاً خيالياً لشرائها، وذلك بعد زيارته القدس مباشرة. أجاب هندية أنها ليست للبيع حتى لو وزن حجارتها ذهباً. ليت موقف صاحب مرج بن عامر كان كذلك! الخليلي رغم كل ما يشوب حياته من سكون ومحافظة شخص يشعرك أنه يمثّل الفلسطيني الذي ينبت من ثرى أرضه. الخليلي في أرضه يذكرنا بكلمات الراوي عند جبرا: «الأرض الأرض هي السرّ في حياتك... ستجرّك الأرض إليها من جديد مهما فعلت، أينما ذهبت...» .

كانت آثار الانكسار وأنا في مدرسة الحسين، ما زالت عالقة في نفسي. ذات صباح أفقت وقد تملكني شعور بأن أموراً كثيرة متساوية في الحياة، وأصبحت لا أجد فرقاً بين أن أكون في المدرسة أو خارجها، أن أكون راعياً مثل جارنا علي شعبان أو أن أكون في المدرسة، أن أكون مزارعاً مثل السواد الأعظم في القرية أو أن أكون في المدرسة. وكنت لا أوافق أخي الأكبر وهو يحثني على الاهتمام بالمدرسة قائلاً انظر إلى مصطفى الحوراني جارنا الذي يعمل مدرساً في مدرسة القرية فلولا أنه حاصل على شهادة المترك لما تيسرت له سبل العيش. لم يستطع أن يحمل أرضه في المسمية إلى هنا عند اللجوء، أما الشهادة فقد حملها في جيبه. وهذا ما حصل مع أصحاب البيارات في يافا، أليس كذلك؟ لسبب أو لآخر، لم يقنعني كلامه أبداً. أما والدتي فقد صعقت عندما قلت لها إنني غير ذاهب إلى المدرسة منذ هذا اليوم – وكان يوم النشاط الرياضي. قامت على الفور وملأت شنطتي بالكتب التي انتشرت في أنحاء الغرفة مع أنني لست بحاجة إلى أي كتاب في ذلك اليوم، ثم أحضرت ما استطاعت إحضاره من زوّادة أتزود بها في ذلك اليوم واصطحبتني إلى المدرسة. كنت لا أعصي لها أمراً. بقيت تنتظرني خارج سور المدرسة. كانت الفقرة الأولى في برنامج اليوم الرياضي موسيقى القِرَب الاسكوتلندية عزفتها فرقة الجيش العربي الأردني. طربت أيما طرب. لا أذكر مناسبة أدخلت على قلبي السرور مثل تلك المناسبة. ردة الفعل عندي كانت أن المدرسة جيدة. لو لم أكن في المدرسة، قلت في نفسي، لما توفر لدي هذا الامتياز.

انتهى اليوم الرياضي. أخبرت والدتي التي كانت تنتظرني طيلة هذه المدة أنني لن أترك المدرسة أبداً ولم أجد حاجة للدخول في التفاصيل التي لا تعنيها. وعدنا إلى البيت فرحين بالتسوية. شكراً لموسيقى القرب وعازفيها.

كان سرورنا: أنا ووالدتي ووالدي عظيماً عندما علمنا أنني من بين من اختارتهم وزارة التربية والتعليم للالتحاق بدار المعلمين الريفية في بيت حنينا في القدس. موسم هجرتي إلى الشمال الذي بقيت أحلم به منذ تلك الزيارة قد ابتدأ يأخذ طريقه.

اصطحبني والدي إلى دار المعلمين الريفية وكأنه اختار أن يكافئني على حصولي على ما كان يسمى بعثة داخلية في المعاهد العليا في المملكة. بل إنه زاد على ذلك عندما اختار أن تكون وسيلة النقل مركبة تكسي. وصلنا القدس. كان من الطبيعي أن تكسو الكآبة وجه والدي. القدس التي كنت أتمنى أن نراها يا ولدي تقبع أسيرة خلف الأسوار. كنا نصل إليها عن طريق باب الخليل في الجهة الجنوبية الغربية من السور لنصل إلى البقعة والمصرارة والبصّة. كظم غيظه (وهو كاظم غيظ بامتياز) وواصلنا السير إلى بيت حنينا. مبنى أنيق جداً من طابقين على شكل قباب بناه عبد الحميد شومان ليكون شبه بديل للكلية العربية في جبل المكبر، التي أضحت تحت الاحتلال بعد حرب 1948. إلى الغرب من المبنى منزل ضخم أعد للسكن الداخلي الذي يتطلب من كل طالب أن يقيم فيه على مدى العامين الدراسيين. أودع والدي ولده في المبنى وعاد من حيث أتى راضياً عنه مسترضياً عليه. يهدف برنامج الدراسة في الدار إلى إعداد معلم ريفي ينهض بعد التخرج بمهمات تنموية: مرشد زراعي، اجتماعي إلى آخر ذلك، بالإضافة إلى مهمته الرئيسية كمعلم. والمنهج امتداد لمركز التربية الأساسية في سرس الليان بمصر. يتم اختيار الطلاب فيها من مختلف مدارس مدن المملكة وقراها، وهي تجربة فريدة من ناحية اجتماعية قومية تسترعي الانتباه. كان تدريبنا يتم في القرى المجاورة: حزما، جبع، عناتا، الرام وعدد آخر من القرى المجاورة.

كثيرة هي الذكريات التي خلفتها تلك التجربة. أذكر اثنتين منها على سبيل المثال. ذات ليلة رأيت في المنام أن جدتي لوالدي تطالبني أن أصلي نيابة عنها في المسجد الأقصى. لست أدري كيف ظننت أن الأمر عاجل، ولا يحتمل الانتظار إلى يوم الجمعة. جنّدت اثنين من رفاقي المقربين: سامي صوالحة ويوسف الحايك. ذهبنا إلى القدس، وكان في ذلك مخالفة للنظام الذي ينبغي ألا يتعدى الطلاب في الأيام العادية حدود مساحة الدار الواسعة. فقط يوم الجمعة يطلق سراح الجميع في الحركة الحرة.

في القدس توقفنا عند حلويات جعفر، من بين الطقوس التي كان يحلو لطلاب الدار ممارستها ولكن فقط يوم الجمعة، اليوم الحر، ثم ذهبنا إلى المسجد الأقصى. صليت على عجل عدداً من الركعات. وعدنا مسرعين آملين ألا يعلم بمخالفتنا أحد. غير أننا وصلنا وقد خرج الطلاب من القاعة المعدة لتناول العشاء. لقد نسينا أن ندعو الله ونحن في مكان العبادة ألاّ نتأخر عن الموعد، هكذا علّق يوسف الحايك عندما أدرك أننا أصبحنا في حيرة من أمرنا! يقوم الطلاب عادة بعد العشاء بالجلوس في قاعة معدة للاستعداد للدروس. وقبل أن نأخذ أماكننا حضر إلى القاعة مدير الدار، حامد عطاري، أول مدير للدار وكان يُعرف بشدته، محاولاً الجمع بين التربية التقليدية والتربية الحديثة التي تعلمها في الكلية العربية. وقفنا أمامه مذعورين، فقد كنا على علم بهول ما حصل لغيرنا ممن سبق وتأخر بغير عذر عن العشاء، خصوصاً عندما رأيناه يحمل عصاه القصيرة قصره. بدأت استفساراته تنهال علينا مثل عيارات نارية. قاطعه سامي بجرأة افتقدتها أنا ويوسف: أستاذنا، إن درسك في التربية أمس الذي تحدثت لنا فيه عن الكلية العربية وعن أستاذك وأستاذ الأساتذة أحمد سامح الخالدي جعلنا نفكر في طريقة نرى فيها الكلية العربية ولو من بعد. لم نستطع الانتظار إلى يوم الجمعة، ذهبنا إلى القدس وواصلنا السير

إلى الطور (سمّع أمامنا سامي الآية القرآنية)، ومن هناك رأينا الكلية العربية تطل على العالم وتستنجد به، بناء من الحجر الناصع البياض تحيط به أشجار السرو الخضراء. أكملت الوصف بعد أن اكتسبت ما اكتسبته من شجاعة سامي: كعروس تلبس الأبيض وتضع على كتفيها وشاحاً أخضر يغطيها إلى أخمص القدمين. هل رأيتم المكتبة وقاعات الدرس؟ سأل المدير تصورناها تقع خلف المدخل. نعم هي كذلك. وكان واضحاً أنه يكبح جماح نفسه من قول المزيد لكي لا تنتقص هيبته التي طلع علينا بها، فأمرنا بالانصراف إلى قاعة الاستعداد متوعداً عقاباً شديداً لو تكرر خرق النظام. وطلب من فارس مراقب النشاط المسائي (شخص قميء لا يتقن غير نقل الأخبار للإدارة)، والذي كان يقف بجانبه أن يمزق الإنذارات الثلاثة التي جهزها سلفاً. كانت شفتا يوسف ترتعدان من شدة الخوف، ولو حدق المدير فيهما جيداً لربما لاحظ آثار نعمة حلويات جعفر عليهما. وبقدر ما كان سامي يتسم بالشجاعة كان يوسف يتسم بالوداعة التي خلفها الانكسار في حياته وحياة أبناء قريته الأمامية (هكذا كان يشار إلى القرى الحدودية).

ذكرى ثانية، وهي مباراة كرة القدم بين فريق الدار وفريق مدرسة خضوري الزراعية بطولكرم. كنت أحد أعضاء الفريق غير البارزين. لست أدري كيف عبثت قدماي بالكرة فسجلت إصابة كانت هي الوحيدة التي فاز بها فريق الدار. حملني بعض أعضاء الفريق على الأكتاف وطافوا بي بين أشجار الحمضيات. بينما كنا نتدرب على اللعب في كرة القدم في اليوم الثاني في ملعب الدار، قام أحد أعضاء الفريق أحمد خريس من سوف-جرش، فعرقلني ولحقني كَسْرٌ في يدي اليمنى من جهة الرسغ. قيل لي مالك غير اللفتاوي في حي الشيخ جراح. حملت لوازم التجبير من بيض ودقيق وشاش وطفقت أبحث عنه. عثرت عليه إذ كان يقيم فيما يعرف بالتلّة الفرنسية، على مقربة من ملعب الشيخ جراح لكرة القدم. بيوت متواضعة متجاورة بنيت من الطوب الإسمنتي يسكنها اللفاتوة (نسبة لقرية لفتا) منذ نزوحهم، اتخذوها محطة مؤقتة في انتظار العودة. حاولت أن أنقده شيئاً بعد أن قام بواجبه خير قيام فأبى. لم أتقاضَ قرشاً واحداً أجراً من أي شخص، قال لي، ولا والدي الذي كان يقوم بنفس الواجب عندما كنا في لفتا. هذا عمل خير يا ابني: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره. عسى الله يعيدنا إلى بيوتنا وأرضنا.

زرت المجبّراتي اللفتاوي أكثر من مرة أثناء إقامتي في بيت حنينا. في إحدى الزيارات قال لي: من يصدق يا ابني أن لفتا قريبة كل هذا القرب ولا نستطيع أن ندخلها. اختارت عائلتنا هذا المكان كي لا نكون بعيدين عن لفتا إلى أن نرجع إليها يوماً مشياً على الأقدام. كلما مرت من أمامنا هنا القافلة الأسبوعية اليهودية المتجهة إلى هاداسا والقادمة عبر بوابة مندلبوم أقول لماذا لا توجد قافلة بالمثل تنقلنا إلى لفتا في الاتجاه المعاكس تحت حراسة الأمم المتحدة كما هي الحال مع هذه القافلة، أو تحت أي حراسة!

تخرجت في دار المعلمين الريفية وعملت مدرساً لمدة عام في مدرسة بيت فجار الإعدادية. بعدها اخترت أن أغير مساري التعليمي فالتحقت بجامعة عين شمس بالقاهرة. وبعد أن حصلت على الليسانس في الأدب الإنجليزي عينت مدرساً في مدرسة الهاشمية الثانوية بجوار مدرسة الفرندز، التي تقع على بعد أمتار من المنارة-رام الله، كان من الطبيعي

أن أنعم باسترجاع الذكريات، خصوصاً وأن بيت حنينا تقع في منتصف الطريق بين القدس ورام الله.

أول ذكرى راودتني عندما كنت في طريقي من القدس إلى رام الله للالتحاق بعملي الجديد وكنت قد لمحت مبنى الدار الذي يقع على محاذاة الطريق إلى الغرب، هو ما نظمه طلاب السنتين ذات صباح والذي كان في نطاق موجة الاحتجاج على حلف بغداد. كيف استطاع ما يقرب من سبعين طالباً أن يتسللوا من المنزل بكل خفة ويسلكوا طريقاً وعراً يمتد من بيت حنينا إلى دار المعلمات في رام الله ليلحقوا بطالبات الدار ويخرجوا بعدها في مسيرة تجوب شوارع رام الله أثناء منع التجول. لا أذكر كيف تم الترتيب. كل ما أتذكره هو أن المدير والهيئة التدريسية المقيمين في المنزل دهشوا عندما لم يجدوا طالباً واحداً. قال سمير سمور أحد الأساتذة المؤسسين للدار: هل تبخر الطلاب بين عشية وضحاها؟ حضر المدير إلى دار المعلمات بعد أن علم بعد لأي أين انتهت بنا المغامرة. كان بشوشاً وودوداً تنازل عن كل شدته المعهودة بل وطلب من إدارة الدار أن تجهز لنا فطوراً متواضعاً. المهم لم يلحق أحداً منا أي أذى من إدارته عند عودتنا إلى الدار.

تواصلت مع أساتذتي في الدار خلال العام الذي قضيته في المدرسة الهاشمية وكنت أدعى للغداء ولإلقاء بعض الدروس على طلبة الدار.

في بداية ذلك العام الدراسي التقيت بأمين شنار الذي حضر ذات صباح إلى استراحة المدرسة المحاذية للشارع الرئيسي والتي لا تبعد كثيراً عن بيت أمين في البيرة، حاملاً معه دفتراً وقلما. أعلن على الجالسين مشروعه بإنشاء مجلة **الأفق الجديد**، طالباً مساهمة الحاضرين. استجبنا (خليل السواحري وأنا) إلى الطلب ووعدنا أمين أن نقدم له وللأفق الجديد كل ما في استطاعتنا وهذا ما حصل فعلاً.

ولدت **الأفق الجديد**، كما هو معروف، من رحم صحيفة **المنار** التي اتخذت عنواناً لها فيما بعد هو **الجهاد** ثم استقر على ما هو عليه الآن **الدستور**. عهد محمود الشريف إلى صديقه الحميم أمين شنار بالإشراف على المجلة وبإمكانيات متواضعة جداً: مكتب يتكون من غرفة بمحاذاة الدرج السفلي للعمارة بشارع صلاح الدين. طاولة وكرسي وماعون ورق من النوع الرخيص جداً، وعددٍ من أقلام الرصاص. وكثيراً ما كان أمين يقول لي عند زيارته: اجلس على هذا الكرسي واكتب ما تيسر للأفق. يغيب بعض الوقت ويعود بطبق حمص وجبة الظهيرة التي تتحول إلى غداء عمل.

ترددت كثيراً على مكتب **المنار** في ذلك العام، وعندما كنت لا أجد أمين في مكتبه كنت أذهب إلى المطبعة القائمة في شارع الأصفهاني بالقرب من مبنى البريد، حيث ألقى أمين وهو يحمل لفافات البروفات التي كانت تطبع من خلال صفّ الحروف (العملية المملة جداً، كما هو معروف). في إحدى المرات نقصت المادة المطلوبة للعدد. استأذننا أمين للذهاب إلى غرفة أبو شلباية (مدرس لغة عربية في المدرسة الإبراهيمية وصديق حميم لأمين) ليكتب مادة تكمل العدد. عاد إلينا بعد قليل من الوقت يحمل قصيدة «بيت المقدس» التي يرد ذكرها في ملف العدد تحت عنوان «أمين شنّار ومجلة **الأفق الجديد**». واقع الأمر أن أمين لم يرتجل القصيدة، بل إنه استحضرها من الذاكرة التي كانت تختزن

الكثير. وبهذه المناسبة أود أن أكشف هنا عن معلومة لأول مرة، ولم تذكر من قبل في أي سجل يتعلق بأمين شنار. أنّ ما وصلنا من أمين من إنتاج فكري ما هو إلا جزء مما كان أمين يحفظه في الذاكرة، فهو لم يكن من النوع الذي يهتم بتدوين أفكاره وأشعاره ونثره على ورق. يكتفي بأن يمسك بتلابيب الفكرة شعراً أو نثراً ويحاكيها منفرداً. عازفاً منفرداً كان.

تجولت مع أمين كثيراً في شوارع القدس وأزقتها القديمة. كان لا يتوقف عن الحديث الجاد عن كل مَعْلَمٍ نمر به. في حديثه يتقاطع التاريخ مع الأدب، ويتقاطع الاثنان مع الدين والفلسفة دون عناء. لو طلبت منه أن يرسم لك خارطة تاريخية تبين تحرك صلاح الدين في القدس لفعل. وفي باحة المسجد الأقصى يسرد عليك تاريخ المهندسين والمعماريين والمؤازرين الذين شاركوا في المعمار الماثل أمامنا، ويعقبه بوصف دقيق للروح التي كانت تكمن وراء كل مساهمة، ليجعلك تشعر أن بلاغة الوصف خارجة عن النص المألوف، وأن المعمار الماثل أمامك ما هو إلا مجرد شاهد على مرجعية تتخطى ظاهره مكاناً وزماناً. كل جملة كان يصوغها كانت تبدأ بالقدس أو تنتهي بها أو تحيل إليها. لا أعرف مثل أمين شنار من تحتويه القدس سوراً وأبواباً وتاريخاً وقدسية دينية ودنيوية. في سياق الحديث عن أمين شنار علق محمود درويش على مسمعنا (فيصل درّاج وأنا) بالقول، **إن أمين شنار موهبة انتحرت قبل الأوان**، ما من شك أن حساسية أمين شنار المفرطة هي ما جعلت محمود درويش ينعاه أو ينعته بهذا الوصف. غير أن ظروفاً عامة جداً أعرفها ساهمت هي الأخرى في انتحار موهبته ولا داعي للكشف عنها هنا.

سافرت في بعثة للحصول على درجة الماجستير من جامعة كلورادو بأمريكا وذلك بعد انقضاء السنة الدراسية في مدرسة الهاشمية. تعينت بعد عودتي مدرساً في دار المعلمين الريفية. عدت إليها والعوْد أحمد. أول ما لفت نظري عند دخولي ذلك الشارع الصغير المؤدي إلى مبنى الأقواس الأنيقة هو ذلك الركام من الأثاث: كراسي طاولات كنبايات إلى آخر ذلك من أثاث لقي حتفه في تلك البقعة الواقعة إلى الجهة الغربية من الشارع أثناء حرب 1948 والذي ما زال هناك وكان نفس الأثاث هو أول ما استرعى انتباهي عندما قدمت إلى الدار لأول مرة في صحبة والدي. كل ما أعرفه عن قصة الأثاث هو أنه من أثاث الكلية العربية. كيف وصل إلى الدار ولماذا رُحّل من جبل المكبر ولأي غرض، لم أجد من يعرف شيئاً عن الموضوع. ربما حامد العطاري الوحيد الذي كان يعرف عن ذلك. كنت أحد أربعة معلمين يقيمون في المنزل الداخلي، وكان علينا جميعاً أن نقوم بمناوبة ليلية نرعى شؤون الطلاب المقيمين في المنزل. وهكذا أصبحت بين عشية وضحاها مشرفاً ينام في غرفة مستقلة بدلاً من النوم في ردهة تضم ما لا يقل عن ثلاثين سريراً.

كان علينا أن نظل ساهرين في غرفة تجمعنا إلى ساعة متأخرة كي نتأكد أن الطلاب جميعاً قد خلدوا إلى النوم دون مشاكل. في ليلة ماطرة (لا أذكر إن كانت في شهر كانون ثاني أو شباط من عام 1965) تأخر مراقب المنزل أحمد (ح) وهو موظف يعاوننا في ضبط النظام المنزلي (ولا علاقة له بالتدريس إذ توقف تحصيله عند المرحلة الثانوية) وكان يحضر إلينا في تلك الغرفة كل ليلة ليطلعنا على سير الأمور. قلقنا أشد قلق وبقينا ننتظر عودته إلى ساعة متأخرة. أخيراً حضر أحمد يتصبب عرقاً ومطراً ويبدو عليه الاضطراب واضحاً.

سأقص عليكم قصتي، قال أحمد بصوت خافت

على غير عادته. لكني أرجو ألا تخرج كلمة واحدة خارج هذه الغرفة. كنت في مهمة كبيرة خطيرة. كنت أنفذ مع رفاقي في العاصفة عملية في عمق الأراضي المحتلة وهي العملية الرابعة التي نقوم بها في هذا الشهر. المهم أننا، الرفاق الأربعة، لم نصدق كلمة واحدة مما سمعناه. أكثر من ذلك أننا اعتبرنا قصته فانتازيا اختلقها طوعاً. وسخرنا منه ومن قصته بعد مضي سنوات قليلة أدركنا أن أحمد كان صادقاً وأننا كنا عاجزين عن أخذه على محمل الجد لسبب أو لآخر.

بالنسبة لي شخصياً لم تكن القصة برمتها جديدة مع أن سبب تأخيره لم يرد في خاطري. في بداية العام تمشينا (أحمد وأنا) إلى الغرب من الدار وعندما وصلنا بيت إكسا ونظرنا جنوباً كنا نشاهد السيارات الإسرائيلية تسير ذهاباً وإياباً في شارع يافا الذي يربط تل أبيب بالقدس الجديدة والذي يفصلنا عنه شريط حدودي ضيق يبعد كما يقولون مقرط العصا.

قال لي أحمد: هل تعلم أنني قطعت ذلك الشارع أكثر من مرة وأنا في طريقي إلى عمق الأراضي المحتلة؟ لم أصدقه ولم أكذبه ولم أفهمه. اعتبرت قوله ضرباً من ضروب حلم اليقظة والوضع بطبيعته يغري بمثل هذا النوع من الحلم. ربما كنت أكثر من زملائي حرصاً على مشاعر أحمد دون أن أدعه يشعر بالدونية بسبب عدم حصوله على شهادة جامعية مثلنا. المهم أيضاً أن الأمر تكشف بعد حرب حزيران وبعد أن أعلنت العاصفة عن نفسها، لم يبق إلا الاعتراف حتى لو جاء متأخراً.

• • •

في شهر تموز الماضي من هذا العام أتيحت لي فرصة لزيارة ما تبقى من الوطن في يد السلطة الفلسطينية بعد مضي ما يقرب من أربعة عقود. الوصول إلى رام الله وبقية مدن الضفة يتم عن طريق التفافي. سألت السائق أين نحن؟ قال في جبع. هذه ليست جبع التي أعرفها والتي كنت أزورها كجزء من البرنامج التدريبي عندما كنت طالباً في دار المعلمين. كانت طريقاً محاذياً لجبل يؤدي إلى واد صغير ثم يصعد إلى تلة تقوم عليها جبع. بعدها سألته أين نحن؟ فأجاب: نحن في حزما. بالمثل لم تكن حزما التي كانت سيارة الدار تمر بها للوصول إلى جبع. أما بيت حنينا والرام وبيت اكسا وشعفاط وعناتا فقد اختفت جميعها خلف الطريق الالتفافي وخلف جدار الفصل العنصري. لن أتحدث هنا عن الكابوس الذي لازمني طيلة الرحلة، لكني شعرت وكأن إسرائيل مزقت طوبوغرافية المنطقة إرباً إربا وألقت بها في مهب الريح تتناثر هنا وهناك بطريقة عشوائية لتمحو من ذاكرة أصحابها وجودها الطبيعي الذي كان أشبه بالفسيفساء. اقتلعت أحجار الفسيفساء ونثرتها في جهات مختلفة لتغيب وحدتها المتراصة إلى الأبد.

ذهبت لزيارة مسقط رأسي، نفس طريق وادي النار المعهودة. قبل الوصول إلى البلدة بما يقرب من كيلومترين أي بعد حدود بيت أمّر اتخذت السيارة طريقاً التفافياً. فجأة وجدت نفسي أمام جامع النبي يونس، المَعْلَم معروف، واعترتني الدهشة لأني وصلت إليه عن طريق غير التي كنت أحفظها عن ظهر قلب. شعرت وكأني سقطت من نعش لأدفن حياً أو ميتاً في المقبرة التي تضم أحبابي وأهلي والتي تقع في حرم الجامع. سألت أحد الواقفين على جانب الطريق عن منطقة اسمها النقطة (تسمية الانتداب البريطاني) التي يقع بيتي قريباً منها. وفجأة أيضاً

وجدت نفسي أمامها إذ كنت أقدر أن الوصول إليها يستغرق زمناً أطول حسب وعي سابق لي بالمسافات. ورغم أنني كنت أبعد أمتاراً عن بيتي إلا أنني ضللت الطريق ولم أهتدِ إليه إلا بالصدفة عندما وجدت نفسي بعد أن همت على وجهي قليلاً أو كثيراً أمام نفس البوابة، نفس السور، نفس البيت الذي بنيته من حجر الطّبزة في منتصف الستينات، وأقمت فيه أشهراً قبل الخامس من حزيران 1967، نفس أشجار العنب والتفاح والخوخ. وتذكرت والدتي وهي تزحف حول تلك الأشجار لتقوم بنفسها بما تحتاجه تلك الأشجار من عناية في حدود إمكانيات عجوز تشارف على المئة، وفي كل مرة كنت أطلب منها أن تتوقف عن إجهاد نفسها خشية أن يلحقها إعياء تردّ علي إن ما تقوم به من جهد حتى لو وصل حد الإجهاد هو ما يساعدها صحياً ونفسياً على الاستمرار معافاة، وتتهمني بإنني أجهل فوائد مثل تلك الرياضة.

جلست في الشرفة التي كانت والدتي تؤثر الجلوس فيها خصوصاً في فصل الصيف. التقطت بعض الثمار. استعدت بعضاً من توازني الذي تأثر بما رأيت قبل وصولي البيت. شعرت وأنا أجلس في الشرفة كأن عقارب الساعة قد توقفت منذ أن غادرت البيت صباح ذلك اليوم السبت الثاني من حزيران أي قبل يومين من نشوب تلك الحرب، إلى مقر عملي في الجامعة الأردنية. آه لو تتوقف عقارب الساعة فعلاً وأبقى جالساً في مكاني!

آخر محطة في زيارتي كانت أبو ديس. هاتفت عمران صديقي مستفسراً عن موقع بيته، بينما كنت أسير في الشارع الرئيسي الذي كان في يوم من الأيام يؤدي إلىالقدس. أجاب: عليك أن تواصل السير في ذلك الشارع إلى أن يواجهك سد منيع بشع ويصبح الشارع عندها طريق غير نافذ، البيت على تلة صغيرة على الجانب الأيمن من آخر منفذ في الشارع. وجدت عمران ينتظرني خارج البيت. والآن، قال عمران، هل تصدق ما كنت أقوله لك عن الجدار، وأنه تخطى حتى قوانين التهوية المعمول بها في العالم المتحضر؟ يقوم الجدار على حافة البيت. حتى شجرة التين التي كان ثمرها يطعم الحارة ذوت وبدت كأنها مقلوعة من جذورها مع أن جذورها ما زالت ضاربة في الأرض. منع الجدار عنها ما كانت تحتاجه من هواء الجهة الغربية.

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث حول هم العمر. دخلك، قال عمران، من أين جاءت فكرة الجدار؟ عجبت كيف استطاع عمران أن يصوغ هذا البيان من السهل الممتنع، وأيقنت أن عمران استطاع أن يدفن بشاعة الموقف في الأعماق عبر السنوات التي انقضت على بناء الجدار، ربما لميكانيكية تتطلب الاستمرار في العيش. وقد أوحى لي سؤال عمران بطريقة أو بأخرى أنه استطاع أن يفشّل بعضاً من أهداف الجدار التي لا تحصى، وهي أن العيش بجوار الجدار سيكون مستحيلاً، إذ إنه منغص يكفي لأن يشكل مع الزمن بيئة طاردة للجيرة والجوار. لكن عمران ازداد تشبثاً بالبيت وبكل شبر حول البيت كما يبدو من عنايته الفائقة بما تبقى على قيد الحياة من شجر وحجر خلف الجدار. كنت في عجلة من أمري ولا بد من أن ألحق بموعد آخر في رام الله. هل تريدني أن أحمل رسالة إلى شقيقك أبي أحمد في عمان، (زميلي وصديقي وهو حالياً رئيس جامعة أهلية) نعم أبلغه أننا في انتظاره وأن هذا الطابق الذي نجلس فيه الآن معدٌّ له ولأسرته. فالجميع منهم يحمل بطاقة لم الشمل وما عليهم إلا أن يقطعوا الجسر ويستقروا هنا إلى الأبد!

غادرت عمران كما استقبلته بدهشة ملؤها

شعور بالقبح والهمجية التي يثيرها الجدار العنصري. تذكرت ما قاله شمعون بيريز في مقابلته مع **دير شبيجل** من أن القدس تعزّ عليه ليس فقط لأنها تذكره بطفولة عزيزة، بل بما فيها من جاذبية روحية طبيعية لا توجد في مكان آخر. فهي، كما يقول بيريز، ليست عاصمة يجملها نهر أو بحر أو مصدر ثروة كبقية العواصم في العالم بل إنها تنفرد بجمال لون تربتها وأشكال حجارتها وما إلى ذلك من طبيعة فريدة وهبها الله لها. يقول بيريس: «هناك شيء غامض في هذه المنطقة، ألوان التضاريس كصور فنية إلهية. (ص22)». والسؤال هو أين موقع الجدار الجاثم على قلب الطبيعة الساحرة من غزل بيريس؟ كيف استطاع بيريس أن يتخيل، بقدرة قادر، جمال الطبيعة في المدينة معزولاً عن قبح الجدار الذي يجثم كالوحش المفترس على المدينة وما حولها! ما يتوفر لدي من تأويل هو أن الله على ما يبدو وهب شعبه المختار خطاباً انتقائياً دون غيره من سائر البشر فإذا هم يمتلكون حقاً يتيح لهم مصادرة ما خلقه الله.

عدت وأنا أحمل سؤال عمران. لدي طبعاً ما أقوله عن فكرةالجدار، لكن المجال لم يكن ليتسع لحديث طويل، كان علي أن أقدمه أمام عمران. لكن سؤال عمران ذكّرني بقصيدة محمود درويش التي أثارت حنق الكنيست يوماً وهي: «عابرون في كلام عابر». سؤال عمران يوحي بصيغة قريبة من عنوان القصيدة: «عابرون في جدار عابر».

سردت أخبار زيارتي لمسقط رأسي على بلقيس الكركي. سألتني وهل علم أهل قريتك بقدومك؟. ذكرت لي أختي يا بلقيس قبل وصولي بيوم واحد أن القرية بأكملها تعلم أنني في الديار، وعندما وصلت كان الحوش بأكمله قد علم عن وصولي خلال ساعة من الزمان، وكلما قابلت شخصاً في الطريق كان يقول لي إنه سيأتي عند المساء للسلام علي. والمعروف أن السلام على الغائب أو العائد إلى القرية واجب راسخ يتم بكل عفوية، إذ تشعر أن القرية بأكملها تنتظر عودة أي مواطن. شعرت أن الحجر والشجر والأزقة تعانقني بمثل الشوق الذي يتأجج في جوانحي. أختي أمضت يومها وهي، كما علمت من أبنائها، تشرب من دموعها. واستقبلتني كل من بناتها وهي تحمل جهاز الكمبيوتر الصغير وعليه صورتي التي التقطتها وسائل الإعلام التي كانت قد نشرت الخبر قبل وصولي القرية. وقبل أن أستمر في السرد قاطعتني بلقيس ما الفرق بين مواطن يعود إلى وطنه وأهله وأرضه وبين الغريب الذي يسقط على بلد ليس وطنه ويراه لأول مرة وعلى أهل ليسوا أهله؟ فهل يلقى اليهودي الروسي أو الأوكراني أو الأمريكي أو أي يهودي آخر استقبال الإنسان العائد إلى أهله ووطنه -كما استقبلك أهل حلحول- عندما يصل إلى أي قرية أو مدينة أو حتى مستوطنة في إسرائيل؟ قلت لها إن ذلك اليهودي يصل إلى إسرائيل وكل ما لديه من صفات المواطنة وحقوقها وثيقة تذكرنا بصكّ الغفران في العصور الوسطى. يصل إلى فندق تحدد درجته بلد المنشأ الذي يأتي منه، فإن جاء مثلاً من أوروبا أو أمريكا فإنه مؤهل لأن ينزل في فندق خمس نجوم وإن كان يهودياً شرقياً ففندق ثلاث نجوم كثير عليه. ألا يحق لنا أن نتصور إسرائيل مجموعة فنادق تملكها الوكالة اليهودية ومشادة على أرض مغتصبة؟ شعار الوكالة اليهودية هو: لك أيها الوافد العزيز أن تسكن ولا تملك، ومن غرائب الأمور أن هذا الشعار أو القانون يمتد إلى الأراضي العربية المشاع إذ تعطي إسرائيل الحق بتملكها. إذ أنها عقلية الإقطاع صاحب الحق الإلهي. المهم في ملاحظة بلقيس أنها

توحي إلى استذكار دائم ومستمر لحقيقة المواطنة لدينا مقارنة مع حقيقتها عند الآخر خشية أن يسيطر الواقع المزيف على حقيقةالموقف المعروفة، فكما أن التربية اليهودية اصطنعت وطناً من خلال تذكير النشء بالأرض الموعودة صباح مساء إلى أن تحولت الميثولوجيا إلي واقع ملموس، علينا، بالمقابل، استذكار حقيقة مواطنتنا دون كلل أو ملل حتي في أبسط الظروف. ومن المعروف أن الحقيقة كثيراً ما تختفي وراء المألوف والمعاش بدافع من تقبّل لا شعوري للمألوف كنمط حياة يجعلنا نتقبله بسبب حدوثه المتكرر المستمر الذي يشكل مع الزمن غطاء كثيفاً يحول بيننا وبين رؤية الحقيقة ودون وعي منا بالتظاهر اليومي المخادع.

في هذا السياق استذكرت بعضاً من سيرة المجنون في حلحول، «عبوده يونس»، لا أعرف كيف يمكن وصف جنونه علمياً لكنه كان من نوع الفانتازيا. لم يكن دموياً ولا مؤذياً، بل كان فيه رقة دون كيخوته وحساسيته. توفي أخوه وتولى تربية أبنائه، وكان يفتخر أمام الناس أنه الأب الرحيم لهم، كل ما يطلبه من الناس أن يعترفوا به أنه «أبو البلاد» (دون تحديد لتلك البلاد) كما يحلو له أن يسمي نفسه، وأن يناديه الناس بـ«عم عبودة» باستثناء مخاتير القرية. كم روت لي والدتي قصصه المضحكة. كان يقضي جل وقته في صحبة الغنم فيقضي فصل الشتاء والربيع والخريف في خربة تبعد عن القرية ما يقرب من عشرة أميال على حدود قريتَيْ نوبا وخاراس وتحيط بتلك الخربة المراعي المطلوبة.

بينما كان يرعى الغنم في الخربة داهمته دورية إسرائيلية وطلبت منه أن يبرز هويته، لم يفهم عبودة بادئ الأمر الطلب لأنه لم يحمل في حياته ورقة واحدة وباستثناء قيد الميلاد لا يوجد له قيد آخر. وقد طلب منه أهله حفاظاً على بقائه مواطناً في حلحول (طبقاً لقوانين الاحتلال) أن يعمل هوية كبقية الخلق، لكنه رفض الطلب بكل إباء وشمم معتقداً أن «أبو البلاد» ليس بحاجة إلى هوية. وعندما فهم عبودة المطلوب منه بمساعدة ابن أخيه الذي كان يرافقه ضحك وتوجه إلى الجندي قائلاً: «إنت إنت وين هويتك مش أنا!!» أدرك الجندي أن الموقف غير عادي وربما لا تنفع الشدة. أجاب الجندي: شو بدك في هويتي. رد عليه عبودة: بدي أعرف من أني جهنم سقطتم علينا! طلب منه الجندي أن يصعد في السيارة ليأخذه إلى العمارة- في الخليل مقر القيادة الإسرائيلية لينال عقابه. وكلما توقفت الدورية عند جماعة في طريق القرية ضحك من رأى عبودة ملقى القبض عليه يحرسه جنديان يجلسان معه خلف سيارة الجيب. تكرر المشهد ولم تحتمل الدورية مثل هذا الموقف الغريب وغير العادي وكان عبودة طيلة الوقت يغني موال عتابا على طريقته الخاصة. اختصرت الدورية الشر وقذفت بعبودة خارج السيارة وسط الشارع الرئيسي، مباشرة بعد أن تأكدت من المختار أن عبودة شخص غير عادي ولا فائدة من إلقاء القبض عليه بهوية أو بدون هوية. وتجمع القرية أنه منذ تلك الليلة رجع عبودة إلى رشده وعاش كبقية الناس في القرية إنساناً عاقلاً ولكن بدون هوية.

غير أن «عبودة» لم يتخلّ عن موقفه. استوقفته يوماً سيارة مدنية فيها سياح كانوا في طريقهم إلى الحرم الإبراهيمي، عندما كان يسير في الشارع الرئيسي ومعه عصاه التي كان يهش بها على غنمه. سألوه عن الطريق إلى ضريح النبي يونس وكانوا على مقربة منه. أجاب عبودة: هو انتو خليتو النبي يونس والا النبي عيسى من شركم-النبي يونس شرّق من جور الاحتلال ورئيس البلدية يعمل له لم شمل. إن شاء الله المرة الجاية بيكون راجع!

كم تمنيت لو أن البلدية تقيم شاهداً على قبر عبودة يونس تكتب عليه: «هنا ضريح العم عبودة.، أبو البلاد، عاش ومات بدون هوية إسرائيلية.»

في هذا السياق أعدت قراءة ما نشرته مجلة **دير شبيجل** من حديث بيريس مما لم يلفت انتباهي من قبل: يصف بيريس شعوره عندما زار القدس مدينة «أحلام طفولته» و«عاصمة حياتنا» فيقول إن اليوم الذي قضاه في القدس متجولاً في شوارعها لا مثيل له في حياته وكم تمنى لو كانت الظروف المادية آنذاك تسعفه لقضاء ليلة فيها. يعني أنه لم يكن باستطاعته أن يوفر أجرة ليلة في الفندق. قد يبدو هذا الكلام عارضاً أو عادياً لكنه غير ذلك. فواقع الأمر أن بيريس غريب حل على مدينة غريبة عنه إذ لم يجد في القدس القديمة ولا في القدس الجديدة يهودياً واحداً يستضيفه ليلة واحدة، مع أن نسبة اليهود في القدس الجديدة كانت في ذلك الحين لا تقل عن 35 % من مجموع السكان!

في آخر لقاء لنا (فيصل درّاج وأنا) مع محمود درويش في عمان طرح السؤال التالي: لماذا نحن مقصرون في الدفاع عن قضيتنا؟ فأجاب محمود نفسه: لأننا دائماً متأكدون أن الحق لنا ومعنا وفي هذه الحالة لا نرى ضرورة لإثبات ما هو ثابت وكأننا نردد أن الحق أبلج. محمود هنا يصف حالة لكنه طبعاً لا يوافق على الموقف منها، من هنا جاء إلحاح إدوارد سعيد على المضي قدماً في حمل خطابنا روائياً: على كل منا أن يروي قصته. أما العبارة الأخرى المشهورة لإدوارد فهي: اكتب ردك عليهم (write back). طلبت من محمود درويش أن يلخص السياسة الإسرائيلية بعبارة أو كلمة ليست متداولة كالعدوانية والقمعية وما إلى ذلك. فأجاب: إنها سياسة تطاول. وما يقوله بيريس يوضح تماماً هذا القول وإلا كيف يجرؤ على القول إن القرآن الكريم لا علاقة له بالقدس إذ لم ترد القدس، حسب إدعائه، ولو لمرة واحدة في القرآن الكريم مع أنها ذكرت مرات عديدة في كل من العهدين القديم والجديد، ويستطرد في القول: لا علاقة للإسلام بالقدس مكاناً أو زماناً. علاقته بالجزيرة العربية التي ولد فيها. وبسخرية فجة سوقية جداً يقول إن علاقة القرآن الكريم بالقدس لا تزيد عن حلم محمد بزيارتها ليلاً! مثل هذا التطاول الذي ينسج «حقيقة» من الزور والبهتان ويحولها إلى حقيقة خاصة به هو الذي ربما يجعلنا نتقاعس عن الرد بل ونأنف (أو نقرف) أحياناً من السعي وراء خطاب معاكس يضع الأمور في نصابها.

وعندما سردت ما سبق على صديقي فيصل درّاج علّق قائلاً المحتل شرير شرس بامتياز. عندما أيقن أنه لا يمكن أن يلحق الفناء بشعب، أي شعب مهما سرق من أرضه ومهما قتل من شعبه ومهما سجن من مناضليه، ظن أن استراتيجية جديدة هو رائدها يمكن أن تنجح، ألا وهي اغتيال الذاكرة التي يمكن أن تفك ارتباط الشعب بوطنه. وهل ينجح؟ سألت فيصل. الذاكرة كائن حي يعيش خارج الزمان والمكان، أشبه بالأسطورة الجميلة التي تتحدى قوى الاغتيال مهما عظم شأنها المادي مكاناً وزماناً. ذاكرتنا يا سيد بيريس ليست قابلة للاغتيال في أي زمان، لأنها ستظل الابنة الشرعية للمكان مهما طال الزمان ◆

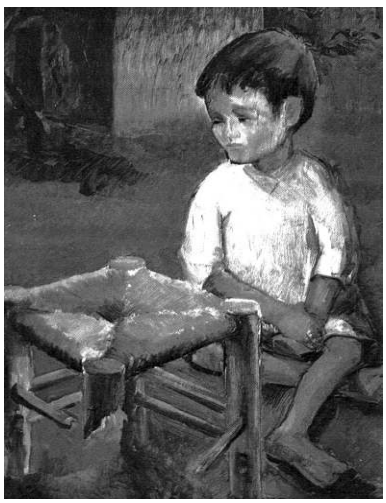

على كتف القدس:
حكايات قريـة أسطوريـة

يوسف عبد العزيز

تحت سماء هرمة، ينوحُ الماضي تاركاً دروعه ورماحَه مقذوفةً في العراء، ومخلّفاً في البّرية ابنَه الشّريد وقد تغضّنت وجنتاه وتثلّم صوتُهُ، وتعكَّرت في عينيه صورة العالم. أخيراً يجلس ابن الماضي وحيداً في غرفةٍ صغيرةٍ مضاءةٍ بالنيون، ومطلةٍ على طريق لا تؤدي إلى الكروم، طريق لا تؤدي إلى عتبة بيته الأول ومدرسته الأولى، وإلى ذلك القمر الحليبي المختبئ خلف الغيوم كعين مفتوحة تتلصص على الناس، وتنثر رماد فضَّتها على البيوت والأشجار، فيبدو المكان في الليل كما لو كان مطحنة قمحٍ كبيرة.

★ اللوحة للفنان إسماعيل شموط – فلسطين.

يد المزاج:

قريباً من تلك الأفعى المائية الضخمة المتعرجة بين الأشجار والراكضة باتجاه الغرب، تجمَّعت تلك البيوت بسقوفها المحدودبة، كما لو كانت حشداً من سلاحف ضخمة. بيوت متراصة تارةً ومتباعدة تارةً أخرى كأن يداً ما رتَّبَتها أو على الأصح نثرتها على جانبي الوادي. إنها يد المزاج الخفية تلك التي تتحكَّم بالطبيعة ومصائر الناس. في قرية «قطنة» الواقعة على كتف القدس والتي تقوم بين جبلين عظيمين، أو لنقل بين وتدين خُرافيَّين مدقوقين في لحم السماء كانت الحياة تتحرَّك مثل شريط أساطير:

أحد الأسلاف الصالحين (الشيخ الصّلاح) مثلاً كان يتعهَّد، باستمرار، بحماية القرية. فكلَّما اقترب غزاةٌ من حدودها كان يُشعِل ناراً هائلةً تصل حتى أطراف السماء! في واقع الأمر كنّا نذهب إلى (الصلاح) فلا نجد مقاماً أو قبراً! يبدو أنّه كان مجرَّد روح برية، فكلّ ما كنّا نراه كان عبارةً عن صخر ضخم ينقطع فجأة ليطلَّ من أسفله حشد من الأشجار الغريبة التي هي بنات (الصلاح). تلك الأشجار لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منها. على كتف ذلك المكان كنّا نقف ونكتفي بالصّمت، وبعبارات الثناء القليلة لأبيهنّ المبارك.

قريباً من (الصلاح) بجانب المقبرة كان يقيم حارس أرواح الموتى (الشيخ رمضان)، في مكان هو عبارة عن كهف ممتدّ تحت الجبل، تتوسطه شجرة غريبة بفروع مفتولة وقوية، ولكن دون أية أوراق. تحت تلك الشجرة التي ربما تكون روح الشيخ كما كان يقال، كان يتم تقديم الأضاحي والنّذور، وكان الكهف يُضاء بسراج زيت الزيتون. نساء القرية كن يتناوبن على تجديد ذلك الزيت في كل صباح، وكنا يمددن أيديهن بضراعة إلى الشيخ (رمضان) ويتوسلنه أن يحفظ أرواح ذويهنّ في المقبرة المجاورة.

في الحارة الواقعة وسط القرية كان ثمة (حيوان) يتجوّل ويُهَمهِم أغلب الأحيان. كان يبدو غاضباً وحانقاً على كل شيء. ذلك الحيوان لم يكن سوى (خليل الأهبل)، بسحنته الغريبة التي تبدو مثل غيمة سوداء وقامته الضخمة مثل جبل صغير. كان يمشي فتهتز الطريق تحت قدميه، وكان وسط حالة الغضب يأخذ بالصياح. كان يصيح صيحات قليلة ومتقطعة ولكنّها كانت كافية لأن تجعل الحجارة في السناسل المجاورة تجفل أحياناً. كان يتوقّف، ويمدّ نحو السماء راحتين كبيرتين شبيهتين بلوحَي صبر. كان يدعو الله أن يمحق أعداء القرية، وأن تتنزل السماء عليهم بطِنٍّ من الحشرات!

في الحي الشرقي من القرية، كانت تظهر (أم العبد) كأخت له في الجنون. كانت رحلاتها في أزقة ذلك الحي عبارة عن مشاوير كاملة من السباب. بعينين ساهمتين كانت تمشي كأنها لا ترى أحداً أمامها. الأشجار كانت ألدَّ أعدائها. في كرمها العالي كانت تنهال على تلك الأشجار دون رحمة، كانت تضربها بعصا غليظة، ظانّة أنها تشكل سترة واقية للأعداء كانت تضرب وتضرب حتى تسقط في آخر الأمر صريعة على الأرض وتفقد وعيها.

في أحد الصباحات، وبعد أن كان (الحاج عبد الله) قد رقد في ساحة بيته وزاغت عيناه، وقد أوشك على الموت، وبعد أن التفّ حوله الأهل والأصدقاء في محاولة منهم لتوديعه، هبَّت زوبعة قوية على ساحة البيت وأخذت الحاج.... نعم لقد طار (الحاج عبد الله)، ولم يعد أحد يشاهد له أثراً في القرية. بعد سنوات من تلك الحادثة تواردت بعض الأخبار عنه

من أمكنة بعيدة: أحدهم قال إنه شاهده في مصر، آخر قال إنه هبط من طيرانه في أقصى بلاد المغرب وأنه ما زال حياً يرزق حتى يومنا هذا.

إن مثل هذه الحكايات التي أسردها لا تشكّل إلا شيئاً ضئيلاً من ينبوع غرائبي متدفّق، غير أنّ كل شيء هنا يتحرك بمزاجه. كل شيء له حريته في الطيران والتحليق، أو في الجنون، حتى الأشجار يمكن لها أن تقف في الهواء بشكل مقلوب، جذورها في الأعلى وأغصانها إلى الأسفل كما شاهدها أكثر من شخص انفتحت عليه ليلة القدر!

أفاعٍ وديعة:

(البدّ) كان بيت الطفولة الأول. وقد كان يقوم على مساحة كبيرة من الأرض. طوله يقارب الثلاثين متراً وعرضه العشرين. أمّا ارتفاعه فكان يزيد على الثمانية أمتار. مكان فسيح بأروقة عديدة، كنّا نسرح فيه ونمرح كما لو كنّا في ملعب كرة قدم. ذلك البيت كان في واقع الأمر معصرة زيتون قديمة أقامت فيها أسرتنا مع خمس أسر أخرى في السّنوات التي تلت النّكبة، بعد أن كان العدو قد دمّر بيوتها. كان (البدّ) مقسَّماً بين هذه العائلات السِّتّ بجدران طينية مفتوحة على السقف... كنا نعيش فيه حياة جماعية حقيقية. سنة وراء سنة أخذت تلك العائلات تغادر المكان. كانت كل عائلة تبني بيتاً جديداً لها في منطقة ما من القرية. أسرتنا في نهاية المطاف تفرَّدت بـ (البدّ). إلى جانبنا كان ثمة خراف وأبقار ودجاج وحمام وعصافير. أحياناً كانت تهبط في فناء (البدّ) طيور غامضة.... في أحد الأيام أمسكنا بطير ذي ساقين طويلتين ومنقار متوسط الحجم، وأردنا أن نذبحه ونشويه، لكنّ أمي نهرتنا بصوت صارم وطلبت منّا أن نطلق سراحه. أحياناً كانت هناك كلاب ضالة وثعالب تدخل. أحد هذه الثعالب وبعد أن أمسكه أبي كان ينظر نحونا بنظرات متوسّلة. أمي تدخلت مرّة أخرى وأجبرت أبي على إطلاق سراحه. تلك الكائنات تجاسرت فيما بعد على الدخول والخروج بحرية شبه تامة. ويبدو أن حالة اللطف الزائدة من قبلنا قد شجعت هذه الكائنات على زيارتنا في الأوقات التي تراها مناسبة. ولكن ينبغي الاعتراف أن تلك الكائنات كانت في غاية الوداعة والتهذيب، إذ لم يحصل أبداً أن قام أحد هذه الثعالب بافتراس إحدى الدجاجات. كانت دائماً تذكرنا بذلك العدو الرابض على الحدود، والذي كان يتسلل ليلاً عندما يشاء ويعيث فساداً في القرية كيفما يشاء.

أكثر هذه الكائنات وداعة كانت الأفاعي: في السقف كانت تعيش فوق رؤوسنا عائلة كاملة من الأفاعي. ونحن كثيراً ما كنا نستمع إلى أصواتها وهي تزحف هنا وهناك بين البوص. لكننا حين كنا ننظر باتجاه الصوت لم نكن لنبصر شيئاً. ويبدو أن تلك الأفاعي قد أخذت بعين الاعتبار وجودنا في البيت فحاولت بقدر الإمكان المحافظة على المودة القائمة مع الجيران الذين هم نحن. في فترات متباعدة كنا نحظى بإحدى الزيارات من إحدى الأفاعي الكبيرة، ويبدو أنها كانت الأفعى الأم. مساءً وعلى ضوء السراج كانت تلك الأفعى تهبط من السقف، كانت تأخذ وقتاً في مشيها وانزلاقها على الحائط الأمامي... في تلك الأثناء تكون أمي واقفة لاستقبالها. وما إن تصل حتى ترفع رأسها وتحيِّي أمّي ثم تأخذ بتأمُّلنا وكأنها تتفقدنا واحداً واحداً وتسأل عن أحوالنا. نحن في ذلك الوقت نكون في الفراش، ومن تحت اللحاف نتأمل تلك الزائرة الغريبة ونستمع بدهشة إلى كلام أمي مع تلك الأفعى: «مع السلامة يا مباركة» عند ذلك فقط كانت الأفعى تكتفي بالزيارة ثم تعود إلى مكانها في السقف.

حلقات لطم:

أخيراً وبعد انتظار طويل، وصلت جثة (سعيد الوحش)، فقد تسلّمَتها مجموعة من الرجال عند الظهر في بوابة مندلبوم التي تقع على الحدّ الفاصل بين القدس الشّرقية والقدس الغربية التي يحتلّها اليهود منذ عام 1948، وها هي العربة التي تحمل الجثة تتقدَّم ببطء وتشق كبد الأرض. كان كلّ شيء يجري بصمت وذهول، حتى حدقات الناس التي أطلَّت على المشهد من خلال الشرفات والنوافذ بقيت جاحظة لبعض الوقت وكأنّها دون أجفان، سكون تام كما لو كانت القرية في غير مكانها، والهواء ملقى على الأشجار كالمعطف الثقيل. العربة وصلت دوّار القرية الوحيد، وتلكأ الرجال الذين فيها عن النزول، مفسحين المجال لوصول الحشد الذي هبط سريعاً من جانبي الوادي كما تهبط حبات القمح من كيس مثقوب. فقد انتهت الطريق المعبدة، ولا بد من حمل الجثة فوق الأكتاف، فيما الحشد يتدافع خلفها ويزحف، ومع الخطوات الأولى للجنازة هتف أحدهم «يا ناس هللوا» عند ذلك اندفع الكل يردد بصوت واحد عظيم «لا إله إلا الله».

ما إن وصلت الجنازة الحي الغربي حيث بيت القتيل حتى ارتفع في السماء صدى لنواح جماعي، كان كل شيء يئن وينشج. كانت القرية تبدو مثل قدر ضخمة لأصوات تغلي وتفيض على حواف الجبال المحيطة. وعلى إيقاع موسيقى خفية تحركت أجساد النساء وتلوَّت، في هذه اللحظة جمع الرجال أنفسهم وانسلوا إلى الحوش.

في الخارج شكلت النساء الملفّعات بالسواد مجموعة من الحلقات الخاصة. في البداية جلسن على الأرض وأخذن يولولن ويبكين. ثم صارت جذوعهن تتحرك يميناً ويساراً، بعصبية مددن أيديهن وخبطن التراب، وبرشقات متتابعة ضربن خدودهن، ثم ماجت الأجساد وترجلت في شبه وقفة كأنها تترنح أو كأنها خفيفة تحاول الطيران. ثم بهستيريا انطلقت الأجساد تهتز وتتقوس تتشنج تارة وترفّ تارة أخرى رفات سريعة ومتلاحقة كأنها جوقة نسور.

استمرت الأجساد ترقص فيما استمرت الأيدي بضرب الصدور والخدود. في هذه الأثناء اندفعت واحدة من النساء داخل الحلقة وأخذت بشق الثوب وتمزيقه كأنها تريد أن تُحَرّر ألسنة النار الهائجة تحته، وعلى الفور تبعتها واحدة فأخرى فأخرى.

وسط حالة الهياج تلك تقدّمت من النساء مجموعة من الرجال الصامتين الذين كانوا يحملون العباءات بين أيديهم، فيفردونها ثم بحركات سريعة يضمون بها تلك الأجساد المجنونة العارية.

محض قماش:

في منتصف السّتينيّات من القرن الماضي، أو قبل ذلك بقليل، كان علينا أن ننتقل إلى بيت حديث، بالقروش القليلة التي جمعها أبي من عمله في ورشات البناء، قام أبي بإبرام واحدة من أهمّ الصّفقات في حياته، كانت مع إحدى الكسّارات المتنقّلة التي جاءت إلى القرية، وحطّت رحالها بجانب الشّارع العام بجوار شجرتي الكينا العملاقتين.

بإشارة منه بدأنا بنقل الحجارة إلى الكسّارة تمهيداً لطحنها، وما هي إلا ساعات قليلة حتى تكوّن لدينا تلان كبيران، واحد من الحصى، وآخر من الرمل الحجري الأبيض.

بعد ذلك هبّ الأقارب لمساعدتنا في بناء البيت، فارتفعت الجدران، وانتقلنا سريعاً للإقامة فيه.

أشياء كثيرة كانت تنقص البيت، كان على رأسها الباب والشّبابيك. أخيراً أبي تدبّر الأمر مع الباب، وقد صنعه بشكل بدائيّ من ألواح الخشب التي استُخدِمَت في البناء. المشكلة الشّائكة التي بقيت أمامه هي مشكلة النوافذ. لم يكن سهلاً عليه أن يُدبِّج ألواحاً كيفما اتُّفق من أجل أن يسدّ بها تلك الفتحات الكبيرة المتروكة في الجدران، لم تكن لديه الفلوس الكافية، أو على وجه الدّقّة لم تكن لديه فلوس إطلاقاً.

في مساء ذلك اليوم غاب أبي، وما أن استيقظنا من النّوم في صباح اليوم التّالي حتى جاء أبي وعلى كتفه كيس ضخم ألقاه بين يدي أمّي. فتحت أمّي الكيس وأخذت تفرد أمامنا محتوياته. وكم كانت دهشتنا شديدة حين رأينا قطعاً هائلة من القماش الأبيض مسطّرةً بخطوط زرقاء طويلة، والأكثر من ذلك تلك النّجوم السّداسيّة التي كانت تنتشر وسطها!

على عجل حاكت أمّي قطع القماش، وما إن حلّت الظهيرة حتى وجدنا الشّبابيك وقد غُطّيت تماماً بذلك القماش الغريب! انتهت مشكلة الشّبابيك، ووجدت أمّي لديها فائضاً من القماش، فما كان منها إلا أن جدّدت به وجوه المخدّات ولحف النّوم، أمّا نحن الأطفال فلم نكن مرتاحين لكلّ ما حدث، فقد كنّا نصطدم باستمرار بتلك النّجوم السّداسيّة الواقفة على الشّبابيك! وحين ننام كنّا نضطر لوضع رؤوسنا على تلك النّجوم فتسبّب لنا الكوابيس! كنّا نسأل أنفسنا: تُرى ما الذي حدث؟ وما الذي دفع أبي ليزيّن شبابيك البيت بأعلام الأعداء؟ فيما بعد عرفنا بعض التّفاصيل، لقد سرق أبي تلك الأعلام من معسكر للجيش الصّهيوني!

عقدنا اجتماعاً تلو اجتماع، وقرّرنا أن نواجه الأب بخصوص فعلته النّكراء. بعد تردّد طويل فاجأناه بالسّؤال، غير أنّه لم يرتبك كما كنّا نتوقّع، بل غرق في نوبة عارمة من الضّحك، وقال: هذه ليست أعلاماً يا أحبّائي، إنّها محض قماش!

الحصان الحائر:

في الخامس عشر من أيار عام 1948، أربعة يبللهم دمعهم خرجوا من بيتهم الخاص إلى الجحيم: رجل وامرأة وطفل و... حصان. هاجم الصهاينة القرية، وألقت طائرة بقنابلها على الناس. لقد أقنع الرجل زوجته وطفله بالخروج. لقد وعدهم قائلاً إنه سيعود بهم إلى القرية بعد يوم أو يومين. المشكلة لم تكن مع الزوجة ولا مع الطفل. المشكلة كانت مع الحصان الذي أخذ ينشج بدمع غزير، وكان كلّما مشى خطوةً إلى الأمام عاد خطوتين إلى الخلف. كان لا بدّ من ابتكار حيلة ما كي يرضى الحصان ويطيع الأوامر، فالطريق طويلة ومرهقة، وفوق ذلك فهي غامضة ومحفوفة بالأخطار. هنا أخذ الرجل بتدليل حصانه، ولا يعرف أحد ماذا أسرّ له من كلام أو بما وعده. فقد خفّ بكاء الحصان، ومشى.

بعد نصف ساعة من المشي، وفي منطقة شديدة الخطورة بسبب وجود جرف عظيم بجانب الطريق قرر الحصان نقض الاتفاق. لقد تمرَّد على أوامر الرجل، فمدَّ عنقه ورفع قائمتيه الأماميتين في الفضاء، واستدار نصف استدارة. في هذه اللحظة أدرك الرجل أن الأمور وصلت إلى نهاياتها، فالحصان من جهة لن يسير معهم خطوة واحدة، ومن جهة أخرى فإن عودة الحصان ستشكل كارثة. في هذه اللحظة الغامضة المفتوحة على الوعي المطلق وربما الجنون، استجمع الرجل كلّ قواه واندفع باتجاه الحصان، ليعالجه بضربة صاعقة، ضربة جعلته يترنح لكنه أبى أن يسقط في الجرف.

رماد البيت:

في صيف عام 1998، أي بعد خمسين عاماً من الخروج قام أخي الكبير نفسه برحلة مكوكية إلى البيت. كان قد ذهب إلى الضفة من خلال تصريح زيارة، واغتنم الأيام القليلة المتبقية له في التصريح ليعود أدراجه إلى البيت متتبعاً طريق الحصان على حدّ زعمه. وقد اعترف قائلاً: «ذاكرتي لم تكن لتسعفني، فخمسون عاماً لم تكن جرَّة قلم لتجعلني أتذكّر تلك الطريق التي قطعناها في الطفولة. لقد تغيَّرت ملامح الطبيعة، وفي ظل حالة الوحشة التي تعيشها الأرض هاج كلّ شيء فيها ونما بشكل جنوني، لقد استعادت الأعشاب والأشواك الطرق والممرات التي كانت قائمة ومحتها. لهذه الأسباب استعنت بأحد شيوخ القرية ليكون مرافقي ودليلي إلى البيت. من كتف القدس إلى نواحي اللد حيث تقوم قرية البويرة قطعنا الطريق مشياً على الأقدام، تارة كنت أستعين بخبرة الشيخ، الذي كان يعرّفني بالأمكنة، وتارة أخرى كنت أندفع بنشاط تحركني حدوس خفية كواحد من كائنات الأرض الكثيرة التي بقيت تعيش على هواها طوال هذه المدة الطويلة. خمسون سنة هي عمر هذه النكبة ذابت دفعة واحدة، وحين وصلنا منطقة الجرف التي وقعت فيها حكاية الحصان، وجدتني أستعيد تفاصيلها كأنها حدثت البارحة. فجأةً صاح بي الشيخ بحماسة: نحن في القرية. ولكنني لم أشاهد بيوتاً، كل ما كان هناك كان عبارة عن سحابة هائلة من الخضرة، أشجار عملاقة اشتبكت أغصانها، وشكلت ما يشبه المظلّة العظيمة. نباتات وأزهار برية مشوَّشة أطلت بدروعها الخضراء كأنها تبارز العزلة. أين خروبة أبي العباس هتفت بالشيخ! أين بيتنا! أين بيت جدي! أين بيت عمي! لم يجب الشيخ، وانخرطنا في نوبة من الحيرة الآسرة. لا أعرف كيف قادتني قدماي إلى البيت. بالصدفة وجدتني واقفاً على أطلاله، ولم أتبين منه شيئاً. كانت حجارته قد سُوّيت بالأرض ونبت لها ريش كثيف أخضر. الحجر الوحيد المتبقي منه كان أنا، الحجر الوحيد الذي لم يمسسه سوء ومسّه كل خراب الدنيا كان أنا. رحت أضرب في المكان على غير هدى وأتشمم روائح الأشياء، والصرخات القديمة، وعلى حين غرة تحسست ندبة في جبيني، وتذكرت سقوطي عن خروبة أبي العباس التي بجوار بيتنا. يا إلهي، هتفت، أين مضت حياتي! لقد صارت مرتع خيبات، وها أنا أخلّفها ورائي كومة أيام ممزقة. «شو بدي بالأولاد. الله يخلي البلاد»، رحت أحرّف كلام فيروز وأدندن لحن أغنيتها. هذا هو بيتنا بحجراته الأربع! هنا كنت أعيش، ألعب أنام وأصحو! فأي حماقة ارتكبها التاريخ؟ أي جريمة اقترفتها الإنسانية بحقي!». عند هذه النقطة من اللاجدوى وفقدان اليقين أنهى عصير الذي هو أخي الكبير سرد فصول رحلته الغرائبية إلى البيت. ولكن الجانب المثير من الحكاية لم ينته بعد، خصوصاً أنني دخلت من حيث لا أدري في خضمّ تلك الحكاية المروّعة.

حين عاد أخي إلى عمان كان قد أحضر معه كيساً مملوءاً بالزعتر، وحين زرته قال لي هذه هي هديتك فخذها. كانت الهدية عبارة عن صُرّة صغيرة من الزعتر. قال وهنا بيت القصيد: لقد قطفت هذا الزعتر الذي بين يديك من بين حجارة البيت. عندها أصابتني رجّة عظيمة وكدت أسقط. أخذت صرة الزعتر ورحت أتشممها كمن يتشمَّم روائح الجنة. عند ذلك تذكَّرت بعض الحكايات التي كانت تحدث أيام الحرب العالمية الثانية، والخاصة بأُسر المفقودين التي تتلقى تباعاً طروداً بريديةً هي عبارة عن رماد أبنائها المغدورين. لقد كدت أُجَن وأنا أتحسس الصرة التي فيها رماد البيت◆

أدباء

محمود درويش
عمر باوند
إدريس عيسى
محمود شقير

في القدس

محمود درويش

في القدس، أعني داخل السّور القديمِ،
أسيرُ من زمنٍ إلى زمنٍ بلا ذكرى
تُصوّبُني. فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون
تاريخَ المقدّس... يصعدون إلى السماء
ويرجعون أقلّ إحباطاً وحزناً، فالمحبّةُ
والسلامُ مقدّسَان وقادمان إلى المدينة.
كنتُ أمشي فوق منحدرٍ وأهجسُ: كيف
يختلف الرّواةُ على كلام الضوء في حجرٍ؟
أمنْ حجرٍ شحيح الضوء تندلع الحروب؟

★ اللوحة للفنانة جمانة الحسيني – فلسطين.

أسير في نومي. أحملق في منامي. لا
أرى أحداً ورائي. لا أرى أحداً أمامي.
كلّ هذا الضوء لي. أمشي. أخفُّ. أطيرُ
ثم أصير غيري في التجلّي. تنبتُ
الكلماتُ كالأعشاب من فم أشعيا
النّبويّ: «إن لم تُؤمنوا لن تَأمنوا».
أمشي كأني واحدٌ غيري. وجُرحي وردةٌ
بيضاءُ إنجيليةٌ. ويداي مثل حمامتين
على الصليب تُحلّقان وتحملان الأرضَ.
لا أمشي، أطيرُ، أصيرُ غيري في
التّجلّي. لا مكانَ ولا زمانَ. فمن أنا؟
أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكني
أفكّرُ: وحده، كان النبيُّ محمَّدٌ
يتكلم العربية الفصحى. «وماذا بعد؟»
ماذا بعد؟ صاحت فجأة جنديةٌ:
هو أنت ثانية؟ ألم أقتلَك؟
قلت: قتلتني.. ونسيتُ، مثلك، أن أموت.

من ديوان **لا تعتذر عمّا فعلت**، ص47-48.

★

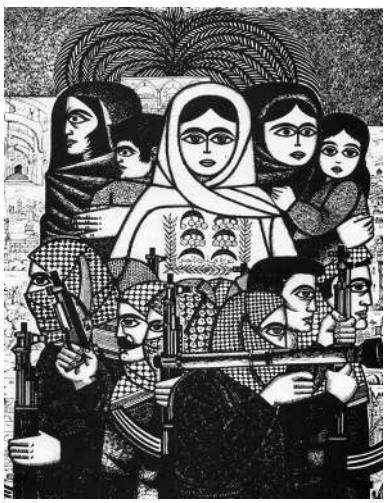

عسكرٌ عِندَ الجمجمةَ[1]

عمر باوند

نقلها إلى العربية: بكر عباس

في الأُسبوعِ الماضي جَرَرْنا الغَشّاشَ
من قَدَمَيْهِ – لأنَّهُ كانَ يغُشُّ زَيْتَ الزَّيْتون،
لا أدري بماذا، ولكنَّه سَمَّمَ
أحَدَ عَشَرَ في كوخِنا، باستثناء
أحمد الذي كانَ صَلْبَ العُود.

★ اللوحة للفنان برهان كركوتلي – فلسطين.

1- حيث صُلب المسيح (المترجم).

«هذا هو الخَطَرُ بِعَيْنِه في رَأيي».

الأشياءُ التي لا ينساها الأطفال أبداً خطيرة:

جُنودٌ يَقلِبونَ أُصُصَ الزُّهور،

يَسْرِقونَ المِلْحَ، يخلِطونَ الفُلْفُلَ

بالقَهْوَة،

يَنْتَزعون من ابْنِ عَمِّيَ الأَعْرَجِ

وَطَنه لِلْحَطِّ مِنْ كرامَتِه؛

ويُسَوّونَ بالجَرّافاتِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَيْتاً

لِيَدْفنوا مِقْلاعَ أخي،

ويَقْتُلونَ القِطَّة.

منْ عيوننا صَنَعوا الأَنْقاض[2]

حتى قِطَعَ الحلوى اغْتَصبوها مِنْ عائِشَة

كانتْ في السادِسَة (نَحْنُ الآنَ زَوْجان)

وكانتْ عائدَةً مِنْ جَنازَةِ جَدَّتِها

خِلالَ ستينَ عاماً طالما حَكَتْ

عنِ الذي أَخَذَ مِنْها جائزةَ التَّرْضِيَة

ولكنْ لمْ تَقُلْ مَرَّةً لماذا

مات أبو أمّي

وهو يَعُبُّ

الغاز المُسيلَ للدُّموعِ (غيرُ قاتل)

2- هذه العبارة تلمح إلى أغنية أربيل الشهيرة في مسرحية «العاصفة» لشكسبير، المشهد الثاني من الفصل الأول، السطر 400، وهي في الأصل Of his bones are coral made، أي: أن المرجان يصنع من عظامه (المترجم).

هذه الحجارةُ كانَتْ عَيْنَيْهِ[3]

بعيداً عن فِلَسْطين[4]

رَوَيْتُ هذهِ الحِكايَةَ

يحسبُها الناسُ مهزلةً مُلَفَّقَةً

وكما هو الحالُ في الحروب

تُقْتَرَفُ الشُّرورُ الكبيرةُ

للتغلّبِ على شَرورٍ أهْوَنَ منها

لكنْ قليلٌ من العقائدِ

تَقوى على الصُّمود

هذه كانتْ عيونُهم

وحِجارَتُنا ذِكْرَيات

3- هذه العبارة تلمح إلى أغنية أربيل الشهيرة نفسها، وهي ترد أيضاً في البيت 125 من قصيدة إليوت **الأرض اليباب** Those are pearls that were his eyes (المترجم).

4- الإشارة هنا إلى برنستون حيث يقيم الشاعر عمر باوند نجل الشاعر الكبير إزرا باوند.

★

شمس لِسَدَنَةِ الصباح

إدريس عيسى

إلى ابن حمدة الكنعانية: محمد القيسي

تنويعٌ على رايةٍ فلسطينيّة

رايةٌ في سماءِ المخيم تعلو وتفتحُ للفجر دربَ السماءْ

رايةٌ فوق نعشٍ يسيرْ

رايةٌ في أكفٍّ تطيرْ

★ اللوحة للفنان خالد حجازي – فلسطين.

رايةٌ حول جسمِ الولدْ
هي تَلْبَسُه كوكبًا وهو يَلْبَسُها كَرْمةً فتقودُ خُطاه

رايةٌ في انشطارِ سماءِ الأحدْ
حيث يتركُ طفلُ القيامةِ مسمارَ كفَّيه في الخَشبَهْ
ثم ينزلُ، يسلمُ غيمةَ جسمِه ثانيةً للغُزَاهْ
رايةٌ فوق حبلِ الغناءْ
رايةٌ.. رايةٌ..
الحشودُ... عذابُ القرونِ استحالَ نشيدًا فصارتْ
فجاجُ الجهاتِ له قَصَبَهْ.

فلسطينُ

أنْ تقولَ فلسطينَ؛ سوسنةَ الروحِ مَعناهُ
أنْ تُوقفَ الشمسَ في سَمِّ إبْرَهْ
وتجلسَ في الشَّمسِ،
أنْ تَجْبُلَ الأفقَ خابيةً فتصُبَّ المواسمَ
فيها وتسكرَ حتى يطيرَ إلى ذِروةِ الصّحوِ قلبُكَ ثُمَّ
يحزَّ، لصَحْوِكَ، هذا الظلامُ القديمُ وريدَه،

وتَسبكَ من مَعْدِنِ الوقتِ سَيفاً مُضيئاً
تعلُّقه فوقَ خصرِ القصيدهْ،
وأنْ تُؤْوِيَ الأرضَ واللّهَ والناسَ في قلبِ زَهْرَهْ.

الفلسطيني

تائهاً عن وجهه يَمشي إلَيْهْ
لا مَرايا تَسْتطيعُ اليومَ أن تشمَلَه في مائها:
«ها أنذا، في قفصِ الماءِ حَبَسْتُ الطائرَ المُرَّ
الذي خاطَ جناحاهُ المنافي وسمواتِ الشتاتِ»
تائهاً، في عزلة اليُتْم، يرى في ذاته ذاتَهُ عَيناً
ولذا يُفْلِتُ من كل اللُّغاتِ

وينامُ ساهراً بين يَدَيْه.

شهيدة

ركضتْ،
ركضتْ خلفها شجره
ظلُّها؟! أم صدى جِسْمِها في الثلاثينَ من مَجده؟!
عَبَرَ البرقُ مفترقَ الرئتين وكان الهواءْ
طائراً من لهيبٍ تَمَوّجَ في ظُلْمَةٍ،

تَبِعَتْهُ، وأغفَتْ هُدوءاً على مِفرشِ الدَّم في خيمةٍ من ضياءْ
حينما أخذوا شكلَها فوقَ موجةِ شِعْرٍ إلى المَقبرهْ
كانت الشجرهْ
تتقفّى خُطاهُمْ...

مديح

للذين طَوَوا جسمَهُم رايةً ثُمَّ غَابوا
سأفتحُ بابَ المديحْ
لم يموتوا فأَرْثِيَهُمْ
فَهُمُ الشّمسُ تُشْرقُ حينَ يَمُدُّ الخَرابُ
على الأرضِ سُلطانَهُ ويَهُزُّ دَهاقِنَةُ الموتِ أعلامَه السُّودَ في كُلّ ريحْ.

كتابة

إذ نذرتُ الصّيامْ
وأقمتُ بمرآةِ حُزني، لعبتُ بما يلعَبُ الأنبياءُ بِه والصّعاليكُ
خلفَ حُدوسِ عشائرِهم، وكتبتُ عن الحُبّ
عن سدرةِ التّيه، عن طرقاتٍ إلى عرشِ مملكةٍ أو غُبارٍ يُكَفِّنُني
فلأنَّ فلسطينَ أُمّي كانت تؤجِّلُ مَهْدِي
وتضربُ لي مَوعداً تحتَ نخلتِها في براري الكلامْ.
ولأنَّ فلسطينَ كانت هي الفعلُ شِعراً فما كان لي أنْ
أسِيرَ إلى بُرْدِ ناري وألبَسَهُ؛
يكتب الشّعرُ بالشعرِ حين يكونُ المدادُ دَماً
والكلامُ احتراقاً وتغدُو الحقيقةُ طَيْراً من النَّارِ يَمْرُقُ من دهشةِ الأعيُنِ

لستُ أكتبُ شعراً هنا
بل فلسطينُ تكتبُني.

مجلة **الكرمل**، العدد 43، ص135-138

مدينة ليس كمثلها شيء

محمود شقير

مدينة

أدخلها في الصباح، وهي منطوية على نفسها داخل سورها العتيق. أتمشى في أسواقها، أسواق مكتظة بالناس وفيها رطوبة منعشة. وثمة رجال ونساء من مختلف الأعمار، وثمة جنود هنا وهناك.

أجلس في مقهى باب العامود، ومن فسحة المقهى المطلة على السوق. أتأمل حجارة السور الضخمة، يعروها اصفرار ما. أراقب نوافذ البيوت التي تمتد أمام ناظري، نوافذ تخفي وراءها أسراراً وحكايات. أشرب شاياً، وأنظر نحو امرأة أجنبية نحيلة شقراء، تشرب قهوتها على مهل، تقلّب صفحات كتاب بين يديها، وتقرأ فيه باهتمام.

أنشر أوراقي أمامي. تنصرف المرأة، وأبقى في المقهى حتى المساء، ونوافذ البيوت على حالها لا تبوح بأي كلام.

★ اللوحة للفنانة تمام الأكحل – فلسطين.

يوم الجمعة

بائع الأسماك يذهب للصلاة يوم الجمعة. يرمي شهوات الدنيا خلف ظهره. زوجته تفعل الشيء نفسه. يخرجان من بيتهما، ويمشيان. أسمهان، ابنتهما التي دخلت عامها الثالث عشر، تبقى في البيت. البنت الكبرى تقول إنها ستذهب إلى بيت صديقتها لكي تراجع معها دروس الجامعة. وابنهما الأكبر غادر البلاد منذ عامين، بحثاً عن امرأة أحبها.

يصلان ساحة المسجد الأقصى. يتذكران ابنهما الذي تم القبض عليه هنا، وهو يقذف الحجارة على الجنود. منذ شهرين لم يتمكنا من زيارته، لأن إدارة السجن حجزته في الزنزانة، لاعتدائه على شرطي الحراسة.

يفترقان، خديجة إلى الركن الذي تصلي فيه النساء، وعبد الرزاق إلى الركن الذي يصلي فيه الرجال.

رباب، تتحدث الآن عبر هاتفها النقّال، وهي ذاهبة إلى الموعد الذي رتبته على الهاتف مع زميلها في الجامعة، مساء الثلاثاء.

لحى طويلة

يظهرون في الشرفة كل صباح. إنهم خمسة ولهم لحى طويلة. يظهر معهم في بعض الأحيان ملتحون آخرون ونساء. ينظرون نحو البيوت المجاورة بعيون لا تبشر باطمئنان. وفي الليل يعربدون ويطلقون رصاصاً في الفضاء. وحول البيت الذي استولوا عليه ثمة شبك من أسلاك، وأضواء كاشفة. سوزان يزعجها استمرار الضجيج وإطلاق الرصاص، وما يعقب ذلك من عربدة وهياج. خديجة تطل من شباك غرفتها وترفع صوتها في احتجاج. وعبد الرزاق يرجوها أن تخفض صوتها. يقول لها: لا تفضحينا يا بنت الناس.

يهدأ الحي بعد منتصف الليل، وينام الجميع ما عدا واحداً من ذوي اللحى الطويلة، يضع لحيته تحت الغطاء فلا يعجبه الحال، يضعها فوق الغطاء، فلا يعجبه الحال، يظل منشغلاً بلحيته حتى الصباح.

لو

لو أنه يعرف أين هو الآن، لو أنه يعرف رقم هاتفه أو رقم صندوق البريد، لو أنه يعرف في أية مدينة يقيم، لأجرى اتصالاً سريعاً معه. سيعرض عليه أن يعود إلى البيت. سيحدثه عن سوزان التي تستأجر غرفة من غرف البيت. سيصف له جمالها وحسن أخلاقها. سيقول له كم تحب الفلسطينيين هذه الفتاة! سيحاوره مثل صديق: إن كنتَ مغرماً بالأجنبيات إلى هذا الحد، فما عليك إلا أن تعود وتتعرف إلى هذه الفتاة. قد تهبك قلبها، وتكون

عوناً لك على الشقاء في هذه الدنيا التي ليس لها أمان.

لو أنه يعرف أين هو الآن؟

قطرة ماء

شمل الأسرة مبعثر على نحو ما. ولد في طيّات المجهول. ولد في السجن. بنت في الرحلة مع الأصدقاء (أهلها صدّقوا أنها عند زميلتها التي تدرس معها في الجامعة)، وهي لم تعد إلى البيت حتى الآن.

خديجة تقرأ القرآن وزوجها يتابع أخبار التلفاز. الزوج مهموم لسبب ما، ينادي زوجته وليس ثمة من مجيب. أسمهان تواصل اللعب على الحاسوب، وفي المطبخ حنفية تنزّ منها كل دقيقة قطرة ماء، تسقط في المجلى ولها ضجيج خافت رتيب، ربما لمجرد العبث أو لتذكير أهل البيت بأمر ما.

انتهاك

تظل أبوابها مفتوحة في الليل وفي النهار. في السابق، كانت الأبواب تغلق بعد المساء، خوفاً من غارة مفاجئة. وآنذاك، كان أهلها ينامون داخل سورها العملاق وهم يستشعرون الطمأنينة إلى حد ما.

الآن، المدينة مكشوفة تماماً. حتى لو أغلقت أبوابها، فما نفع الأبواب.

بائع الأسماك، انتفض وهو جالس في حانوته، شعر أن المدينة تتعرض لانتهاك. لم يرقه الحال، قال كلاماً قاسياً ثم سكت.

تحف

جلست عند صديقي في حانوته الذي يبيع للسياح تحفاً شرقية، ومجسمات لمساجد وكنائس ومسابح من خرز وأخرى من صدف، وكوفيات، وبلوزات عليها صور لمقدسات دينية، ومنحوتات من خشب ومشاهد من المدينة مرسومة على مربعات من خزف. جلست وتأملت المارة، وكان السوق رطباً تحفُّ به بنايات متراصة. والمدينة في كامل يقظتها، والنساء يعبرن أسواقها للتسوق وللتخفف قليلاً من ضغوط الحياة.

رأيت موكب المصلين وهم يعبرون درب الآلام. تتقدمهم مجموعة من حاملي المباخر وبعض آلات موسيقية. أصواتهم تترنم بتراتيل شجية. أصغيت للتراتيل وللموسيقى التي تملأ فضاء السوق. شعرت كما لو أن المدينة تغطس في حالة من خدر ونعاس، ثم رأيتها تمشي في آخر الموكب. فوجئ صديقي وهو يراني أنهض. استوقفني مستفسراً، ولم أجبه إلا بتمتمة غامضة.

اقتربت من الموكب، وأنا مصمم على البوح لها بما يضنيني منذ سنوات. دققت النظر ولم أجدها هناك.

نارجيلة

قال: لم نعد قادرين على الجلوس في شرفة بيتنا. كانت الشرفة هي المكان المفضل لي ولزوجتي. نجلس متقاربين، هي في قميص النوم الذي ترتديه بعد تناولنا لطعام العشاء، وأنا في البيجامة وفوقها العباءة التي جاءتني هدية من أحد الأصدقاء. وأمامي النارجيلة التي تقرقر في هدأة الليل، وزوجتي تضع رأسها على كتفي، وتقول إن قرقرتها تجلب النعاس. وأنا موقن بأن زوجتي لم تنعس، إنما هي وسيلة من وسائل النساء لجذب الانتباه.

غير أننا لم نعد قادرين على الجلوس في شرفة بيتنا بعدما جاء هؤلاء الخمسة (أحياناً يزيد عددهم عن عشرين). يظهرون في شرفة البيت الذي استولوا عليه، مجرد ظهورهم أمامنا يعكر الأجواء. زوجتي تغادر الشرفة وأنا أتبعها بعد لحظات، تاركاً النارجيلة وحدها هناك.

ركض

تذكرت جحا وأنا أشعر بالمرارة. جحا مرّ بحشد من البنات والأولاد يلعبون في ساحة الحيّ. تجمهروا حوله لكي يحكي لهم حكاية. لم يكن مزاجه صافياً. قال لهم: اتركوني في حالي. فلم يتركوه.

فكّر في حيلة يصرف بها الأولاد والبنات. نظر نحو الحيّ المجاور وقال: هل ترون ماذا يجري هناك؟ هناك عرس، ماذا تفعلون هنا؟ صدّقه الأولاد وصدقته البنات. والجميع ركضوا نحو الجهة التي أشار إليها.

حينما رآهم يركضون، قال لنفسه: يبدو أن هناك عرساً بالفعل.

انطلق راكضاً خلف البنات والأولاد، وأنا ركضت، ركضت لسبب مختلف، مختلف تماماً، ولا يحتمل المزاح.

الابن الصغير

قال: ابننا الصغير، عبد الرحمن، خرج من السجن وعاد إلى البيت. فرحت أمّه وأختاه، وفرحت أنا لأنه عاد. أمّه وقفت في شرفة بيتنا وأطلقت الزغرودة تلو الأخرى، والمستوطنون وقفوا في الشرفة المقابلة وهم يتابعون المشهد في عدم ارتياح.

ابننا عبد الرحمن خرج من السجن بلحية طويلة ومسبحة، وأنا أشفق عليه لأنه يظلع قليلاً من مرض قديم. قلت في سري: اللهم اجعله خيراً، أنا لا أحب التعصب والمتعصبين (فريد الدين العطار اعتبر المتعصب جاهلاً). أمّه رفعت راية بيضاء على سطح البيت ابتهاجاً بعودة الابن السجين.

جاء رجال الحيّ إلى بيتنا للتهنئة، وجاءت نساء الحيّ. أمّه رقصت مثل شابة في مقتبل العمر، وأختاه رقصتا. والنساء رقصن وغنين، ولم يتوقفن عن ذلك إلا حينما انتصف الليل.

في هدأة الليل، بكى عبد الرحمن وهو يستغفر الله، ولم يفصح عن سبب البكاء، وأنا وضعت يدي على قلبي، وقلت بصوت مسموع: اللهم اجعله خيراً يا الله.

زيارة

يأتي الامبراطور ومعه زوجته لزيارة القدس بدعوة من أصدقائه الأتراك. تمتد الرحلة من برلين إلى القدس بضعة أسابيع. أخيراً وصل الموكب واقترب من سور المدينة. دخلها الامبراطور من ثغرة فتحت خصيصاً في السور (تلك كانت رغبة الامبراطور). زوجته تتأمل البيوت والحوانيت وشعرها ينسدل على عينيها مثل نساء الحكايات.

بعد الطواف في المدينة توجه الموكب إلى القصر الذي بني خصيصاً للامبراطور وزوجته على جبل الطور. القصر حمل اسم الزوجة لكي يظل اسمها محفوراً في ذاكرة المدينة.

الزوجة وقفت في إحدى شرفات القصر، وألقت نظرة على المدينة فأعجبها المشهد، تحركت مشاعرها على نحو لم تعهده من قبل. احتدمت في داخلها رغبة جامحة. بحثت عن زوجها الامبراطور فلم تعثر عليه. ربما كان في اجتماع سري له علاقة بمستقبل هذه المدينة، التي تتنافس على النفوذ فيها دول وجماعات. بحثت عنه فلم يدلها عليه أحد.

شوهدت أوغستا فكتوريا وهي تركض في أنحاء القصر مثل نحلة لا يقرّ لها قرار. قيلت في تفسير هذا الركض أقوال كثيرة، ونسجت حكايات.

زحف

قال: رأيتهم في الصباح المبكر وهم يتلمسون حيطان البيت. يضعون إشارات بالحبر الأحمر على الحيطان، ثم يتلمسون بأيديهم شعر لحاهم. قلت لهم: ابتعدوا عن بيتنا. قال أحدهم: هذا بيتنا، معنا أوراق تثبت ذلك.

قلت لهم: أوراقكم مزورة. واصلوا وضع الإشارات. خديجة قذفت نحوهم واحداً من أصص الورد. أحدهم أطلق من بندقيته طلقة في الفضاء.

تجمهر الناس. جاء صحافيو محطات التلفزة ومصوّروها. أنا وخديجة ما زلنا في ملابس النوم. عبد الرحمن كان مستاء مما يرى. رباب وأسمهان كانتا مرعوبتين. وسوزان تقف معنا وهي لا تصدق ما تراه.

جاء العسكر. أمروا الناس بالتفرق. أنا وزوجتي صعدنا الدرج ووقفنا خلف شباك غرفتنا.

عبد الرحمن جلس في غرفته يقرأ القرآن. سوزان ذهبت إلى وظيفتها. والعسكر ظلوا مرابطين قرب بيتنا حتى المساء.

بعد ساعة

جاء إلى البيت المهدد بالإخلاء لكي يكتب تقريراً للصحيفة. رحب به عبد الرزاق، ولم تحتجب عنه النساء. خديجة قدمت له القهوة منذ اللحظة الأولى. رباب أحضرت صحن الفاكهة. أسمهان وقفت بالباب وفي يدها كتاب، ثم اختارت أقرب مقعد لها وجلست (الابن الأكبر في مكان ما في هذا العالم، وعبد الرحمن خارج البيت، ولو كان هنا لأبدى تذمراً من جلوس أمّه وأختيه في حضرة شخص غريب).

كان الوقت مساء وفي الخارج مطر. الكاتب يحفزه طقس المطر على الكتابة. وعبد الرزاق منهمك في سرد الوقائع. والكاتب يدوّن ما يسمعه، وبين الحين والآخر يرفع رأسه عن الأوراق. يرمي نظرة عجلى نحو خديجة الجالسة إلى جوار زوجها، ولا يندر أن تضيف بعض معلومات نسيها الزوج، ويرمي نظرة نحو رباب الجالسة في حالة إصغاء. تلتقي عيناها بعينيه. عينا الكاتب واسعتان عسليتان، وعينا رباب واسعتان عسليتان. وأسمهان تجلس في الركن البعيد وفي يدها الكتاب.

وهو بعد ساعة من التدوين، بدا أكثر اهتماماً بأمر البيت المهدد بالإخلاء، بدا أكثر اهتماماً برباب.

لقاء

رباب التقته في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه. أحضرت معها أوراقها التي تكتب فيها قصائدها، لكي يقرأها ويقدم لها ما يراه مناسباً من ملاحظات. رباب أبدت إعجاباً به منذ جاء إلى بيت أبيها، ليكتب تقريراً عن البيت المهدد بالإخلاء.

هو أكبر من رباب بعشرين سنة، ورباب وجدت فيه غموضاً محبباً لا يتوافر في الشباب الخفيفين الذين يدرسون معها في الجامعة. ثمة فرق كبير بين مزاج الكاتب الذي قرأ كتباً كثيرة، وكتبَ مئات الصفحات، وبين ولد في الجامعة لا يتقن كتابة صفحة واحدة.

هو يقرأ قصيدة من قصائد رباب ولم يلبث أن أبدى إعجابه قائلاً: ياه! رباب تشرب القهوة وقلبها ينبض بتسارع محموم. قلب الكاتب أيضاً ينبض بالتسارع إياه.

ابتهال

قال: توضأت وخديجة توضأت، وابتهلنا إلى الله لعله يعيده إلينا. قال: أخذته الغربة منا ولم يرسل لنا رسالة واحدة، لم يحدد لنفسه عنواناً لكي نطمئن عليه. وقفت بين يدي الله ووقفت خديجة خلفي استعداداً للصلاة. قلنا له ونحن بين يدي الله، إن بيتنا مهدد بالإخلاء فماذا نفعل؟ قل لنا يا ابننا الحبيب الذي تركنا ومضى نحو المجهول. ناجيناه: عد إلينا، إن أجبرونا على إخلاء البيت، فنحن معرضون لمأساة.

قلنا له هذا الكلام ونحن بين يدي الله. أمّه أضافت إلى الكلام دموعاً ساخنة تحدّرت من عينيها أثناء الصلاة وبعدها. .

يوم الأحد

تتجول في الأزقة القديمة. في يدها كتاب يروي تاريخ المدينة. عيناها على الحيطان ومداخل البيوت. راقها الأسلوب الأيوبي في العمارة: زقاق معتم ثم فسحة مضيئة قبل الوصول إلى ساحة البيت. توقفت غير مرة وهي تدقق في صفحات الكتاب. جاء صديقها الذي يعمل متدرباً في مكتب للمحاماة. سلّم عليها وسارا معاً. ارتقيا أدراجاً في أزقة وأسواق. هبطا أدراجاً في أزقة وأسواق. وأجراس الكنائس تصدح في تناغم واتساق. إنه يوم الأحد. وسوزان مبتهجة هذا الصباح، تمشي إلى جوار صديقها، وصديقها قال: كم أحب يوم الأحد! وهي قالت كلاماً مشابهاً، وظلا يمشيان في المدينة إلى ما بعد المساء، حتى لم يعد في أسواق المدينة أحد.

سوق العطارين

مشت في سوق العطّارين ومشيت معها. هيأتُ لها الفرصة لكي تشتري ما تريد. السوق هادئة تفوح منها روائح التوابل والبهارات والأعشاب. اشترت قزحة وقرفة وفلفلاً مطحوناً وزنجبيلاً وعود الندّ، وأشياء أخرى قرأتُ عنها في كتاب من كتب الأجداد. وهي ترمقني الآن بحنان، وأنا أقف إلى جوارها مثل طفل وديع تأخذه أمّه معها إلى السوق.

عدنا إلى البيت لا تفارقنا الروائح المشتهاة، ولن تفارقنا لأيام ولشهور. رباب تتحول في الليل إلى شهر زاد، تحرق البخور وتسمعني أحلى كلام.

كرسيّ

يذهب إلى محلات بيع الأثاث القديم. يعثر على كرسي من خشب عمره مئة عام، ربما صنعه نجار ماهر لسلطان تركي. يعثر على مخطوطة قديمة، ملعقة من نحاس وأخرى من فضة، وفناجين مزينة برسوم. يعثر على قطع من قماش موشاة بتطريز متعدد الألوان.

يعود إلى البيت وهو متحمس لما اشتراه، يسألها رأيها في ما اشتراه. تزمّ شفتيها ثم يتحاوران. يتوصلان إلى قناعة مشتركة حول بعض ما اشتراه (المخطوطة القديمة مثلاً). ينشغل في اختيار المواقع الأنسب في البيت لوضع المقتنيات، ولعرضها بالطريقة التي تجعلها محطّ إعجاب الزائرين.

في المساء، يجلس على الكرسي الخشبي الذي له من العمر مائة عام، ويرى أنه سلطان غير متوّج، وبالقرب منه تجلس رباب، كما لو أنها سلطانة هذا الزمان.

موطئ قدم

ونحن في السرير، رباب تقرأ «الساكن الجديد» ليوجين أونيسكو وأنا أقرأ «منطق الطير» لفريد الدين العطار، توقفتُ فجأة عن القراءة وسألتها: هل قلتِ موطئ قدم هذا النهار؟ توقفتْ عن القراءة وقالت: نعم قلت. سألتني: لماذا سألت؟ قلت: هل تخشين ألا يبقى لنا موطئ قدم في البيت؟ قالت: نعم، بسبب ما تحضره كل يوم من مقتنيات قديمة.

سألتها: والمدينة، هذه المدينة، هل سيبقى لنا موطئ قدم فيها كما تعتقدين؟ نظرت إليّ دون أن تجيب.

نهضتْ من السرير وقالت إن الطقس حارّ. وقفت قرب الشباك وبدا جسدها جميلاً وهي في قميص النوم. أرسلتْ نظرة نحو أضواء المستوطنة التي تتمدد شرقاً وشمالاً وجنوباً. قالت: إنني خائفة! نهضتُ ووقفت إلى جانبها وهي تتأمل المشهد المريب وقلت لنفسي: أنا السبب، أنا السبب.

جولة صباحية

تنهض من نومها، تغتسل، وتشرب قهوتها. ترتدي ملابسها وتغادر بيتها للتمشي في أسواق المدينة. تتمشى في الأسواق وهي خاشعة كما لو أنها في مسجد أو في كنيسة. تتلمس حيطان البيوت، تتشمم روائح الحجارة، تصغي إلى كلام الشرفات. كلام لا يسمعه ولا يفهمه أحد سواها كما تعتقد.

تتأمل الشبابيك المفتوحة على هواء المدينة، تشاطرها انتعاشها ولذة العيش في الصباح.

تتأمل الناس في الحوانيت، خلف شبابيك البيوت، في الساحات وعلى الأدراج، في المقاهي، في المطاعم، في الأزقة وعلى الشرفات.

عند لحظة معينة، تشعر بأنها امتلأت، تعود إلى بيتها مثل امرأة حامل. هناك، في مرسمها تتشكل على قماش اللوحة مدينة عامرة بالناس، مثقلة في الوقت نفسه بالأسى والخسارات.

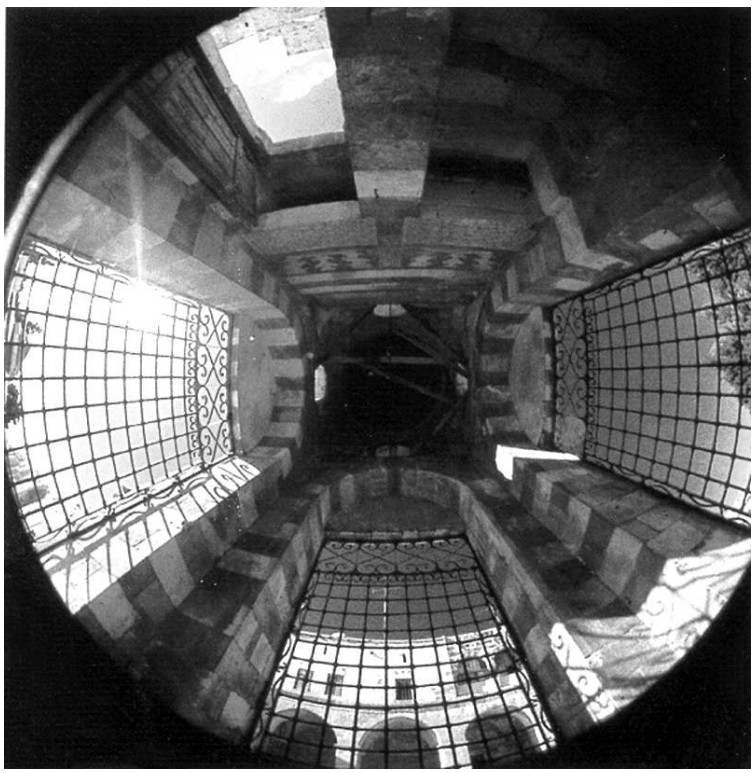

سقف قبة الصخرة من الداخل. شيّد عام (604هـ - 1227م).

دراسات

الكزاندر شولش
محمد الأرناؤوط
هنري لورانس

مقدمة تاريخية

الاهتمام الأوروبي بفلسطين
فتح الأرض المقدسة*

الكزاندر شولش
نقلها إلى العربية: كامل العسلي

قبل أن نبحث في تأثير التغلغل الأوروبي في تطور الزراعة والتجارة الخارجية وظروف ملكية الأراضي والمدن والبنية التحتية لفلسطين، علينا أن ندرس أولاً جماع ارتباطات المصالح الأوروبية السياسية الاستراتيجية والدينية والثقافية والاقتصادية – أن ندرس المطامح الأوروبية في «الأرض المقدسة». وسوف نبرز في هذا الصدد أيضاً الأسس التي وضعت في القرن التاسع عشر للتفاهم الأوروبي حول فلسطين وللسياسة الأوروبية إزاءها في أوائل القرن العشرين، وسوف نبين أي دور محدد أسند إلى «الأرض المقدسة» في سياق التوسع الأوروبي في منطقة شرقي البحر المتوسط. وبهذه الطريقة سوف نعرّي الجذور التاريخية للاستخفاف الذي أثقلت به أوروبا الشرق الأدنى بالنزاع حول فلسطين، وهو نزاع لم ينشأ في هذا الإقليم نفسه، وإنما زرع فيه من الخارج.

* انظر تحولات جذرية في فلسطين ص 81-86. إذ ترد هذه المقدمة في كتاب:

Palästina im Umbruch 1856-1882 by Alexander Schölch(Stuttgart 1986)pp 59-80.

★

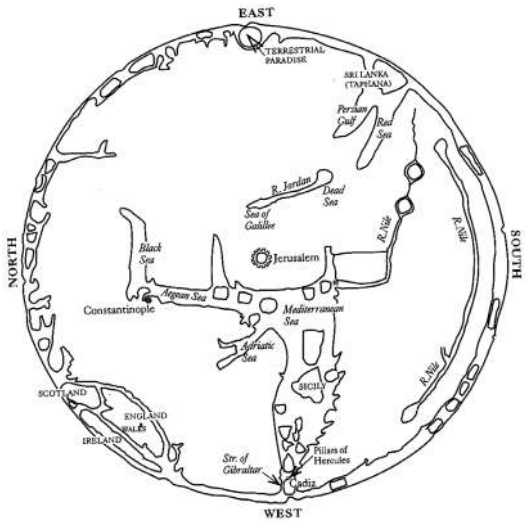

إن المسألة تتعلق إذن ببيان تنوع المطامح الأوروبية في فلسطين، الأمر الذي جعل من «الأرض المقدسة» - كما كان موضع التأكيد دائماً حتى قيام الانتداب البريطاني –حالة خاصة في الشرق الأدنى، لا تسمح لأي دولة أوروبية بأن تستأثر بمفردها بالسيطرة وإنما كانت تتطلب إشرافاً دولياً، نظام حكم دولياً الخ. أما الحلف الذي نشأ فيما بعد بين الإمبريالية البريطانية والصهيونية وخروج المنافسين الأوروبيين الآخرين أو إزاحتهم فيستند إلى ظروف خاصة تماماً. إن كتابة التاريخ يمكن أن تصبح بسهولة كتابة تاريخ النجاح، أي تاريخ الحركات الناجحة. ولكننا هنا سنعالج تاريخ «الفاشلين» بصورة أكثف مما جرت عليه العادة. وبذلك يجرّد النجاح من مظهر الحتمية.

بناء على وصف المصالح الأوروبية في فلسطين، وهي المصالح التي نشأت بصورة خاصة بعد حرب القرم، أصبح من الواضح أيضاً أن الحركة الصهيونية لم تكن إلا حركة واحدة من جملة الحركات الأوروبية في القرن التاسع عشر التي كانت تهدف إلى إعادة الاستيلاء على فلسطين واستعمارها –بل إنها جاءت في شكلها المؤسسي متأخرة نسبياً عن سواها- كما أن انتصار هذه الحركة على ما عداها من المطامح التي كانت تنافسها لم يكن مؤكداً بشكل من الأشكال حتى قيام الانتداب البريطاني، ولم يكن نجاح الصهيونية في ذلك نتيجة لبراعة بضعة من ممثليها ولا لكرم عدد من الساسة البريطانيين المنفردين، بل إنه جاء نتيجة لشكل التجمعات الدولية التي أوجدتها الحرب العالمية وللوحدة الجزئية في مصالح الإمبريالية

★خارطة تخطيطية من رسم هيرفورد، وتسمى باسمه. وهي تصوّر تقليدي للعالم ولتوزيع سكانه في القرن الثالث عشر. إذ ينتشر غالبية السكان في العالم كما تبيّن الخارطة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ولم تتسع هذه الخريطة في منظورها لتشمل خط الاستواء. وقد شاعت مثل هذه الخريطة في منتصف القرن الثالث عشر حيث قام سولتر Psolter بعمل خريطة مماثلة في لندن خلال الستينات من القرن الثالث عشر. وأكثر ما يلفت النظر في مثل هذه الخرائط هو تصوّر العالم الغربي الأوروبي القدس على مدى قرون على أنها قلب العالم. (مكتبة المتحف البريطاني.. رقم المخطوطة Additional MS. 28681, f.9).
هذه الخارطة من إعداد **المجلة الثقافية** وهي ليست جزءاً من المقدمة، وإضافتها هنا بقصد التوضيح.

البريطانية والحركة الصهيونية، وهي الوحدة التي مهد لها الطريق فكرياً الصهيونيون الإنجليز من غير اليهود (Gentile Zionists) في القرن التاسع عشر، وهم الرواد غير اليهود للصهيونية ومشجعوها.

إن انطلاقة البحث ينبغي أن تكون فتح «الأرض المقدسة» أمام تغلغل أوروبا السياسي والديني الثقافي خلال الحكم المصري على سوريا الجغرافية بما فيها فلسطين (1831-1840)، وبتحديد أكثر سنة 1838، وهي السنة التي حل في القدس فيها أول قنصل أوروبي، ألا وهو القنصل البريطاني. إن المصالح الأوروبية في فلسطين خلال العقود الأربعة التالية يمكن أن تشرح على مستويين: مستوى سياسة الحكومات الأوروبية، وفي مقدمتها حكومات إنجلترا وروسيا وفرنسا وبروسيا أو ألمانيا، ومستوى المطامح والتيارات والحركات الاجتماعية غير التابعة للدول والتي تشكلت في جوها السياسة الأوروبية تجاه فلسطين في القرن التاسع عشر.

ونذكر بشكل خاص ضمن هذه الأخيرة إلى جانب الاهتمام المسيحي واليهودي التقليدي بفلسطين، فكرة «إعادة اليهود» Restoration of the Jews الانجلكانية الألفية★، وفكرة «الحرب الصليبية السلمية» التي انتشرت بشكل رئيسي في القارة الأوروبية، وكذلك المطالب المرتبطة بها في كثير من الأحيان، والخاصة باستعمار فلسطين من قبل الأوروبيين، وهي المطالب التي ربطت بها مطامح اليهود الأوروبيين السابقة للصهيونية ثم مطامحهم الصهيونية آخر الأمر.

إن أساس التغلغل الأوروبي في فلسطين في القرن التاسع عشر وعنصر مصالح الدول والمصالح الاجتماعية المرتبطة به هو الحقيقة التي مؤداها أن الإشراف على «الأرض المقدسة» الذي يقتصر على دولة واحدة من الدول الأوروبية دون سواها كان يبدو حتى نهاية الحرب العالمية الأولى من الأمور التي لا تعقل. ولكن كل دولة من هذه الدول كانت تطمع في بناء وجودها في فلسطين وتدعيمه، وخاصة بطرق التغلغل الديني الثقافي و«حماية» الأقليات الدينية، ولهذا فإنها قد شجعت بقوة النشاطات التبشيرية والخيرية والثقافية التي كان يقوم بها رعاياها.

ولكي نتفهم الوضع بصورة أفضل سوف نوجز أيضاً التطور الذي حصل منذ نهاية الثلاثينات حتى حرب القرم. في سنة 1831 حرّك حاكم مصر محمد علي الجيش المصري بقيادة ابنه إبراهيم ضد سيده سلطان القسطنطينية، واستولى على سوريا الجغرافية بأسرها، بما فيها فلسطين. ولكي يكسب رضا الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا، على سياسته التوسعية أزال من جهته في المناطق المفتتحة أشكال التمييز الرسمي ضد أتباع الطوائف

★ Chiliastisch

الألفية Chiliasm (من الكلمة اليونانية خلياس بمعنى ألف): مذهب ديني صوفي يقول بعودة المسيح إلى الأرض وقيام العهد الألفي السعيد الذي يحكم فيه المسيح ألف عام تسودها العدالة والمساواة والبركة والخير. انبثقت عقائد هذا المذهب من المظالم والآلام التي كان يعاني منها العوام في عصور الرق والإقطاع وانتشرت انتشاراً واسعاً زمن المسيحية الباكرة ثم انبعثت على الدوام في تعاليم مختلف الشيع والملل في القرون الوسطى -المترجم.

الدينية غير الإسلامية. وأصبح هؤلاء يعاملون على قدم المساواة مع سائر رعايا الحكم الجديد، بل إنهم ميزوا عن غيرهم في بعض الأحيان. ومن جهة أخرى سهل محمد علي للأوروبيين التغلغل السياسي والديني الثقافي بأن سمح لهم بفتح قنصليات في داخل البلاد وبتوسيع النشاطات الدينية التبشيرية والاعتراف بمؤسساتها.

وكان أهم الأحداث في فلسطين في هذا المجال حلول قنصل بريطاني في القدس في سنة 1838. وبما أنه كان يترتب على العثمانيين أن يواصلوا السير في سياسة محمد علي بعد طرد المصريين (1840) فقد شهدت القدس في الأربعينات دخول المزيد من القناصل الأوروبيين وكبار رجال الدين. وبذلك اكتسب اهتمام الرأي العام الأوروبي بـ«الأرض المقدسة» قوة دفع ضخمة، ووقعت فلسطين بصورة مباشرة في دوّامة تضارب المصالح بين الدول الأوروبية الكبرى في إطار «المسألة الشرقية» للقرن التاسع عشر. وإذ كانت الأنظار مسلطة على «الأرض المقدسة» على هذا الوجه، فقد تيقظت الأطماع، وحيكت الخطط وأطلق العنان للرؤى، التي ما كان لها أن تجد سياسياً طريقاً إلى التنفيذ على أية حال، على الرغم من أن السلطان لم يكن في استطاعته إقصاء المصريين عن سوريا وفلسطين إلا بمساعدة أوروبية (بريطانية ونمساوية على الأخص).

كان التدخل الأوروبي نابعاً من إرادة الدول في الحفاظ على سلامة أراضي الدولة العثمانية. فقد ظلت المحافظة على نواة الدولة الأساسية الهدف الأول للسياسة البريطانية في الشرق بصورة خاصة. ونظراً لأنه لم تكد تتوفر لهذه الأسباب أية إمكانية للتوصل إلى اتفاق لتقسيم الدولة، قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كان على جميع الدول أن تقبل، راضية أو مكرهة، بهذه المقدمة الأساسية لسياسة الدول الكبرى الأوروبية في الشرق الأدنى. إن «المسألة الشرقية» للقرن التاسع عشر كانت المشكلة الصعبة التي تتمثل فيما يلي: أي قدر من الدولة العثمانية كان لا بد من المحافظة عليه وبأي صورة يتم ذلك بما يكفل مصلحة الدول الأوروبية.. إن فلسطين كانت على أية حال من ضمن النواة الأساسية، ولذا فإن التغلغل الأوروبي فيها لم يكن يدور حول السيطرة الإقليمية، بل حول النفوذ، ومن أهم الأشكال التي كان يطمح في بسط النفوذ من خلالها «حماية» الأقليات غير الإسلامية في الدولة العثمانية. وهذا العامل أصبح ذا أهمية حاسمة لتطور فلسطين المقبل حتى الحرب العالمية الأولى. وأي مكان غير «الأرض المقدسة» كان يمكن لزيادة النفوذ فيه عبر التغلغل الديني الثقافي وعبر إنشاء «محمية دينية» أن تعد بنجاح أكبر؟

تأسيس الوجود الإنجليزي والبروسي

فيما يتعلق بالنفوذ عن طريق «حماية» الأقليات، كان لروسيا وفرنسا، بوصفهما «الدولتين الحاميتين»، التقليديتين لكل من المسيحيين الأرثوذكس، والمسيحيين الكاثوليك في فلسطين كما في الشرق كله، كان لهما في نظر إنجلترا سبق لا بد من تداركه. لقد كان على الدول البروتستانتية، وفي مقدمتها إنجلترا وبروسيا، أن تجد أولاً أو أن تخلق محميين يلوذون بها: اليهود والبروتستانت. وإذ أدركت بريطانيا أن عليها أن تضع شيئاً ما في مواجهة القواعد «الطبيعية» لكل من روسيا وفرنسا في «الأرض المقدسة» إذا كان لها أن تثبت قدمها هناك على الإطلاق وأن يكون لها رأي في تسيير الأمور، فقد أسفر ذلك عن تعيين قنصل بريطاني في القدس سنة 1838. وكان مفروضاً في هذا القنصل

في المقام الأول أن يكون قوة مضادة لموازنة التوسع الروسي المخوف الجانب، أي إن الخطوة الأولى للتغلغل الأوروبي المنتظم في فلسطين جاءت في سياق التنافس الأوروبي في «المسألة الشرقية». وبقي هذا التنافس العامل الأهم في الفترة التي نعالجها هنا.

ومع هذا فلم يكن للبروتستانتية بعد أي قاعدة مؤسسية في «الأرض المقدسة» تمكنها من مزاحمة المؤسسات الدينية للأرثوذكس والكاثوليك. وتم خلق هذه القاعدة بتأسيس أسقفية إنجليزية بروسية في القدس (1841) وببناء كاتدرائية بروتستانتية (كنيسة المسيح-Christ Church، دشنت سنة 1849). وجاء تنصيب أسقف بروتستانتي نتيجة لنشاطات الجمعيات التبشيرية البريطانية (وعلى الأخص The Church Missionary Society التي أسست سنة 1799، وكذلك The London Society for Promoting Christianity among the Jews المؤسسة سنة 1809)كما جاء نتيجة للمصالح السياسية للحكومة البريطانية ولسياسة بروسيا تجاه الكنيسة في عهد فريدرش فيلهلم الرابع.

إن الملك البروسي كان يهدف، وهو في صدد بناء كنيسة دولة بروتستانتية موحدة، كنيسة عليا تتخذ لها مثالاً إنجليزياً تحتذيه، إلى أن يصنع لذلك بداية حافلة بالرمز بتأسيس أسقفية إنجليكانية-إنجيلية في القدس. وكان مبتكر هذه الفكرة والمفوض بتنفيذها هو المبعوث بنزن Bunsen الذي أجرى المفاوضات في لندن سنة 1841.

وقد كتب فريدريش فيلهلم الرابع في تعليماته الموجهة إلى بنزن يقول:

إن الوضع الحالي للشؤون التركية، الذي من الواضح أنه لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه دون الإرشاد الإلهي، وعلى الأخص الموقف السياسي لإنجلترا وبروسيا من هذا الوضع، قد أتاح للمسيحية الإنجيلية للمرة الأولى أن تطالب بمركز لها في مهد المسيحية وفي الأرض الموعودة وجنباً إلى جنب مع كنائس الشرق العريقة في القدم وكنيسة روما، وكعضو متساو في كنيسة المسيح العامة، بحيث تضمن للإنجيل كرازة حرة، وللذين يدينون بالحقيقة الإنجيلية المجاهرة الحرة بعقديتهم والحماية المتساوية. إن هذه اللحظة هي لحظة مهمة في التاريخ العالمي. وبحسب الالتفات إليها والاستفادة منها أو التنكر لها والاستهانة بها سيكون حكم التاريخ وحكم الله على الكنيسة الإنجيلية.

إن فكرة إنشاء أسقفية بروتستانتية لم تكن فكرة جديدة في إنجلترا. وقد دعا إليها بشكل خاص إيرل شافتسبري القوي النفوذ. ولذلك جاء الاتفاق مع بروسيا بسرعة خصوصاً وقد اعترف للكنيسة الانجليكانية بالنفوذ الأكبر. واتفق على أن يقوم التاجان الإنجليزي والبروسي بتعيين الأساقفة بالتناوب، لكن هؤلاء كانوا يرسمون دائماً من جانب رئيس أساقفة كانتربري. وكان على بروسيا وإنجلترا أن تتكفلا بنفقاتهم على قدم المساواة.

وكان من الأمور الحاسمة في اختيار الأسقف الأول، وهو اليهودي المتنصر مايكل سولومون الكزاندر، وجود عامل آخر إلى جانب هدف خلق نواة تبلور بروتستانتية في فلسطين. وكان هذا العامل هو المسعى الرامي إلى تنصير اليهود وإعادتهم «The Restoration of the Jews»، وهو المسعى العزيز على قلب الإنجيلية البريطانية، الذي كان من المفروض أن يتلقى دفعاً حاسماً من القدس.

وقبل تعيين قنصل بريطاني كان مبشرو «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» The London Society for Promoting Christianity among the Jews أهم ممثلي بريطانيا في «الأرض المقدسة». وعلى هذا فإن المهمة الرئيسية للأسقف الكزاندر كانت تنصير اليهود. وترتب على الكزاندر أن يخلق أولاً طائفة بروتستانتية من اليهود المتنصرين. وكان ممثل الجمعية اللندنية المذكورة أعلاه هو أيضاً الذي بدأ منذ سنة 1839 ببناء كنيسة بروتستانتية دون إذن من السلطات. وكان يتعين انتظار فرمان السلطان، الذي منح الترخيص النهائي بالبناء، حتى عام 1845؛ وأصبح في الإمكان تدشين الكنيسة أخيراً سنة 1849.

إن النجاحات التي تم إحرازها في تنصير اليهود لم تتجاوز في الواقع الحد الأدنى، وقد بدا أن مقاومتهم لا يمكن التغلب عليها. ولذلك فإن خليفة الكزاندر، وهو ساميول جوبات، الذي عينته بروسيا وفقاً للدور المتفق عليه، والذي وصل إلى القدس سنة 1846، قد نحّى الهدف الأصلي جانباً بصورة تامة ووجه حماسته التبشيرية إلى المسيحيين الأرثوذكس المحليين في الدرجة الأولى. وفي موازاة هذا التحول في التوجه السياسي وفي نشاطات الأسقفية في مجال الهداية وضع يهود فلسطين على أية حال تحت الحماية السياسية المعززة لإنجلترا.

وبعد أن تلقى القنصل البريطاني الأول يونغ Young تعليمات بأن يعتبر الحماية العامة لليهود، جزءاً هاماً من مهام وظيفته أصبحت هذه المهمة مرة أخرى من المهام العزيزة للغاية على قلب خلفه فن Finn (الذي تولى منصبه في ربيع سنة 1846م). وكان عليه أن يأخذ جميع اليهود، سواء كانوا من الرعايا البريطانيين أم لا، تحت جناح حمايته. وفي سنة 1839 كتب يونغ في تقرير بعث به إلى لندن يقول: هناك فريقان سيطالبان في المستقبل بلا شك بأن يكون لهما حق قوي في إبداء الرأي في شؤون فلسطين: وأحد هذين الفريقين هم اليهود الذين أعطاهم الله في الأصل ملكية هذه البلاد، والفريق الآخر هم المسيحيون البروتستنت، أحفادهم (اليهود) الشرعيون. وبريطانيا العظمى هي الحامي الطبيعي لكلا الفريقين اللذين يريدان الآن أن يندرجا في صفوف الطامحين إلى فلسطين.

وبعد أن حصل البروتستنت سنة 1850 على الاعتراف بهم كطائفة دينية رسمية في الدول العثمانية وضع أساس قوي لممارسة وظيفة الحماية هذه: فبالاشتراك مع بروسيا تم تأسيس أسقفية بروتستنتية، وأصبح للقدس «كاتدرائية» إنجيلية. وأخذت إنجلترا على عاتقها حماية جميع اليهود في فلسطين، وخصوصاً أولئك الذين كانوا مغرمين بها. وكان على كل من تجاوز ذلك من الآمال والمطامح ذات الطبيعة السياسية أن يبقى في عداد الأماني.

وفي كل مكان في أوروبا كانت تبرز خلال «الأزمات الشرقية» في الثلاثينات وبداية الأربعينات، وخاصة فيما يتعلق بدعم الدول الأوروبية للسكان في طرد المصريين من سوريا، مشروعات ومطالب بشأن «امتلاك» «الأرض المقدسة» أو الإشراف عليها.

ورداً على التماس اقترح فيه إقامة دولة القدس المسيحية المستقلة تحت حماية الدول الكبرى أجاب فريدريش فيلهلم الرابع في أمر إداري لمجلس الوزراء مؤرخ في 31/8/1839، قائلاً في استسلام: «إنني أشاطركم الرأي حقاً فيما أفصح عنه التماسكم.. من رغبة في رفع القدس إلى دولة مسيحية. وأرجو أن لا

تخطئوا بهذا الصدد في تقدير الصعوبات التي تعترض هذه الرغبة وأن لا تخدعوا أنفسكم حول سهولة التنفيذ». ومن أوساط المبشرين الإنجليز انطلق سنة 1841 نداء يدعو إلى عدم ترك هذه اللحظة، التي لا يمكن أن تعود، تفوت دون أن تستغل، في وقت يجري فيه التفاوض بشأن الأقاليم التابعة لـ«دولة الأتراك المختلة النظام». وعلى أوروبا أن تطالب الباب العالي بنقل ملكية فلسطين للمسيحية، لكي يتسنى تحويلها برعاية أمراء أوروبا المسيحيين إلى إقليم مسيحي مستقل يحكم نفسه بنفسه. وسينصب عليها أمير ترضى به جميع الأمم المسيحية، وتعترف بسلطته الملكية اعترافاً تاماً. والسلطان سيوافق بلا شك لأن هذه الإمارة المسيحية ستغدو بعدئذ جداراً واقياً ضد أطماع حاكم مصر التوسعية.

ومع ذلك فإن «الفرصة» فاتت دون أن تستغل. وفي هذا الشأن كتب أحد دعاة «الحملة الصليبية السلمية» فيما بعد يقول: «لو كنا أفضل اطلاعاً على الأمور بعد إرجاع الأرض الموعودة إلى ملكية الأتراك 1840 بفضل الحملة الصليبية المعكوسة للدول المسيحية، لكانت المفاوضات حول تنظيم الممتلكات المسيحية قد حققت أهدافها. إن ملك بروسيا، الكريم المحتد المسيحي النزعة فريدريش فيلهلم الرابع، هو وحده الذي سعى إلى إثارة اهتمام الدول المتحالفة خدمة لقضية المسيحيين المشتركة، بيد أنه لم يستطع أن يجمع أمرها على اتفاق».

ولكن في الوقت نفسه جاء الصهيونيون من غير اليهود The Gentile Zionists في إنجلترا بأفكارهم حول إعادة اليهود إلى شؤون السياسة اليومية، أي أن هذه الأفكار أخذت تصاغ على مستوى السياسة الخارجية. وتحت نفوذ اللورد شافتسبري حاول بالمرستون سنة 1840 أن يكسب السلطان إلى جانب تشجيع اليهود على «العودة» إلى فلسطين أو الاستيطان فيها: فإن السلطان والدولة سينتفعان من جهة من الثروة التي سيهبها إلى فلسطين «عدد كبير من الرأسماليين الأثرياء»، ومن جهة أخرى سيشكل اليهود هناك حاجزاً ضد أطماع محمد علي في المستقبل. أما رجال الاكليروس والساسة، وموظفو المستعمرات والضباط في الأربعينات، فقد بزّوا أولئك في التوجه إلى الهدف مباشرة: لقد طالب هؤلاء بإقامة مستعمرات يهودية بهذا الشكل أو ذاك، أو حتى بدولة يهودية تحت الحماية البريطانية بهدف «إعادة اليهود The Restoration of the Jews» وحماية المصالح الاستراتيجية والتجارية البريطانية في هذه المنطقة. ولم ترتفع المطالبات بامتلاك بريطانيا المباشر لفلسطين أو إشرافها المباشر عليها، سواء لمصلحتها هي أو من أجل إعادة اليهود، بهذا الزخم مرة أخرى إلا في سنوات الأزمة حوالي 1882، ثم بعدئذ خلال الحرب العالمية الأولى.

فرنسا وفلسطين

إن إنجلترا وبروسيا قد افتتحتا إذن بتنصيب قنصلين بريطاني وبروسي (سنة 1838-1842) وأسقف بروتستنتي في القدس حلبة المنافسات الدينية السياسية بين الدول الأوروبية في فلسطين، لأن هذه الإجراءات تحدّت الفرنسيين والروس لإنشاء مؤسسات جديدة تدعم الوجود الكاثوليكي الفرنسي والأرثوذكسي الروسي. إن الدور «التقليدي» لحامي مسيحيي الشرق لم يستتبع حتى الآن بأي شكل من الأشكال قيام نفوذ سياسي خاص لروسيا وفرنسا في فلسطين. ولذلك فقد بدأ الآن في سنوات الأربعين، وبصورة أشد بعد حرب القرم (1853-1856) سباق من أجل تأمين الامتيازات الأوروبية والوجود الديني والثقافي الأوروبي.

إن تأسيس الأسقفية البروتستنتية تلاه إحياء البطريركية اللاتينية التي تيتمت منذ الحروب الصليبية. وبعد القنصل الفرنسي (1843) دخل القدس في سنة 1848 بطريرك لاتيني هو يوسف فاليرجا Joseph Valerge. واعتبرت فرنسا تعزيز الوجود الكاثوليكي في فلسطين مهمتها المخصوصة، والواجب الأكثر إلحاحاً للسياسة الفرنسية في «الأرض المقدسة».

ومما يثير الدهشة حقاً تلك الغزارة الفائقة التي تركز بها مواد الأرشيف الخاص بفلسطين في القرن التاسع عشر، وكذلك المراسلات بين القدس وباريس والمجلدات العديدة لمذكرات ووثائق (Mémoires et Documents) وزارة الخارجية الفرنسية، على حماية فرنسا الدينية وعلى التغلغل الديني الثقافي، وعلى مشكلات «الأماكن المقدسة» وامتلاكها، وعلى قضايا فردية مثل إعادة ترميم قبة كنيسة القيامة إلخ. وكان لا بد من بذل جهود دبلوماسية كبيرة لصد الخطر الذي تعرضت له حماية الكاثوليك في الشرق المقصورة على فرنسا من جانب إدعاءات إيطاليا وإسبانيا والنمسا. وقد أرادت هذه الدول، وكذلك الرايخ الألماني فيما بعد، بطبيعة الحال أن تتولى بنفسها «حماية» الكاثوليك التابعين لها، وكذلك المؤسسات الكاثوليكية التي تعضدها، وبحثت فضلاً عن ذلك عن محميين مسيحيين آخرين يلوذون بها.

ولم تكن سياسة الحماية الفرنسية شأنها شأن سياسات الدول الأخرى وخاصة بريطانيا تتوافق بالضرورة مع مبادئ العلاقات مع الدولة العثمانية. وتقول مذكرة لوزارة الخارجية الفرنسية مؤرخة في كانون ثاني (يناير) سنة 1873 إن العطف على السكان المسيحيين أخذ يسيطر على السياسة الفرنسية نحو الشرق، منذ حرب القرم على الأخص، وهذا بالمناسبة هو تقليد متبع. بيد أنه كان ينبغي العمل في الوقت نفسه على منع انهيار الدولة العثمانية قبل فوات الأوان. وهذا شيء متناقض حقاً، لكن هذا التناقض كان من قبل أيضاً تقليداً متبعاً.

وفي فلسطين نفسها لم يبدأ تركيز الأنظار على المحمية الدينية في التراخي إلا في نهاية السبعينات. فقد تبدّت للعيان بشكل أظهر إمكانيات أخرى للتغلغل. وكان من دواعي فخر القنصل الفرنسي سنة 1879 أنه استطاع أن يرسل أول تقرير حول حركة التجارة من يافا إلى باريس، وضمن تقريره رجاءً باطلاع غرفة التجارة في مرسيليا بصورة سرية عليه. وبعد ذلك ببضعة أشهر أسهبت القنصلية في وصف المزايا التي سيحققها تشغيل رأس المال الفرنسي في فلسطين، في بناء منشآت ميناء يافا مثلاً: وليست مرسيليا وحدها هي التي ستستفيد من ذلك، بل إن النفوذ السياسي لفرنسا سينمو أيضاً. فسوف يتسنى لنا بالطرق السلمية أن نضمن «مركزاً جديداً وطيداً» في منطقة البحر المتوسط سواء من الناحية التجارية أو الناحية الاستراتيجية. وما على الحكومة إلا أن تدع هذا «الاستيلاء السلمي» من قبل رأس المال الفرنسي يأخذ مجراه حتى التمام، إلى أن يأتي اليوم الذي قد تتوصل فيه، ربما بناء على الظروف، إلى استنتاج مؤدّاه بأنه بات من مصلحتها أن تؤمّن عسكرياً النتائج التي توصلت إليها.

وفي السنوات التالية تكدست شكاوى القناصل من أن التجارة الفرنسية ورأس المال الفرنسي في الشرق عموماً وفي فلسطين خصوصاً لم يدخلا ميدان الأعمال بصورة كافية وأنهما تركا الميدان تماماً للإنجليز وللألمان. فالمحمية الدينية ينبغي أن يضاف إليها التغلغل الاقتصادي. وينبغي أن يتم «الاستيلاء» سلمياً على سوريا وفلسطين. ومن شأن

الوجود الاقتصادي المناسب أن يضمن لفرنسا أن تؤخذ في الحسبان يوم يسوّى الحساب. (au jour de l'échéance finale).

ولهذا اليوم كانت الحكومة الفرنسية تهيئ نفسها بلا شك. ففي سنتي 1880 و1881 أرسلت بعثتين إلى سوريا وفلسطين لاستطلاع الوضع ولجمع المعلومات حول الطرق الاستراتيجية وخطوط السكك الحديدية وإمكانيات استثمار رأس المال الخ. ويقول التقرير المفصل للبعثة الأولى: ومع ذلك فلا يجوز أن يمتد احتلال سوريا من قبل القوات الفرنسية إلى أبعد من الجليل جنوباً لئلا نتورط في شبكة من التعقيدات الدينية والسياسية العويصة.

وبذلك أعلنت المقدمة الأساسية لسياسة الدول الكبرى إزاء فلسطين في القرن التاسع عشر: قد تحاول دولة من الدول عن طريق «الاحتلال السلمي» أن تثبت قدمها قدر الإمكان وأن تتبادل المراكز مع دول أخرى بيد أنه ما كان في وسع أي منها أن تفكر حتى الحرب العالمية الأولى بحكم أو إشراف مقصور عليها وحدها دون سواها. وعلى ذلك فإن سياسة حماية الأقليات بقيت الوسيلة الأنجع. وما أكده لامي Lamy في نهاية القرن بالنسبة إلى مركز فرنسا في شرقي البحر المتوسط بأجمعه ينطبق على الأقل على فلسطين: «خلافاً لتفوقنا السياسي وصدارتنا التجارية فإن حمايتنا الدينية لم تخيب توقعاتنا». وأما فيما يتعلق بالفاتيكان، فإنه ما زال يحسن صنعاً لو استمر في وضع ثقته الكاملة في «الرسالة الكاثوليكية» لفرنسا – الأكثر كاثوليكية بين جميع الأمم.

صحيح أن فكرة فرنسا حول الحماية الدينية تعرضت لبعض الاهتزاز منذ بداية القرن العشرين (بسبب السياسة الداخلية المعادية للإكليريكية في فرنسا، وبسبب قطع العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان سنة 1904، وبسبب التقسيم المفروض للحماية مع إيطاليا)، إلا أن مركز فرنسا في سوريا بأسرها ظل غير منازع فيه حتى إن إنجلترا، في سياق التخطيط لما بعد الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وجدت نفسها، كما كانت الحال من قبل، إزاء ادعاءات فرنسية كثيفة في فلسطين. وعلى نقيض دول أوروبية أخرى، وخصوصاً إنجلترا، فإن فرنسا لم تضع أبداً سياسة محددة. خاصة بفلسطين، إذ إن هذه نشأت بالأحرى وبصورة تامة في إطار سياستها نحو سوريا وحمايتها للكاثوليك. وإلى المدى الذي طورت فيه فرنسا تطلعات لإنشاء رأس جسر إقليمي في الشرق يكون مقصوراً عليها فهي قد استهدفت لبنان الماروني، استهدفت عقد حلف بين الأرز والزنبق.

روسيا وفلسطين

بينما كان دور الحماية بالنسبة للدول الغربية مفتاحاً واحداً من عدة مفاتيح لبسط السيطرة على الدولة العثمانية، وهو دور أثبت بالتأكيد فعالية خاصة في فلسطين، فإن حماية المسيحيين الأرثوذكس، أي التغلغل الديني الثقافي، كانت الأداة الأهم في يد السياسة الروسية في شرقي البحر المتوسط، بل إنها كانت في فلسطين الأداة الوحيدة من حيث الأساس.

إن وصف هوبوود Hopwood لمرتكزات هذه السياسة ينطبق أيضاً، بعد إجراء جميع التغييرات الضرورية، على سياسة الدول الأخرى تجاه فلسطين: «معظم (الساسة الروس) جعلوا من الدين، إذا كانت له عندهم أية أهمية على الإطلاق، خادماً مسخراً للسياسة. والقلق الصادق على مسيحيي

الدولة العثمانية كان الدافع الرئيسي للسياسة بالنسبة لبعضهم إلا أن ساسة آخرين –وهم عادة أولئك الذين لم يكونوا يحملون مسؤولية إدارة السياسة–كانوا يحلمون بتحرير القسطنطينية الذي بات على الأبواب من أيدي المسلمين، كخطوة على طريق التحرير الأخير لجميع المسيحيين العثمانيين.

ومع ذلك، ففي وسعنا أن نؤكد بأن روسيا لم تؤسس وجوداً سياسياً لها في فلسطين إلا بناء على نشاطات الدول الأخرى. وليس معنى هذا أن حلم الحكم الروسي لم يراود الأذهان من قبل. فكما أن فردريش فيلهلم الرابع قد أوضح رؤاه الشخصية في أمر مجلس الوزراء الذي أثبتناه أعلاه فإن القيصر نقولا الأول أفضى برأيه سنة 1833 في الإجابة على مذكرة طالبت بأن تستولي روسيا على «الأرض المقدسة»، قائلاً: «لقد حزرتم الرغبة التي هي مني في الصميم، بيد أنني أعرف أن تحقيقها صعب، وأنه سيصطدم بعقبات هامة.» إن الرغبة كانت غير قابلة للتحقيق. بل إن السياسة الروسية كانت حريصة حتى الحرب العالمية الأولى على تفادي كل ما من شأنه أن يتحدى الدول الغربية إلى القيام بإجراءات مضادة في فلسطين. وحتى الحماية المشتركة للدول الكبرى على فلسطين بعد نهاية الحكم المصري لم تصادف لدى روسيا أي هوى.

ولكن عندما جاء القناصل الأوروبيون والأسقف البروتستنتي والبطريرك اللاتيني، وبدأت نشاطات الإرساليات البروتستنتية والكاثوليكية تضيق الخناق على المسيحيين الأرثوذكس العرب، عند ذلك فقط رأت روسيا أنه لم يعد في وسعها أن تبقى مكتوفة اليدين. وبناء على ذلك أوفدت إرسالية روسية إلى فلسطين برئاسة الارشمندريت بورفيري أوسبنسكي (1843-1844 و1848-1854)، كانت مهمتها أن تتفحص الوضع وأن تشد أزر العرب الأرثوذكس وأن تقيم مركزاً متواضعاً لروسيا في البلاد. وإذا كان القنصل البريطاني قد أرسل إلى القدس لصد ما كان يخشى من توسع روسي، فإن النشاطات الإنجليزية البروسية (إلى جانب نشاطات الفرنسيين) قد استدعت الروس الآن رأساً إلى الميدان.

وبعد حرب القرم، التي انطلقت من عقالها لأسباب كان من بينها كما هو معروف مطالبة روسيا بالاعتراف بحمايتها على جميع رعايا السلطان الأرثوذكس، اتجه الرأي إلى تأسيس الوجود الروسي في فلسطين بصورة أكثر فعالية. ففي سنة 1857 كتبت وزارة الخارجية في تقرير إلى القيصر تقول: «ينبغي علينا أن نبني وجودنا في الشرق لا عن طريق السياسة، بل عن طريق الكنيسة. فلا الأتراك ولا الأوروبيون، الذين لديهم بطاركتهم وأساقفتهم في المدينة المقدسة، بمقدورهم أن يمنعونا ذلك... إن القدس هي مركز العالم. وإرساليتنا ينبغي أن تكون هناك».

وقبل ذلك بقليل كانت قد أسست شركة الملاحة البخارية الروسية (1856) التي كان من شأنها أن تزاحم خطوط البحر المتوسط الفرنسية والنمساوية وأن تنتزع منها بشكل خاص أشغال نقل الحجاج الروس إلى فلسطين. (كان الحجاج الروس يمثلون الفصيل الأقوى في سيل الحجاج السنوي إلى «الأرض المقدسة»، وقد بلغ عددهم حده الأعلى سنة 1900، حينما وصل إلى 11000) ولذلك فقد اقترح إرسال مبعوث إلى القدس يجمع في شخصه بين صفة ممثل شركة الملاحة، وصفة قنصل روسيا. وعلّق أوسبنسكي على المشروع بحماسة قائلاً: «إن الأرثوذكس سوف ينتصرون في النهاية.

إن القسطنطينية ستصبح لنا، ينبغي أن يكون لنا ممثلون في كل مكان في المشرق العربي. ينبغي أن يكون لنا شركة ملاحة، وقناصل ومبالغ كبيرة من المال. كل هذا ضروري من أجل دعم الأرثوذكسية ورفع شأنها». وهكذا وصل إلى القدس سنة 1858 في وقت واحد أسقف روسي وقنصل روسي/ وكيل شركة ملاحة. وفي السنة نفسها نقل بطريرك القدس الأرثوذكسي أيضاً، الذي كان يقيم حتى ذلك الوقت في القسطنطينية، كرسيه إلى «المدينة المقدسة».

بيد أن الاكليروس اليوناني والممثلين الروس لم يعملوا يداً بيد بالفعل. بل بالعكس. ففي روسيا كان هناك اقتناع بأن اليونانيين لم تكن لديهم لا القدرة ولا الرغبة في حماية المسيحيين العرب الأرثوذكس من الأخطار التي تتهددهم وفي تدبر الأمور المتعلقة بإشباع احتياجاتهم الثقافية والدينية. وترتب على الأسقف الروسي الجديد بناء على ذلك أن يشمل العرب بوجه خاص بمساعدته. ولهذا فقد أوجد الروس لأنفسهم زبائن من المسيحيين الأرثوذكس المحليين. متجاوزين بذلك إكليروسهم اليوناني.

وبدأ في السنوات التالية نشاط روسي محموم. شأن الروس في ذلك شأن الأوروبيين الغربيين، فقد اشتريت الأراضي وبنيت الكنائس والنزل والمدارس الخ. وكان أكثر المجمعات البنائية مهابة، «المبنى الروسي»★ الذي قام على أبواب القدس والذي لم يكن له نظير في سائر مشاريع البناء الأوروبية. وفي سنة 1882 تلقت النشاطات الروسية دفعة جديدة مرة أخرى لدى تأسيس جمعية فلسطين الأرثوذكسية القيصرية التي وضعت نصب عينيها ثلاث مهام رئيسية: مساعدة الحجاج، وتشجيع النشاطات العلمية اقتداء بصندوق استكشاف فلسطين PEF البريطاني أو جمعية فلسطين الألمانية: (Dut-scher Palästina Verein)DPV، ورفع شأن الأرثوذكسية.

وإذا كانت الحكومة الروسية قد اتبعت أي شيء منذ نهاية الخمسينيات، اللهم إلا سياسة متناسقة تجاه فلسطين، وإذا كانت نشاطات ممثليها في «الأرض المقدسة» قد صادفت العراقيل بسبب النزاعات والانقسامات المتعددة حول التصورات المختلفة للهدف، فإن الهدف رغم ذلك قد تحقق بالفعل في بداية القرن العشرين: لقد تم بناء وجود ضخم. ولم يكن يستطاع أو يراد بلوغ أكثر من ذلك أيضاً. وبعد سنة 1905 أخذ النفوذ الروسي في فلسطين يتضاءل بسرعة، بسبب ضعف روسيا الداخلي والخارجي. ومع مجيء ثورة شباط/ فبراير تم التخلي عن جميع المطالب والادعاءات.

السياسة الأوروبية تجاه فلسطين - نظرة إلى الوراء

حتى سنة 1917 لم يشهد الوضع الأساسي للتنافس بين الدول الأوروبية والطوائف الدينية في فلسطين، فيما يتعلق بسياسة كل منها نحو الشرق، أي تغيرات مبدئية. ولم يكن لحكومة من الحكومات

★ وهو الذي يعرف عند أهل القدس باسم «المسكوبية» - المترجم.

أن تفكر جدياً في المطالبة بأن تكون «الأرض المقدسة» لها هي بالذات دون سواها، مهما بلغت شدة الدعاة والمتحمسين الدينيين المطالبين بذلك في بلادها. وحتى المراحل الجديدة لـ«المسألة الشرقية» التي بدأت بحرب القرم ثم في نهاية السبعينات لم تأت بتبدل أساسي في نموذج الوجود الأوروبي في فلسطين. حقاً إن السياسة الأوروبية في الشرق الأدنى قد اكتسبت بالتغلغل الاقتصادي الذي شق طريقه بالقوة منذ بداية الخمسينات نوعية جديدة، ولكن التغلغل الديني الثقافي الذي أغذّ الخطى بعد سنة 1856 ظل أهم من التغلغل الاقتصادي.

صحيح أن التعليمات الموجهة إلى القناصل الأوروبيين منذ حرب القرم، بأن يمتنعوا في مراكز عملهم عن كل ما من شأنه أن يسيء إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية وإلى الجهود التي تبذل لإحيائها ظلت سارية المفعول، إلا أنه انتشرت في هذا الوقت بالذات من جهة أخرى الدعوة بصورة مكشوفة وبصوت عال إلى «الحملة الصليبية السلمية» وإلى «الامتلاك الفعلي للأرض المقدسة». وأخذت شركات الملاحة الكبرى في البحر المتوسط تعرج الآن بانتظام على الموانئ الفلسطينية وتجلب جماعات من الحجاج والمسافرين إلى البلاد. وفي أيام الأعياد بدا أن أعداد الحجاج الذين ازدحمت بهم أزقة القدس كان يفوق عدد سكان المدينة أحياناً. وقامت اتحادات وطنية ذات أهداف مذهبية وعلمية وسياسية بتغذية الاهتمام الديني والتوراتي الآثاري في «الأرض المقدسة»، وكانت كل من هذه الاتحادات تملك أجهزة نشر خاصة بها. وقد أنتج المبشرون والحجاج و«الباحثون في شؤون فلسطين» كمية لا تقدر من الأدب حتى بات في وسع الناس في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن يجدوا من المعلومات المفصلة عن فلسطين، أكثر مما كانوا يجدونه عن أي بلد آخر خارج أوروبا، وحتى بات الرأي العام الأوروبي مقتنعاً بـ«حق امتلاك» «الأرض المقدسة» قبل أي أرض أخرى خارج أوروبا.

منذ بداية بناء الوجود الأوروبي في فلسطين امتزجت الحماسة الدينية الثقافية على الدوام بالادعاءات والمطالب السياسية الخاصة بـ«الاسترداد» أو الاستعمار. واكتسبت هذه العناصر التي تألفت منها التأملات المنشورة حول مستقبل «الأرض المقدسة» وزناً أكبر في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر بعد أن أغذّت أوروبا سيرها المباشر إلى داخل المنطقة، وبعد نجاح الهيكليين السوابيين/الشفابيين★ (Die Schwäbischen Templer) (منذ 1868) في تثبيت مشروع بناء المستعمرات. لقد جعلت الادعاءات الإقليمية سارية المفعول، ووضعت حدوداً مفترضة لمجالات الاهتمام. ومع ذلك فإن تحقيق مطالب كهذه لم يكن في الإمكان لا في الفترة التي تلت حرب القرم ولا في السنوات التي أعقبت الاحتلال البريطاني لمصر (سنة 1882).

★ نسبة إلى سوابيا أو شفابيا وهو إقليم في جنوب غربي ألمانيا يشمل جنوب غربي بافاريا وبادن فورتمبرج وهوهن تسولرن.. ويضم الغابة السوداء. كان هذا الإقليم دوقية في العصور الوسطى – وهو اليوم أحد أقاليم بافاريا عاصمته أوجسبرج Augsburg– المترجم.

وحتى عندما تبدلت سياسة إنجلترا تجاه الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، كان عليها أن تقنع في فلسطين بدورها كحامية للبروتستنت واليهود بصفة خاصة وبترويج تجارتها. وكان على فرنسا أن تكتفي في القدس بالتشجيع الفعال للمصالح الكاثوليكية في إطار ادعاءاتها بالحماية الدينية لجميع الكاثوليك في الشرق وكذلك في سياق سياستها تجاه سوريا، أما روسيا، فكانت سياستها على أية حال سياسة دفاعية بالأحرى، أي أنها كانت موجهة نحو المحافظة على مادة الأرثوذكس. واهتمام روسيا الأولي لم يكن يتركز على فلسطين بل على القسطنطينية وعلى المضايق. أما ألمانيا فقصرت جهودها على تنمية العلاقات التجارية والوجود الألماني عن طريق «عمل المحبة المسيحي». وحتى «المستعمرات الألمانية» في «الأرض المقدسة» لم تغير هذه السياسة- فحماية المستعمرين الألمان لم تكن مثلاً أساساً لسياسة ألمانية عدوانية في فلسطين، لأن مشروعات كتلك لم يكن يسمح لها بأن تهدد نمو العلاقات مع القسطنطينية خصوصاً منذ الثمانينيات. بل إن دولة الرايخ الألماني ورثت إنجلترا بمعنى من المعاني بوصفها المدافع الأول عن وحدة أراضي الدولة العثمانية.

وهذا الوضع (الخاص بترتيب مواقف الدول) لم ينقض إلا بفعل الحركة الصهيونية، وبحثها عن شريك بين الدول الكبرى، وإلا من جراء الإمكانيات التي فتحتها الحرب العالمية الأولى في هذا الشأن.

وسنقوم فيما يلي بوصف المطامح والتيارات والمطالب غير الرسمية التي تطورت في جوّها السياسية الأوروبية تجاه فلسطين، والتي عملت عمل المنبهات من جهة وخدمت من جهة أخرى إيديولوجية إثبات الشرعية سواء بسواء. بيد أن هذه المطامح لم تكن ذات طبيعة «سلمية» إلا إلى حد ما. ففي أثناء الأزمات الشرقية في القرن التاسع عشر تحولت عدة مرات إلى مطالبة عدوانية بالاحتلال الأوروبي لفلسطين وبحكمها. لكن هذا كان لا بد أن يظل بلا نتيجة فعلية طالما أن بريطانيا لم تضع وجود الدولة العثمانية من حيث الأساس موضع التساؤل. وأوضاع الحرب العالمية فقط هي التي جعلت حلولاً كهذه في حيز الإمكان.

إعادة اليهود
«The Restoration of the Jews»

إن المركب التاريخي الفكري المحدد للاهتمام البريطاني في فلسطين كان الفكرة الألفية (-chili astische) حول إعادة اليهود Restoration of the Jews، التي طورتها عقيدة المخلص المنتظر الإنجليكانية والعقيدة الإنجيلية. وفي بداية القرن التاسع عشر كان هذا المذهب جاهزاً تام الصياغة، ولم تكد تضاف إليه فكرة واحدة جديدة في الأدب المترامي الأطراف الذي وضع في السنوات المائة التالية. ولذلك فإن تحقيق التنبؤات حول نهاية الزمان كان مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك منه بإعادة اليهود إلى أرض آبائهم، تلك الأرض التي يتمتعون فيها بحق غير قابل للتصرف.

إن الإعادة «Restoration» الجسدية والدينية، أي إنهاء التبعثر والتجميع في فلسطين وقبول الرسالة المسيحية، كانت تفهم على أنها جزء جوهري من خطة خلاص العالم الإلهية وشرط لحلول مملكة المسيح. غير أنه بقي في هذا الصدد سؤال مفتوح هو: هل الهداية (إلى المسيحية) يجب أن تأتي قبل الإعادة أم أنها لن تتحقق إلا في فلسطين؟ وقد أدى تفسير علامات الساعة التي تعلن «الإعادة» وتعلن

بذلك نهاية الزمان الفينة بعد الأخرى إلى «أخطاء» قابلة للتصحيح. وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فسّرت كعلامات من هذا النوع في المقام الأول الإشارات التي تومئ إلى انهيار القوة البابوية والإسلامية (أي الدولة العثمانية) وكان على الناس بالضرورة أن يتوصلوا أيضاً، حسب تشكيلات (القوى السياسية، إلى نتائج مختلفة حول أي أمة من الأمم أو أي حاكم من الحكام سيختار أداة للعناية الإلهية، فتكون «الإعادة» على يديه. وعندما هبط نابليون أرض مصر ثم زحف من بعد إلى فلسطين (17/1798) بدا وكأنه هو منفذ الإرادة الإلهية؛ وفي الوقت التالي أخذ يتضح باطّراد في عيون ممثلي المذهب أن هذا الدور هو من نصيب إنجلترا.

ومع حركة اليقظة الإنجيلية في القرن التاسع عشر اتسع تأثير هذه الأفكار، وكل أزمة في الشرق كانت تثير موجة من هذه المواعظ والنشرات والكتب والمشروعات والمطالب السياسية الألفية: في سنوات الانعطاف من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، وفي نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينيات، وخلال حرب القرم، وفي نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات والاستنتاجات الفعلية التي كانت تستخلص من المعرفة الأساسية كانت تتباين في ذلك، أي أنه كانت تجري مواءمتها وظروف السياسة اليومية ومتطلباتها.

«هللي يا بريطانيا»، هكذا ورد في نشرة خلال حرب القرم، «فقد اختارك القدر لتعيدي أتباع جنس يهوذا المهمل، المشتت منذ أمد بعيد، إلى ديارهم الجميلة، وأن تطرحي عقبة أخرى في طريق الدخيل المهدد (أي روسيا) بزرع مستعمرة في وطنهم الذي لا يمكن أن يحوم أي ارتياب حول ارتباطه بحماته».

أما أن هداية اليهود إلى المسيحية تمثل حقيقة سبق للأنبياء أن أعلنوها بوحي إلهي، فهذا أمر بديهي لا يكاد يحتاج إلى من يؤكده من جديد. بيد أن هذه الهداية لا يشترط أن تأتي حتماً قبل الإعادة إلى «الأرض المقدسة».

وهناك مؤلّف عاش في تلك السنوات في فلسطين كان أقل حماسة منذ البداية: لقد تساءل في ارتياب: أين هو رجل الدولة الذي يستطيع أن ينهض ببعث الأمة اليهودية من جديد، بتأسيس «مملكة متجددة» مؤيدة بالسيوف والصولجانات المسيحية ضد الأصحاب الشرعيين الآن لتراث كان في سالف العصور بالغ القداسة؟ مؤيداً حقاً ضد نفسه، ما دامت القذارات التي أوجدها قائمة دون تغيير على أية حال؟ ومع ذلك فهو يعزّي نفسه بأن هذا سيأتي «في موعد كان مقدراً لذلك، بفعل تجلّ مكشوف للقوة الخالقة».

والإفلاس الرسمي للدولة العثمانية سنة 1875 وسنوات الأزمة التي تلته هو كذلك علامة من «علامات الساعة»، وبهذا الشأن وعظ هور Hoare قائلاً: «على جميع المسيحيين... أن يهللوا لانهيار الدولة العثمانية لأن سقوط المسلمين هو أمل اليهود، وعودة اليهود ستكون البشير السعيد بالوصول الظافر لملك القدس المجيد». إن فلسطين ستتحرر من أنفاس السموم التي ينفثها سوء الإدارة التركية لسوف تسلم إلى أصحابها الشرعيين، نسل إبراهيم، الأمة التي أعطاهم إياها الله، لكي تصبح من جديد البلد الذي يفيض لبناً وعسلاً، بيد أنها ستكون بركة يرثى لها على (أبناء) إسرائيل لو أنهم أعيدوا إلى وطنهم دون أن يعودوا إلى الله أيضاً. غير أن الهداية لن تجيء إلا بعد العودة.

أما أن «علامات الساعة»، كانت تشير إلى «الإعادة» الوشيكة فهذا ما أكده أيضاً جيمس نيل James Neil الذي عاش في فلسطين بين عامي 1871 و1874. وقد أشار بصفة خاصة إلى زيادة عدد السكان اليهود في البلاد من جراء العدد المتزايد لـ«العائدين». لكنه حذّر في الوقت نفسه من التوقعات المفرطة في قصر أمدها، خاصة وأن البابوية والكنيسة اليونانية قد ضربا بجيرانهما في فلسطين، ولن يزيلا مكانهما بسرعة.

إن مذهب «إعادة اليهود» لم يعد بطبيعة الحال موضع اعتقاد عام لدى سكان بريطانيا العظمى، ومع ذلك فإن القول الأساسي فيه وهو أن فلسطين هي الوطن الحقيقي الذي أعطاه الله لليهود، والذي سيعودون إليه عاجلاً أم آجلاً، كان له تأثير واسع. وبهذا المعنى المحدد أصبحت فكرة الإعادة Restoration- أمراً مألوفاً عند الجميع. وتخللت هذه الفكرة أدب فلسطين الإنجليزي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شأنها شأن البديهيات التي لا تذكر إلا في معرض التأييد، بل إنه نودي فعلاً بحملة صليبية تمهد الطريق أمام اليهود، استناداً إلى «الحملة الصليبية السلمية» التي كان يوعظ بها في القارة الأوروبية في ذلك الحين.

كتب ووكر Walker بعد إقامة في فلسطين يقول: **«لو كانت البلاغة المقنعة موهبة من المواهب التي خصصت بها لكنت قد دعوت في العالم المسيحي كله إلى حملة صليبية جديدة –للمحراث والمنجل- تقضي على كل أثر لوقع الحوافر الهدامة للنهابين المسلمين من أرض فلسطين المقدسة». بيد أن هؤلاء «العرب الأخسّة، الجهلاء، نصف المتوحشين، بقراهم القذرة وأكواخهم الحقيرة» لا يمكن أن يكونوا «الخلفاء الأصليين، والورثة الشرعيين للملايين الرعايا الأذكياء المهذبين، الراقين في مدارج الحضارة، والمتمتعين بالحكم الصالح، أولئك الذين حكمهم داود وسليمان في أيام مجد إسرائيل!»**. ولو أن المرء دعا الآن إلى حملة صليبية جديدة قائمة على القوة لانتزاع فلسطين من أيدي الكفار فقد يتسنى تماماً لهذه الحملة أن تؤدي إلى نتائج أفضل من تلك التي أدت إليها الحروب المقدسة في العصور الوسطى. لكن تلك الأوقات مضت، ولا يجوز للمرء أبداً أن يلجأ إلى هذه الوسائل بعد الآن، لأنه «أصبح الآن من الواجبات المعترف بها للأمم القوية والغنية أن تتدخل لحماية المضطهدين ولإقامة نظام جديد في البلدان التي تقوم فيها حكومات رديئة، سواء أكان ذلك بالطرق الدبلوماسية أم بـ«الضغط الخارج عن نطاق الدبلوماسية». وأكثر من ذلك غير مطلوب بالنسبة إلى فلسطين، لا أكثر مما يقرّه الرأي العام في العالم المسيحي. أما الحق الشرعي في فلسطين، فهو لليهود لا غير. وعلى من يوطد النظام هناك أن يفعل هذا من أجل إعداد البلاد «لتوضع من جديد في أيدي أصحابها الشرعيين». وستنتهي مهمة «الدولة التي توطد النظام» بمجرد أن يصبح اليهود جاهزين كأمة لاستلام مقاليد بلدهم بأنفسهم. وحتى ذلك الحين سيكون في وسع المرء أن يحضرّهم لمسؤوليات الوجود الوطني المستقل. إن هذه الأفكار صيغت بصورة متطرفة، إذ إن الربط بين بواعث الحملة الصليبية وفكرة «الإعادة» Restoration لم يكن بالأمر الشائع اليومي الحدوث. ومع ذلك فليس للمرء في ضوء وعد بلفور والانتداب أن يصرف النظر عنها كسخافة من السخافات...

وفي أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر انزلقت فكرة ال Restoration أكثر فأكثر في تيار الاستعمار وباتت ترتبط بجميع أشكال المشروعات.

ففي سنة 1879/1878 طالب رجل الصناعة البريطاني إدوارد كازاليت Edward Cazalet بإقامة محمية بريطانية في فلسطين يكون هدفها إعادة اليهود وربط البلاد بصورة دائمة بإنجلترا. واقترح تشارلز وارن Charles Warren، وهو واحد من النشطاء المعروفين في «صندوق استكشاف فلسطين»، بأن تسلم «الأرض المقدسة» نظراً لإفلاس الدولة العثمانية، لمدة عشرين سنة إلى شركة على غرار شركة الهند الشرقية تضمن لحكومة القسطنطينية إيرادات الضرائب المتحصلة من فلسطين في ذلك الوقت، وتدفع لدائنيها (أي دائني الدولة العثمانية) جزءاً من الفوائد المستحقة لهم. وستكون مهمة هذه الشركة توطين اليهود في البلاد بصورة تدريجية، بحيث تؤول البلاد آخر الأمر إلى ملكيتهم وتصبح تحت حكمهم. وفي هذا الصدد يمكن أن يبرز السؤال: وماذا سيحدث لعرب فلسطين؟ يجيب وارن: «أنا أسأل في المقابل: أين هم العرب؟» هذه كل مساهمته في حل هذه المشكلة.

أما كوندر Conder المدير الشعبي لـ Survey of Western Palestine فقد عرف نوعاً ما على الأقل أن يبدأ بسكان البلاد: لا أحد أنسب لاستلام زمام تجديد فلسطين ولتوجيه السكان الحاليين في ميدان الزراعة من أصحابها الشرعيين، اليهود الذين هم بطبعهم مجدون ومجتهدون وفطناء. إن الفلاحين المحليين هم بالفعل «جهلاء جهلاً مدمراً ومتعصبون وكذابون مدمنون في الدرجة الأولى» ومع ذلك فإن لديهم صفات «يمكن إذا طورت أن تجعل منهم سكاناً نافعين» –نافعين لأصحاب البلاد.

وإذا عُريّ مبدأ حق اليهود غير القابل للتصرف في فلسطين، وإعادتهم إليها، ودور الإنجليز في هذا الشان من قشرته الألفية فقد غدا صيغة لأزمة متكررة في أدب فلسطين الإنجليزي وجزءاً لا يتجزأ من الفهم البريطاني لفلسطين. أما فكرة هداية اليهود إلى المسيحية، فقد ضاعت تدريجياً. وبهذا الشكل كان المبدأ عند بداية الحرب العالمية الأولى ما يزال فعالاً بصورة كاملة. وامتزج سحر المبدأ، في شكله العلماني، إن جاز التعبير، بالاعتبارات الحربية السياسية والاستراتيجية الامبريالية التي تمخضت سنة 1817 عن وعد بلفور. وعندما أعرب بلفور سنة 1919 عن اقتناعه بأن الصهيونية «لها أهمية أعمق بكثير» من «رغبات وأهواء 700000 عربي يقطنون الآن البلاد العريقة في القدم (فلسطين)»، فإنه كان يتحدث إلى أكثرية الشعب الإنجليزي من أعمق أعماقه. لقد وضع هدف إعادة اليهود «Restoration of the Jews» على قدم المساواة، بصورة غير ملحوظة مع أهداف الصهيونية، كما أن «المنادين بالإعادة «The Restorationists» اندمجوا في كل واحد في سياق السياسة الإمبريالية مع الصهيونيين★◆

★ تشكر المجلة الثقافية ورثة المرحوم كامل العسلي للسماح لها بإعادة نشر هذه المقدمة من هذا الكتاب القيّم.

القدس عند الصرب

من التاريخ إلى الإيديولوجيا

محمد الأرناؤوط

تنطوي هذه الدراسة على أطروحتين أساسيتين: تبيّن الأولى موقع القدس في الوعي المسيحي الأوروبي بعامة، وتظهر الثانية معنى القدس كنموذج روحي كوني، يسعى المؤمنون به إلى إعادة إنتاجه بأشكال مختلفة، وهذا ما دفع بالصرب إلى خلق «قدس» خاصة بهم، بديلاً عن القدس الحقيقية، حالمين بأن تأخذ «قدسهم» المفترضة دلالة «قدسنا» لدى المسيحيين الأوروبيين جميعاً.

مع انتشار المسيحية في عالم الإمبراطورية الرومانية بعد «مرسوم ميلانو» (313م) تحوّلت القدس من مدينة ذات أهمية ضئيلة للغاية بالنسبة للإمبراطورية إلى مدينة ذات أهمية عظيمة. فقد أخذت القدس تتحول إلى مركز استقطاب لاهتمام الجماعات والشعوب، سواء المجاورة أو البعيدة، التي اعتنقت المسيحية لتوها أو بعد عدة قرون، وأصبحت ترمز منذ ذلك الحين إلى مفهوم جديد (الأرض المقدسة) وركن جديد في المسيحية (الحج إلى الأماكن المقدسة). ومن الشعوب التي اعتنقت

المسيحية في وقت متأخر (القرن التاسع للميلاد)، والتي اكتسبت كغيرها هذا الاهتمام والارتباط بفلسطين/الأرض المقدسة، لدينا الصرب. ومع أن الصرب قد اعتنقوا المسيحية في وقت واحد تقريباً مع الشعوب السلافية الأخرى كالبلغار والكروات والروس وغيرهم، إلا أن هذا الاهتمام والارتباط بفلسطين/الأرض المقدسة وصل إلى ذروته لديهم لتداخله مع التاريخ الديني –السياسي- القومي الخاص بهم.

وكان الصرب قد هبطوا مع سلاف الجنوب إلى شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن السادس الميلادي واستقروا في مطلع القرن السابع الميلادي (حوالي 615) حيث كانت بيزنطة منشغلة بحروبها مع الفرس. وقد اشتهر هؤلاء السلاف في البداية بأسماء العشائر الكبرى، ثم أصبحت البلاد التي استقروا فيها تسمى «بلاد السلاف» Sclavonia دون تمييز. وفيما بعد، مع ظهور الدولة البلغارية في شرق البلقان (سنة 681م)، أخذ التمايز يتبلور في غرب البلقان بين العشائر الصربية وتلك الكرواتية، التي كانت متداخلة ومنتشرة في طول المنطقة. وقد تمركزت العشائر الصربية في المنطقة الممتدة من حوض ايبار Ibar وأعالي نهر مورافا Morava في الشرق وإلى أعالي نهر درينا Drina في الوسط وحتى المرتفعات المطلة على البحر الأدرياتيكي في الغرب. ونظراً للعبء العسكري المتواصل، سواء لأجل الدفاع أو لأجل التوسع، فقد أخذت السلطة المحلية تتركز في يد قواد عشائريين-عسكريين Knjazi-Zupani في القرن الثامن، بينما في القرن التاسع انتشرت المسيحية بينهم وظهرت لديهم الكيانات السياسية الأولى في خضم الصراع بين القوى الكبرى على هذه المنطقة. ومع أن اسم الصرب Sorabos ظهر حينئذ (سنة 822م) لأول مرة في الحوليات الفرنجية، إلا أن الكيانات الأولى التي تشكلت نتيجة لتوحيد العشائر الصربية حملت أسماء الأنهار الموجودة في المنطقة (إمارة راشكا Raska في الشرق وإمارة زيتا Zeta في الغرب)، بينما تأخر استخدام الاسم الموحد للشعب (الصرب) إلى ما بعد التوحيد السياسي (أرض الصرب Srpska Zemlja) والديني (الكنيسة الصربية Srpska crkva) لهذه العشائر الذي اقترن بسلالة نيمانيا Nemanja.

لقد ارتبط هذا الانعطاف بشخصية الأمير ستيفان نيمانيا (1168-1196) الذي وحّد الإمارتين (راشكا وزيتا) وتحول أولاده وأحفاده إلى ملوك وأباطرة عرفوا كيف يستفيدون باستمرار من الظروف المستجدة للتوسع على حساب بيزنطة (انبعاث بلغاريا من جديد في 1186، تحالف صربيا مع بلغاريا ضد بيزنطة، سقوط القسطنطينية بيد الصليبيين في 1204م الخ). وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ راستكو Rastko، الابن الأصغر للأمير المؤسس لسلالة نيمانيا، اهتم حينئذ بالأمور الدينية وأصبح راهباً يحظى بالتقدير في أحد أديرة جبل أثوس، حتى أنه تمكن من إقناع والده باعتزال الحكم والقدوم إلى جبل أثوس حيث تحول لاحقاً إلى قديس باسم القديس سيمون. أما الابن الآخر له فقد تولى الحكم باسم ستيفان المتوج الأول لأنه أول من توج ملكاً على صربيا في 1204م. وفي عهد هذا الملك تمكن أخوه راستكو، أو القديس سافا Sava كما أصبح يعرف، من إقناع الإمبراطور البيزنطي وبطريرك القسطنطينية بتأسيس كنيسة صربية مستقلة في 1219، حيث بقي على رأسها حتى 1234. وهكذا فقد تداخل التاريخ السياسي والديني والقومي للصرب على نحو فريد مع آل نيمانيا، حيث

أسس الأب الدولة الصربية وأسس الابن الكنيسة الصربية، وتحول الأب والابن وعدد آخر من الأولاد والأحفاد إلى ملوك وقديسين في آن واحد. وعلى رأس هؤلاء القديسين يأتي دون شك القديس سافا Sveti Sava (راستكو الابن) الذي يحظى بتقديس ديني-قومي يصل إلى حد العبادة عند الصرب.

ومع هذه الشخصية المركزية في التاريخ الديني-القومي للصرب يرتبط منعطف آخر مهم يتمثل في مد الجسور مع الشرق، وبالتحديد مع الأرض المقدسة. وفي هذا الإطار قام القديس سافا بزيارتين طويلتين إلى المنطقة (سوريا وفلسطين ومصر)، حيث اتصل ببطارقة الشرق (أنطاكية والقدس والإسكندرية)، واهتم بشكل خاص بفلسطين حيث أسس بعض الأديرة الصربية لاجتذاب الصرب إلى هذه الأرض المقدسة، وهكذا فقد حملت هاتان الزيارتان مؤثرات فلسطينية واضحة إلى صربيا كما سنرى وأسست صلات صربية مبكرة مع فلسطين.

ومع أن أخبار هاتين الرحلتين وردتا في مصدرين معاصرين تقريباً للقديس سافا إلا أنه لا يوجد اتفاق حول وقت كل رحلة. ففيما يتعلق بالرحلة الأولى لدينا إشارة واحدة تفيد أن القديس سافا عاد من هذه الرحلة إلى صربيا قبل آذار 1230. وبالاستناد إلى هذا يبدو لنا أن هذه الرحلة تمت في 1229، أي بعد أن قام السلطان الأيوبي الملك الكامل بتسليم القدس إلى الفرنجة، وذلك حسب المعاهدة التي عقدها مع الامبراطور فريدريك الثاني في 18 ربيع الثاني 626هـ/27 شباط 1228م. وبينما قام القديس سافا بهذه الزيارة حين كان على رأس الكنيسة الصربية نجد أنه قام بالزيارة الثانية بعد تقدمه في السن وتخليه عن رئاسة الكنيسة لتلميذة أرسنيه Arsennje الذي أعدّه بحرص لأجل هذا المنصب، أي في ربيع سنة 1234 وخلال الحكم الفرنجي الأخير للقدس (626-637هـ/-1239 1229م).

وبالنسبة لهاتين الزيارتين لدينا مصدران معاصران تقريباً:

1- كتاب «حياة القديس سافا وحياة القديس سيمون» للراهب دومنتيان Domentijan تلميذ القديس سافا، الذي يعتقد أنه رافقه في رحلته الثانية إلى الأماكن المقدسة. والذي انتهى من تأليفه في سنة 1253.

2- كتاب «حياة القديس سافا» للراهب ثيودوسيا Teodisija الذي يعتقد أنه من تلاميذ الراهب دومنيتان، ويعود كتابه هذا إلى أواخر القرن 13 أو أوائل القرن 14 لأن أول نسخة معروفة من مخطوطته تعود إلى سنة 1336.

وبالاستناد إلى هذين المصدرين نجد فيما يتعلق بالزيارة الأولى للقديس سافا إشارة لدى دومنتيان تفيد أن ابن أخيه الملك رادوسلاف(Radoslav 1234-1228) قد عرض عليه «الكثير من الذهب وكل ما يحتاجه». وقد نزل القديس سافا حينئذ في عكا، حيث أوصى ببناء دير يحمل اسم مارجرجس يكون نزلاً للحجاج الصرب الذين سيفدون للبلاد المقدسة، قبل أن يتابع طريقه إلى القدس حيث استقبل بحرارة من قبل بطريرك القدس. ويذكر دومنتيان هنا مدى اهتمام القديس سافا بكنائس القدس وأديرتها، وخاصة بدير مار سابا الذي يحمل اسمه، الذي وهبه بهذه المناسبة «الكثير من الذهب». ويضيف ثيودوسيا هنا أن زيارة القديس سافا لدير مار سابا لم تقتصر على تبادل الحديث في الموضوعات الدينية بل أنه تعرف هناك

على حياة الرهبان وتنظيم الدير. والأهم من هذا وذاك أن ثيودوسيا يذكر أن القديس سافا قد حصل حينئذ من ديرمار افتيموس وبطريرك القدس على «مكان لبناء دير».

أما فيما يتعلق بالزيارة الثانية، التي يعتقد أنه قد رافقه فيها دومنتيان، فلدينا معطيات مهمة ترتبط بالزيارة الأولى. وهكذا فقد نزل القديس سافا بعد وصوله إلى عكا في دير مارجرجس، الذي «كان قد اشتراه سابقاً، كما يدعي من اللاتين وجعله وقفا لدير مار سابا». وفيما يتعلق بالقدس أيضاً يذكر دومنتيان أن القديس سافا نزل هذه المرة في ديره، وبالتحديد في دير مار يوحنا المعمدان «الذي كان قد اشتراه، كما يدعي، باسمه من المسلمين في المرة الأولى»، وفي مناسبة أخرى يضيف دومنتيان أن بطريرك القدس قد احتفى في هذه المرة أيضاً بالقديس سافا، إذ إنه كان يدعوه إلى داره (دار البطريركية) لتناول الطعام، ثم كان يدعه يعود إلى دير ماريوحنا المعمدان «حيث كان ينزل».

وبالنظر إلى هذه المعطيات لا يبدو من المستغرب أن تشكل هاتان الزيارتان منعطفاً في الصلات الصربية مع فلسطين. فدومنتيان وثيودوسيا يشيران بوضوح إلى تأثر القديس سافا بما شاهده في فلسطين، ويذكران أن السنوات الأربعة التي قضاها في صربيا بعد عودته من زيارته الأولى (1230-1234) كانت فترة نشاط متواصل وإصلاح واضح في الكنيسة الصربية. وهكذا يذكر ثيودوسيا أن القديس سافا بعد عودته من القدس تجول في صربيا واجتمع في كل مكان مع الرهبان ليحدثهم عن أنظمة الرهبنة وتقاليدها كما رآهما في فلسطين وآسيا الصغرى لكي يأخذوا بها. أما دومنتيان فقد حدد بوضوح أن القديس سافا أدخل «تعديل القدس» Jerusalemsko ispravlenje على ما هو موجود في الكنيسة الصربية. ومن الواضح أن الأمر يتعلق بتعديل «نظام ستوديت» الذي كان يعمل به في جبل آثوس وصربيا حتى زيارة القديس سافا الأولى لفلسطين (1229)، وذلك بالاستناد إلى «نظام مارسابا» الذي كانت تأخذ به بطريركية القدس، والذي أخذت به الكنيسة الصربية بعد أن ترجم بشكل كامل إلى اللغة الصربية في 1229.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المكانة السامية التي يحظى بها القديس سافا وسط الصرب، التي تصل إلى حد العبادة، فمن الطبيعي حينئذ أن يلهم اهتمامه بالأماكن المقدسة أتباعه باستمرار، أي أن يشجعهم على زيارة تلك الأماكن وخاصة بعد أن أسس لهم هناك أديرة ينزلون فيها لكي تخفف عنهم مشاق الطريق.

ومن المؤكد أن «طريق الحج» بين صربيا وفلسطين الذي ارتبط باسم القديس سافا، أصبح مفتوحاً أمام انتقال المؤثرات المختلفة وخاصة باتجاه الجانب الصربي. وهكذا يرى الباحث ايغون ولز E.Wellesz الذي فوجيء بتطابق المقامات الثمانية Oktoechos في الكنيسة الصربية مع تلك السورية، أن هذا التأثير قد جاء مع غيره من المؤثرات إلى البلقان بواسطة «طريق الحج».

ويبدو لنا، بالاستناد إلى المعطيات اللاحقة، أن هذا الطريق بين صربيا وفلسطين لم يتأثر بالأحداث اللاحقة التي طرأت على المنطقة سواء في بلاد البلقان أو في بلاد الشام، بل أن صربيا «اقتربت» من فلسطين أكثر بعد أن أصبحت ضمن الدولة العثمانية الممتدة حينئذ حتى حدود بلاد الشام. وهكذا يبدو أن قدوم الحجاج الصرب تواصل وربما زاد خلال

القرن الخامس عشر إلى حد أن ديرهم بالقدس قد اشتهر باسمهم كشعب (دير الصرب)، بل حتى أن أحد أبواب المدينة في ذلك الوقت (1496) دعى باسمهم – باب دير الصرب. ومع القرن السادس عشر (1516) انضوت بلاد الشام أيضاً في الإطار العثماني، وهكذا أصبح «طريق الحج» من صربيا إلى فلسطين ضمن دولة واحدة بعد أن كان يخترق أكثر من دولة، مما يسهل الحركة أكثر على هذا الطريق. وتحت تأثير هذه المتغيرات نجد خلال القرن الأول للحكم العثماني (1516-1616) بعض المعطيات التي تؤشر إلى وجود نشط للصرب في فلسطين (استحصال أحكام سلطانية لترميم ما لديهم من أديرة وبيوت، ووقف مزيد من البيوت على أديرتهم الخ).

وهكذا في السنوات الأولى للحكم العثماني لدينا، كما تقول الوثائق، عقد بيع شرعي موثق في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، يعود تاريخه إلى 5 ذي الحجة 940هـ/18 حزيران 1533م ويتضمن قيام «دير السرب» بشراء دار مجاورة من أحد المسلمين لوقفها على الدير المذكور. ومع أن هذا العقد كتب بخط رديء إلا أنه مع ذلك يكشف لنا عن عناصر مهمة كاسم البائع (تاج الدين عبد الوهاب) واسم «رئيس دير السرب» في ذلك الوقت (يواكيم ابن انطوني)، والأهم من ذلك موقع هذه الدار «الكائنة بالقدس بحارة النصارى، المجاورة لسور مدينة القدس، وحدها من القبلة حاكورة... وتمامه الدير، ومن الشرق دار بيد الأقباط وتمامه الزقاق... ومن الغرب ومن الشمال حاكورة ابن الراعي... وتمامه الدير المذكور». وفي الحقيقة أن هذا التحديد يكتنفه بعض الغموض. فتعبير «المجاورة لسور مدينة القدس» يمكن أن يعود على الدار أو على المحلة، كما أن تحديد الحدود الأربعة في هذه الوثيقة لا ينطبق على الأرض إذ إنه لا يمكن أن يقع الدير المذكور في الوقت نفسه في شمال وفي جنوب الدار المشار إليها.

ومع إنجاز الدفتر المفصل للقدس الذي يعود إلى سنة 961هـ/1553-1554م، يبرز لدينا الدير المذكور (دير الصرب) مع الأديرة الأخرى للقدس، ويذكر معه عدد الأشخاص الموجودين فيه (15 شخصاً)، الذي يبدو لا بأس به بالمقارنة مع بعض الأديرة الأخرى كـ«دير الياس» (شخص واحد) و«دير خضر (شخص واحد) و«دير قمامة» (9 أشخاص) الخ. وفي هذا الدفتر يبرز أيضاً اسم دير آخر يهمنا في هذا المجال، ألا وهو «دير السيق» كما يرد هنا أو «دير مارسابا» كما يعرف أكثر الذي كان يوجد فيه حينئذ عشرون شخصاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدفتر المفصل يشير إلى أن «دير السرب» يخص «طائفة النصارى والروم»، كما أن «دير السبق» يخص «طائفة الروم»، أي الأرثوذكس.

وبعد أقل من سنتين (963هـ/1555م) تبرز معنا حجة شرعية موثقة في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس تتعلق بالسماح للصرب بترميم ما لديهم من دور بالقدس. وفي الواقع أن هذه الحجة التي تنشر هنا لأول مرة تتضمن معطيات مهمة بالنسبة لموضوعنا. فهي تفيدنا أولاً باسم رئيس «دير السرب» في ذلك الحين ألا وهو «آخر سطو رلوا ابن باسيلي النصراني السربي»، وتذكر لنا الاسم الآخر بشكل محرف (دير ميجالين) سيوضحه المصدر اللاحق. والأهم هنا أن هذه الوثيقة تذكر بوضوح حصول الصرب على حكم سلطاني في ذلك الوقت، وهو مالم نعثر عليه بعد، يسمح لهم بترميم كنيستهم ودورهم. وبالاستناد إلى هذا الحكم تقدم رئيس الدير حسب الأصول إلى القاضي الشرعي للحصول

على موافقته على ترميم الدار التابع للدير، والذي يقع في جواره. وتحفل الوثيقة بمعطيات مثيرة حول موقع الدار ووصف الأماكن التي تحتاج إلى الترميم والتعمير، وتكليف القاضي ذوي الخبرة بالكشف عن تلك الأماكن وقياسها ثم السماح أخيراً لرئيس الدير «في التعمير والترميم وإعادة البناء القديم المنهدم».

وفيما يتعلق بالديرين المذكورين حتى الآن لدينا معطيات أخرى ترد بعد عدة سنوات فقط (1558-1559) في رحلة التاجر الروسي بوسنياكوف Pos-niakov الذي زار المنطقة في ذلك الوقت. وأول ما يلفت النظر هنا أن التاجر بوسنياكوف يذكر اسم الدير الأول بشكل واضح «دير الصرب (المسمى) مار ميخائيل» Serbian Convent of St.Mic-hael، وهو ما كان تحرّف في الوثيقة السابقة إلى «ميجالين». ومن ناحية أخرى يكشف بوسنياكوف خلال زيارته للدير عن وجود رهبان «دير مار سابا» هناك، حيث لجؤوا إلى هنا بعد أن تعرض نزلهم مرتين للهدم من قبل الأتراك ثم للمصادرة». وفي الواقع أن هذه الإشارة الأخيرة مهمة بالنسبة للمعطيات الأخرى التي سترد لاحقاً.

وإلى ذلك الوقت(970هـ/1562م) يعود دفتر الطابو العثماني 342 الذي يتضمن أوقاف القدس وأملاكها، والذي نشره مؤخراً د. محمد عيسى صالحية. ففي هذا الدفتر وردت ثلاث ملكيات للمسيحيين في القدس، منها واحدة تعود الى «نوالي بن بيري النصراني رئيس دير السرب». وقد تضمنت هذه الملكية «غراس عنب وتين وزيتون يعرف قديما بكرم أولاد أرغون وأولاد أخرس وغير ذلك من بعض أرض كشف القائم أصول بجوار خلّة القصب»، و«جميع الدار في محلة النصارى في نفس القدس الشريف، الملاصق لدير السرب الراكب بناؤه على بناء طاحون الخراب، الذي هو الآن وقف دير السرب».

وبعد خمس عشرة سنة أخرى (8 رمضان 978هـ/4 شباط 1571) نجد وقفية مهمة للصرب موثقة في المحكمة الشرعية بالقدس. وفي الواقع أن أهمية هذه الوقفية التي عثرنا عليها في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس تكمن أولاً في الكشف عن «وجود» صربي في «قرية بيت لحم»، إذ إنها تتحدث عن قيام «بغدان ابن القس حريز النصراني من القرية المذكورة «بوقف دار واسعة في حارة الغوانمة ببيت لحم تشتمل على طابقين وساحة وعدة غرف ومخزن التين ومأوى للدواب الخ». والأهم من هذا ما ورد في هذه الوقفية بشكل واضح يقول: إن هذا الوقف مخصص لـ«رهبان طائفة النصارى السرب القاطنين بدير السرب بمدينة القدس الشريف، الكائن به كنيستهم والمقيمين أيضاً بدير السيق ظاهر مدينة القدس الشريف الكائن كنيستهم والواردين لزيارة كنيستهم الكائنتين بالديرين المذكورين أعلاه». وهكذا توضح هذه الوقفية بشكل لا يقبل الالتباس أن «دير السيق» قد أصبح مقراً للرهبان الصرب ومقراً لكنيستهم أيضاً، وهو ما ستؤكده المعطيات اللاحقة أيضاً.

وأخيراً لدينا من نهاية القرن الأول للحكم العثماني (1022هـ/1613) حكم سلطاني مهم موجه إلى قاضي القدس، ومتعلق بدير مارسابا المذكور. وفي الواقع أن أهمية هذا الحكم تكمن في أنه يذكر بشكل واضح أن «الدير القديم المعروف باسم مارسابا، الكائن في المكان المهجور شرق

مدينة القدس، (يعود) لرهبان السرب». ومن ناحية أخرى يبرز هذا الحكم أهمية الدير في ذلك «المكان المهجور شرق القدس» حيث كان الرهبان «يقدمون الماء والخبز للمارين الذين يعبرون تلك الصحراء»، ولذلك فقد أعطي الأذن للرهبان لكي يرمموا الدير بعد أن أصبح يتعرض إلى هجمات البدو. وفي الحقيقة لقد كانت الإدارة العثمانية مشغولة طيلة القرن الأول في الحد من هجمات البدو على الطرق المهمة التي تخترق المناطق المقفرة، ولذلك فقد دعمت مثل هذا الدير وأنشأت خانات أخرى لتوفير الحماية والاستراحة للمسافرين على تلك الطرق.

ولكن التواصل/الحج الصربي إلى الأرض المقدسة والقدس تأثر خلال القرن اللاحق (السابع عشر) بانقلاب الوضع في البلقان بعد فشل الحصار العثماني الثالث لفيينا في 1668، حيث رحب الصرب والألبان المسيحيون بالقوات النمساوية التي اخترقت البلقان واضطر بعضهم إلى التخلي عن موطنهم عندما اضطرت القوات النمساوية إلى الانسحاب إلى الحدود الجديدة التي أصبحت تفصل بين الدولتين. ومع هذا التوجه نحو الشمال أصبح الصرب داخل الحدود الجديدة للإمبراطورية النمساوية، بينما ارتبط القسم الآخر الباقي داخل الدولة العثمانية بروسيا القيصرية لدعم تحرره من الحكم العثماني. وقد استفاد الصرب من التنافس النمساوي الروسي على البلقان لتعزيز تطلعاتهم بالتحرر من الحكم العثماني وبعث كيانهم السياسي المستقل، وهو ما تتوج بالانتفاضة الصربية الأولى في 1804 التي أفرزت قيادة سياسية جديدة للشعب الصربي (سلالة كاراجورجفيتش ثم سلالة أوبرنوفيتش).

ونظرا لأن الكنيسة الصربية بقيت المؤسسة الوحيدة التي توحّد الصرب في غياب الدولة الصربية منذ 1459، فقد برزت الفكرة القومية الصربية الجديدة مشحونة بالدين في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19. وهكذا أخذت الأيديولوجيا القومية الصربية تتشكل بالاستناد إلى «أسطورة كوسوفو» Kosovo myth التي كانت قد تكونت في غضون ذلك وانتشرت من خلال الأغاني الشعبية. وكانت هذه الأغاني قد انتشرت أكثر حيث قام الباحث الصربي فوك كاراجيتش بجمع التراث الشعبي الصربي ونشره وتبسيط أبجدية اللغة الصربية، وهو ما أصبح الأساس الذي قامت عليه الفكرة القومية الصربية الحديثة. والمهم هنا أن «أسطورة كوسوفو» ستولد لدى الصرب مفهوماً جديداً عن «الأرض المقدسة» و«القدس».

وحسب هذه الأسطورة فإن الأمير الصربي لازار قائد الجيش الذي خرج لملاقاة العثمانيين في سهل كوسوفو في حزيران 1389 توجه إلى ربه يطلب المساعدة فأعطاه الخيار بين «مملكة الأرض» و«مملكة السماء» فاختار الأمير لازار «مملكة السماء». ومع هذا «الوعد الإلهي» برزت مقولة «صربيا السماوية» Heavenly Serbia كأسطورة قومية جديدة تنسب الهزيمة في هذه المعركة إلى التزام الصرب بـ «المملكة السماوية» Heavenly Kingdom. ومع الزمن تحولت الأسطورة إلى «وعد إلهي» بانبعاث صربيا من جديد كإمبراطورية أرضية كما كانت عليه عشية معركة كوسوفو. والمهم هنا أن مفهوم «صربيا السماوية» أصبح يحمل القدسية للشعب والأرض، وبذلك ستتحول كوسوفو فجأة إلى «الأرض المقدسة» Sveta zemlja وإلى «القدس» Jerusalem التي لا بد من استعادتها، وذلك على حساب «الأرض المقدسة» الأصلية (فلسطين) والقدس التي لم يعد يفكر أحد في استعادتها أو الحج إليها.

وفي الواقع أن هذا الانقلاب في مفهوم «الأرض المقدسة» و«القدس» جاء في وقته ليعبر تماماً عن حاجة الدولة الصربية الناشئة إلى أيديولوجية قومية تبرر توسعها في الجوار (كوسوفو وغيرها) لتتحول إلى دولة كبرى (صربيا الكبرى). فقد كانت صربيا قد انبعثت أولا كإمارة ذات حكم ذاتي في إطار الدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن19، ثم توسعت بدعم روسيا القيصرية بعد حرب 1877-1878 وحظيت باعتراف دولي في مؤتمر برلين 1878. ومع هذا التوسع الجديد أصبحت صربيا تطل على سهل كوسوفو الغني بموارده، ولذلك أصبحت «أسطورة كوسوفو» تخدم تماماً التطلعات التوسعية للدولة الصربية الجديدة. وهكذا، كما يقول الباحث الصربي إلكسندر بتروف، فقد تحولت هذه الأسطورة من دينية إلى قومية، و«أصبحت كوسوفو هي القدس الجديدة».

وفي هذا السياق يعترف المؤرخ الصربي ميودراغ بوبوفيتش بأن الانتلجنسيا الصربية الجديدة التي برزت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر هي التي حولت «أسطورة كوسوفو» (الوعد الإلهي بالثأر للهزيمة وبعث الإمبراطورية الصربية) إلى نواة للأيديولوجية القومية الصربية الجديدة. وفي هذا الإطار فقد تحول اليوم الذي جرت فيه المعركة (15 حزيران حسب التقويم القديم و28 حزيران حسب التقويم الجديد) من «يوم النبي آموس والقديس لازار» في التقويم الكنسي والرسمي إلى «يوم فيد» ابتداء من سنة 1892، الذي أصبح بذلك يوماً مقدساً ويوماً قومياً. والمهم هنا أن فيد Vid كان إله الشمس والحرب عند الصرب القدماء قبل اعتناق المسيحية ولكنه بقي حاضراً ومستمراً في الأغاني الشعبية حتى بعد اعتناق الصرب للمسيحية بقرون.

ومن الواضح هنا أن انبعاث إله الحرب الوثني كان يناسب المرحلة الجديدة التي قررت فيها صربيا خوض الحرب ضد «الأتراك» لاستعادة «الأرض المقدسة» (كوسوفو) في 1912.

وفي الواقع أن حرب 1912 التي خططت لها بلغراد مع صوفيا وأثينا تميزت بشحن ديني وقومي للقوات الصربية التي أرسلت إلى «الأرض المقدسة» (كوسوفو). وهكذا فقد شحنت الصحافة القومية الصربية المدعومة من السلطة المشاعر في البلاد لتأييد «هذه المعركة المقدسة»، التي «يذهب الجيش اليها بمباركة الكنيسة».

وكان ما يلفت النظر في الدعاية الصربية للحرب الجديدة ضد «الأتراك» (دون تمييز بين الأتراك بالمفهوم الأثني وبين الأتراك بالمفهوم الديني الذي كان يشمل كل المسلمين) أنها أخذت نفساً استردادياً واضحاً. فكما كانت الحرب الصليبية استجابة لدعوة البابا لاسترداد القدس من «الأتراك» أصبحت الدعاية الصربية تشمل الجنود الصرب بهذه الروح الاستردادية لـ «الأرض المقدسة» دون الأخذ بعين الاعتبار ما تغير فيها خلال 500 سنة وأنها أصبحت بغالبية غير صربية (ألبانية) وغير مسيحية (مسلمة). وبسبب هذه الروح الاستردادية فقد تحولت حرب «تحرير الأخوة الأرثوذكس» إلى «حرب تطهير» أثنية ودينية ضد السكان غير الصرب وغير المسيحيين في «الأرض المقدسة».

وبالاستناد إلى ذلك لم يكن من المصادفة أن تختار المنظمة القومية الصربية «يوم فيد» (28 حزيران 1914) لاغتيال ولي عهد النمسا في سراييفو، الذي أشعل الحرب العالمية الأولى. ونظراً لأن صربيا كانت عضواً في التحالف الذي

انتصر في نهاية الحرب فقد كوفئت بأن تكون نواة لإمبراطورية جديدة حملت اسم «مملكة الصرب والكروات والسلوفين». ولم يكن من المصادفة أن يقر دستور هذه الدولة الجديدة التي مثلت الهيمنة الصربية على غير الصرب في «يوم فيد» (28 حزيران 1921)، ولذلك فقد حمل اسم «دستور فيد» بكل ما يعنيه ذلك من تعزيز الهيمنة الصربية. ولذلك عندما قامت المعارضة الكرواتية المكدونية باغتيال الملك الكسندر في 1934 اعتبرت الصحافة الصربية أنه (كما في 1989) ذهب ضحية لأجل «صربيا السماوية».

وبهذه الروح فقد أحيا النظام الصربي المهيمن على يوغسلافيا الأولى (كما أصبحت تسمى هذه الدولة منذ 1928) الذكرى الـ 550 لـ «معرفة كوسوفو». وقد كانت المعارضة اليسارية التي يقودها الحزب الشيوعي اليوغسلافي هي التي خرقت هذا الاحتفال بشعاراتها الفاضحة لهذه الأيديولوجيا.

ومع بروز الحزب الشيوعي اليوغسلافي على رأس «حزب التحرير الشعبية» خلال الحرب العالمية الثانية 1941-1945 التي دعت إلى يوغسلافيا جديدة تقوم على المساواة بين الشعوب، ووصول الحزب إلى الحكم في 1944 تشكلت يوغسلافيا الفيدرالية التي كانت تمثل قطيعة مع الأيديولوجيا القومية الصربية، حيث تراجع الخطاب الديني (الأرض المقدسة) لصالح النظام الأرضي الجديد (الفيدرالي) الذي أصبحت فيه كوسوفو أخيراً وحدة مؤسسة للفيدرالية ومتساوية مع الوحدات الفيدرالية الأخرى.

ومن هنا، فإن المعارضة القومية الصربية التي هزمت بقوة السلاح في 1944 وأعدم قائدها درّاجا ميخائيلوفيتش في بلغراد في 1945 كان عليها أن تنتظر موت تيتو في 1980 لتعيد إحياء الخطاب الديني القومي وبعث مفردات «الأرض المقدسة» و«القدس» لشحن الصرب من جديد ضد يوغسلافيا التيتوية التي أصبحت تعتبر عدوة الصرب بعد أن جعلتهم يخسرون السيطرة على كوسوفو في النظام الفدرالي الجديد.

ونظراً لأن هذه المعارضة القومية قامت ضد «يوغسلافيا التيتوية» فقد وصلت في معارضتها إلى السياسة الخارجية التي خطها تيتو والتي تميزت بموقف مؤيد للعرب ومعارض للاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية في حرب 1967 بما في ذلك القدس.

وفي هذا السياق فقد فاجأ الكاتب الصربي «المنشق» فوك دراشكوفيتش، الذي طرد من الحزب الشيوعي في 1982 بسبب روايته « الخنجر» التي أثار فيها المشاعر الدينية والقومية الصربية ضد المسلمين في البوسنة،الرأي العام اليوغسلافي حين وجّه رسالة مفتوحة الى اتحاد كتاب اسرائيل في 17/12/1985 قال فيها إن «كل شبر من كوسوفو هو قدس(جيروسالم)»، وإن «مايربط اليهود والصرب هو المعاناة المشتركة» الخ.

وقد أخذ هذا «الانشقاق» الفردي عن الخط اليوغسلافي التيتوي بعدا انقلابيا في العام اللاحق (1986) بعد أن وصل ميلوشيفيتش الى رأس السلطة الحزبية في صربيا. فقد تولت أكاديمية العلوم والفنون الصربية وضع تقرير عن حالة صربيا والصرب في يوغسلافيا التيتوية أحدث ضجة كبيرة في يوغسلافيا بعد أن تسربت مقاطع منه إلى الصحافة نظراً لأنه كان يدعو بصراحة إلى إعادة هيكلة يوغسلافيا بما

يعيد للصرب «حقوقهم المهدورة». وفي هذا السياق فقد استخدم التقرير المفردات الدينية والمقاربة بين الصرب واليهود لينتهي إلى حق الصرب في «أرضهم الموعودة» (كوسوفو) لايقل عن حق اليهود في دولة إسرائيل لأن «الشعبين كانا ضحية».

وبعد أقل من سنة على ذلك تأسست خلال 1987 أول جمعية صداقة صربية إسرائيلية بدعم من ميلوشيفتش، حيث كان الهدف منها الترويج للمصير المشترك بين الشعبين اللذين لكل منهما أرضه الموعودة وقدسه وإقامة علاقات دبلوماسية بين صربيا وإسرائيل في الوقت الذي كانت فيه يوغسلافيا على الخط التيتوي فيما يتعلق بالنزاع العربي الإسرائيلي.

ومع اقتراب الذكرى الـ 600 لمعركة كوسوفو أخذت هذه النزعة القومية الصربية الصاعدة بقوة بعدا جديدا بالتركيزعلى أن صربيا في 1389م كانت تدافع عن أوربا المسيحية أمام «الخطر الاسلامي» (العثماني آنذاك)، كما انها في 1989 تدافع أيضا عن يوغسلافيا وعن أوروبا أمام «الخطر الاسلامي» (الألبان الآن)، وهو ما جعل للقدس تفسيراً جديداً. وهكذا فقد صرّح ماتيا بتشكوفيتش رئيس رابطة كتاب صربيا، التي تحولت آنذاك الى مركز لهذه النزعة القومية الصربية الصاعدة، إلى أن كوسوفو الجديدة(بعد استعادتها من الألبان) يجب «أن تبدو كالقدس التي فيها لكل دولة أوربية كنائسها».

وبعد ضم كوسوفو إلى صربيا عشية الاحتفال بالذكرى الـ600 للمعركة، الذي احتفل به ميلوشيفيتش أمام أكبر حشد صربي في التاريخ (حوالي مليون شخص) بوصفها «القلب الذي يدفىء الصرب» كما هو الأمر مع القدس لليهود، ازدادت كثيراً هذه المقاربة بين «القدس الصربية» وبين «القدس اليهودية» خلال السنوات العشر اللاحقة 1999-1989 لتبرر ما أنجزه ميلوشيفيتش. وقد وصلت هذه المقاربة الى ذروتها في الحرب الإعلامية الموازية لحرب 1999، التي أدت إلى انسحاب القوات الصربية من كوسوفو وفتح الطريق أمام شعب كوسوفو ليقرر مصيره ويعلن استقلاله لاحقاً.

وكما أن هذا المفهوم المؤدلج للقدس لدى الصرب ارتبط بصعود الإيديولوجية القومية في الربع الأخير من القرن العشرين، وحقق الغرض منها خلال وجود ميلوشيفيتش في السلطة (1986-2000)، فقد انحسر استخدام هذا المفهوم المؤدلج مع انحسار الإيديولوجية القومية الصربية مع هزيمة ميلوشيفيتش في انتخابات أيلول 2000 وتسليمه إلى محكمة جرائم الحرب في لاهاي خلال 2002، وعادت القدس لتسترد ثانية مكانها في التاريخ الصربي، وفي الحالات جميعاً، فإنّ قراءة القدس في وجوهها ودلالتها المختلفة ضرورة للدفاع عنها كي تبقى خافقة أبداً في الوجدان الإسلامي ◆

مسألة حائـط البـــراق
ما قبـل وما بعـد

هنري لورانس
نقلها إلى العربية: بشير السباعي ★

أولى الحاج أمين الحسيني الأولوية في عمله للأماكن المقدسة في الحرم الشريف. والحال أن حائط البراق كان قد أصبح، منذ عام 1918، رهاناً رئيسياً في العلاقات بين اليهود والعرب. وقد أعادت حوادث عام 1926 التذكير بأهميته. ومن ثمَّ فإن الحاج أمين، يعدّ نفسه حارس ثالث أماكن الإسلام المقدسة، لم يكن بوسعه ألاّ يتخذ موقفاً حاسماً تجاه الموضوع. فالحائط ينتمي إلى وقف «أبو مدين» الإسلامي، الذي أنشأه أحد أحفاد وليّ مسلم مغربي في القرن الرابع عشر. وبالنسبة لهذا التيار الصوفي الإسلامي، فإن القدس، أولى القبلتين، لا بد لها أن تستعيد هذه المكانة في آخر الزمان أو حتى قبل ذلك. فمهديّ آخر الزمان لا بد له من الظهور في المسجد الأقصى. والمسجد مستند، ببناياته الثانوية، إلى سور الحرم. وقد تكون حي مغربي خارج هذا الحرم. والحال أن وثيقة تأسيس الوقف تحظر رسمياً أي نزع لهذه الممتلكات. وهناك درب اسمه درب المغاربة، وهو درب ضيق بالأحرى (يتراوح طوله بين 29 و 45 متراً بينما يصل عرضه إلى 4.2متراً)، يفصل سور الحرم عن البنايات. ويبدو أن هذا الجزء من الحائط يرجع إلى زمن هيرود الأكبر. ويرى لويس ماسينيون:

★ انظر الملاحظة في خاتمة الدراسة.

أن الأقصى كان القبلة الأولى وسوف يصبح القبلة الأخيرة. فالإسراء الليلي، حيث أسرى الله «بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» [السورة 17، الآية1] (والذي ميّزه عمر لدى دخوله القدس) إنما يثبت بما فيه الكفاية أن القدس: «مدينة الأنبياء»، هي « القبلة القلبية» الأولى لمحمد، وأن «مربط البراق» (مرقاة ذلك الجواد الذي لا يتحدث عنه القرآن، والذي يماهيه الدروز بسلمان)، أمام بوابة المغاربة، هو بتعبير أدق «محط» الانجذاب الروحي لمحمد، وهو «محط» يجابه السور الهيرودي للهيكل المزعوم، على بعد عدة أمتار من حائط البراق.

ومنذ أواخر العصر الوسيط، نقل المتدينون اليهود تدريجياً موقع صلواتهم المميز في القدس من جبل الزيتون إلى حائط البراق. وقد سمحت لهم سلطات الوقف بالصلاة هناك، بيد أنها حظرت عليهم إحضار أشياء إلى المكان. وبحسب المبدأ الحقوقي للوضع القائم، فإن أي تغيير، ولو كان طفيفاً، في الممارسات الدينية، إنما يؤدي إلى خلق حقوق. ومن شأن وجود دائم للأشياء أن يجرّ تدريجياً إلى تحويل المكان إلى معبد يهودي. ويبدو أن المؤمنين المسلمين، خلال الجزء الأكبر من العصر العثماني، لم يروا أي خطر في مجيء الحجاج اليهود. وتبدأ الأمور في التغير مع محاولات إدمون دو روتشايلد الحصول على الحائط والأماكن المحيطة به، وهو عمل تحظره وثيقة تأسيس الوقف حظراً صارماً. ويصبح سكان الحي يقظين. ويتعزز الانزعاج مع المحاولة الصهيونية الرامية إلى امتلاك الموقع، في عام 1918. وفي الأعوام التالية، تشير حوادث جديدة إلى أن المسلمين يراقبون بانتباه أفعال الحجاج اليهود وتصرفاتهم.

وفي 23 سبتمبر/ أيلول 1928، خلال يوم كيبور، يحضر المحتفلون دريئة أو حاجزاً ساتراً لفصل الرجال عن النساء. وعلى الفور، يسارع سكان الحي إلى إشعار السلطات الدينية المسلمة بما يجري؟

ذهب المفتي إلى حاكم المدينة وأوضح له أن وجود الحاجز الساتر إنما يشكل تحويلاً للزقاق إلى معبد يهودي، الأمر الذي يعدّ انتهاكاً للوضع القائم واستيلاء على المكان من شأنه أن يصبح استيلاء غير قابل للإلغاء إذا ما جرى السكوت عنه ولو مرة واحدة. وقد أضاف أن هذه المناورة نفسها كانت قد وقعت قبل سنتين عبر إحضار مقاعد مطوية، وقد صودرت هذه المقاعد من الحضور بتدخل منه. فأصدر الحاكم أمراً بإزالة الحاجز الساتر وقام الضابط الإنجليزي، قائد الشرطة المكلفة بحفظ النظام قرب الحائط، بدعوة حضور الاحتفال إلى إزالته بأنفسهم؛ فرفضوا ذلك، قائلين إنهم بصدد أداء صلاة لا يجب وقفها بأي ذريعة كانت. ومن ثم فقد قامت الشرطة بتنفيذ العملية بنفسها ونجم عن ذلك، في هذا الزقاق الضيق، تدافع من السهل تخيله.

ويؤدي تدخل الشرطة إلى احتجاجات حامية من جانب السلطات الصهيونية. فهي تعترف بأنه قد حدث بالفعل «انحراف واضح عن العادات القديمة المتصلة بالترتيبات الاحتفالية للمراسيم الدينية»، لكنها ترى أن هناك عدم تناسب كامل في ذلك الفعل الذي أدى إلى إرباك صلاة المحتفلين اليهود في المكان الأقدس بالنسبة لهم وفي اللحظة الأقدس في العام. ومنذ غداة الحدث، تُطرَح مسألة الوضعية الحقوقية للحائط.

دار تحريض قوي في الأوساط اليهودية حول هذا الحادث، الذي جرى استغلاله وربما يكون قد جرى التحضير له سعياً إلى شدّ انتباه العالم إلى مسألة الحائط والمطالبة مرة أخرى بتسليم الموقع للطائفة اليهودية. فجميع الهيئات القائمة لهذه الطائفة قد اجتمعت وصوتت بالموافقة على خطابات احتجاج موجهة إلى الحكومة، وجرى إرسال برقيات إلى لندن وجنيف وقد ألغيت دعوة كانت بلدية تل أبيب قد وجهتها إلى ضباط حاملة الطائرات Eagle.

ويتصرف المسلمون، من جهتهم؛ بشكل مماثل:

رداً على هذا الهجوم، شكّل المسلمون «لجنة الدفاع عن البراق الشريف» وعن الفكرة الإسلامية التي يتم فيها ربط هذا الاسم الرمزي بحائط البراق. وقامت هذه اللجنة بإرسال برقيات إلى القناصل في القدس وإلى لندن وجنيف، الخ. وبعد ظهيرة 30 سبتمبر/ أيلول، تدفق حشد غفير على ساحة مسجد عمر؛ ويتألف هذا الحشد من وفود من جميع مدن فلسطين جاءت لتأكيد حقوق المسلمين في الموقع محل النزاع.

ومن الواضح أن انتهاك الوضع القائم إنما يصدر، في تسلسل الأحداث، عن المحتفلين اليهود. وقد نشرت صحافة القدس اليهودية قبل أيام قليلة من الأحداث مقالاً حول ضرورة توسيع الطريق المؤدي إلى الحائط خلال الأعياد الدينية الكبرى، وذلك بالنظر إلى تدفّق الحجاج الذين لا يمكنهم بعد الوصول كلهم إلى موقع الصلاة بسبب ضيق الممر. ويجري اقتراح تملك بيوت المغاربة وهدمها. فهذا من شأنه أن يدل على مدى سير «خلاص إسرائيل» على الدرب الصحيح. وفي عدة مناسبات خلال عشرينيات القرن العشرين، طلبت سلطات الانتداب من الحاخامية عدم تغيير الممارسات المعهودة بأي شكل، انتظاراً للتوصل إلى اتفاق مع المسلمين.

وقد تصرفت السلطات الإسلامية بشكل قانوني مطالبة بتدخل الشرطة البريطانية. والحال أن احتجاجات الصهيونيين الحامية قد استثارت رد فعل مماثل من جانب المسلمين وكان الحاج أمين هو منظم رد الفعل هذا. ويرى الصهيونيون أن الحادث يطرح مجمل مسألة وضعية المقام القومي اليهودي. فبحسب الكتاب الأبيض الصادر في عام 1922، فإن الشعب اليهودي موجود في فلسطين «بحكم حق يتمتع به». ويشجب الصهيونيون انعدام عدالة هذا الوضع ويطلبون من حكومة الانتداب الاتجاه إلى مصادرة مباني الحي المغربي، لأجل مصلحة عامة. ويجب على السلطة العامة أن ترغم السلطات الإسلامية على التنازل عن حي الحائط.

ويرى المسلمون أن الحائط لا ينفصل عن المحيط الذي صاغه المسجد الأقصى. وهذا هو الموقف الذي اتخذه المجلس الإسلامي الأعلى:

1. أنّ هذه الناحية من الجدار المذكور، هي مكان البراق الشريف، نسبة لبراق النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإن المسلمين في جميع الأقطار يجلون الإسراء الذي جاء نصاً في القرآن الكريم.

2. أنّ هذا الجدار هو جدار المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين، الذي هو عند المسلمين عامة بمنزلة حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة.

3. إنّ كل جزء من الحرم الشريف وكل جدار

يحيطه بما فيه هذا الجدار الغربي هو في عقيدة المسلمين جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك الذي أشار النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى فضل زيارته والصلاة فيه، وشد الرحال إليه من أدنى الجهات وأقصاها.

ومن هذا كله يعلم أن المسجد الأقصى وكل جزء من الحرم الشريف القدسي، وخصوصاً هذه الناحية من الجدار الغربي التي هي مكان البراق الشريف، له مكانة مقدسة عظمى عند المسلمين عامة، في مشارق الأرض ومغاربها، وأنهم يتعلقون بهذا المسجد المبارك المذكور في القرآن الكريم تعلقاً دينياً شديداً مقروناً بالإجلال والتعظيم.

لم يحدث قط أن نشأت قضية كهذه في تاريخ القدس المعذب. ومن المؤكد أن النزاعات كانت مستديمة، لكنها كانت من حيث الجوهر مواجهات بين صفوف المسيحيين حول ملكية أماكن مقدسة مختلفة. وضمن هذا الإطار تشكل قانون الوضع القائم. أما هذه المرة، فإننا بإزاء صدامات مباشرة بين ممثلي ديانتين مختلفتين، مع وجود خلط، منذ البداية، بين المقدّس الديني والمقدّس القومي وسرعان ما توسعت لجنة الدفاع التي شكلها المسلمون للنظر في هذه المسألة. فهي ترى أن الرغبة في الحصول على الحائط ومصادرة الحي الغربي ليست سوى المرحلة الأولى في خطة أوسع تهدف إلى الاستيلاء على الحرم الشريف برمته وهدم مساجده من أجل بناء الهيكل فيه. وعلى الفور، تضطلع السلطات الإسلامية بأعمال في الوقف، فتنشئ فيه مسجداً ويرتفع فيه الآذان الداعي إلى الصلاة، الأمر الذي يستثير رد فعل عنيف من جانب السلطات الصهيونية التي تشجب بدورها ما تعتبره انتهاكاً للوضع القائم.

وقد عمل الحاج أمين على صوغ الرابطة بين الجانب العربي والجانب الإسلامي لعمله. وفي مستهل شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، عقد مؤتمراً إسلامياً في القدس حضره بشكل واسع قوميون عرب من سوريا. وكانت القرارات مهمة للغاية لأنها تجعل الفلسطينيين أوصياء على الأماكن الإسلامية المقدسة بالأصالة عن مجمل الأمة المسلمة. وكان عزة دروزة هو المتحدث بلسان الوفد المكلف بإحاطة حكومة فلسطين علماً بقرارات المؤتمر.

وفي لندن، تنزعج وزارة المستعمرات من الوضع. وكانت قد أحيطت علماً باحتجاجات صادرة عن حاخام انجلترا الأكبر منذ 3 أكتوبر/ تشرين الأول. ويعلن المسؤولون الصيهونيون عزمهم اللجوء إلى لجنة الانتداب. وفي 10 اكتوبر/ تشرين أول، يطلب القائم بأعمال المندوب السامي من ممثلي اللجنة التنفيذية الصهيونية إصدار تصريح يوضحون عبره أنهم ليست لديهم أي أطماع في نقاشات إضافية حول موضوع تجاوز بالفعل كل نقاش. وفي نهاية المطاف، في نوفمبر/ تشرين الثاني، ترضخ المنظمة الصهيونية مؤكدة أنها تعترف بحرمة الأماكن الإسلامية المقدسة. وهي تحيط الحكومة البريطانية علماً من طرف خفي بأن تصريحاً يرفض أي طموح فيما يتعلق بالحرم من شأنه أن يكون محرجاً لأن تصريحاً كهذا لن يقبله جميع اليهود. وبالمثل، فإن العريضة المقدمة إلى لجنة الانتداب ليس من شأنها تهدئة المسلمين.

تحرص اللجنة التنفيذية على أن ترفض بشدة الشائعات التي تعتبرها زائفة وتشهيرية والتي جرى ترويجها، والتي تذهب إلى أن الشعب اليهودي تخامره نية تهديد حرمة مكان إسلامي مقدس يحيط بالمسجد الأقصى ومسجد عمر.

إن ما يطالب به الشعب اليهودي هو أن يتمتع بالحرية في الصلاة، بما يتماشى مع شعائره الدينية، دون تدخل من الخارج. والساحة الممتدة أمام الحائط موقع صلاة لليهود ويجب إنهاء وضع يجيز لمؤسسة تنتمي إلى جماعة أخرى- هي، في هذه الحالة، المؤتمر الإسلامي الأعلى- التدخل في الترتيبات التي يتخذها اليهود فيما يتعلق بأداء شعائرهم الدينية في المكان الأكثر إجلالاً بين أماكنهم المقدسة.

وبالمثل، فإن الشعب اليهودي يعتقد أن اللجنة الدائمة للانتداب سوف تعترف بأنه لا يتعارض مع روح الانتداب ونصّه إرغام المتدينين اليهود الذي يؤدون الصلاة أمام الحائط على الانحشار في زقاق ضيق (طوله ثمانية وعشرون متراً وعرضه ثلاثة أمتار وستون سنتيمتراً) بدعوى أنه توجد، على الساحة المتاخمة، بعض المخيمات التي تعد ملكاً لـ «الوقف» (منشأة خيرية دينية إسلامية)، لكن ليست لها أي أهمية من الناحية الدينية.

وتطالب اللجنة التنفيذية الصهيونية بمصادرة الوقف المغربي. أما مذكرة الحكومة البريطانية فهي تلقي بالمسؤولية عن الوضع على فعل من جانب واحد قام به المحتفلون اليهود، الذين لم يخبروا السلطات باعتزامهم إدخال تغيير على ما هو متعارف عليه. والموقع نفسه مكان مقدس لدى المسلمين وهو يخصهم من الناحية الحقوقية. ومن ثم فإن:

حكومة فلسطين وحكومة صاحب الجلالة قد انتهتا إلى أنه وفقاً لنص المادة 13 من ميثاق الانتداب على فلسطين، تعد هذه المسألة واحدة من المسائل التي تحرصان بشأنها على صون الوضع القائم الذي فسرتاه على النحو التالي: للجماعة اليهودية الحق في الوصول إلى الزقاق المذكور لأداء صلواتها، إلا أنها لا يمكنها أن تحضر إلى الحائط سوى مستلزمات العبادة التي كان مصرحاً بها في ظل النظام التركي◆

★ **اختراع الأرض المقدسة**: «فلسطين تحت الانتداب 1914-1922»، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2006، ص 242. نقل هذا الكتاب عن الفرنسية بشير السباعي ضمن مشروع ترجمة الدراسة التاريخية الهامة التي قام بها المؤرّخ الفرنسي المعروف هنري لورانس تحت عنوان *La question de Palestine*, published in 1999, Fayard (Paris).

قام المركز القومي للترجمة خلال السنوات الماضية بترجمة هذه الدراسة في عدّة مجلدات صدر آخرها هذا العام. ويعكف المؤرّخ الآن على إتمام دراسته في مجلد لاحق سيظهر عام 2010 بالفرنسية، وسيُترجم لاحقاً إلى العربية.

حوارات

هيثم سرحان

حوار مع
غازي عبد القادر الحسينيّ

أجرى الحوار:
هيثم سرحان

لعلّ الكاتب تزفيتان تودوروف (Tzveton Todorov) أوّل من أشار في كتابه فتح أمريكا الصادر عام 1974 إلى وظيفة الكتابة ودورها في تدعيم السياسات الكولونيالية، وإنتاج خطابات ترافقها وتسوّغها. بيد أنّ إدوارد سعيد تمكّن من مجاوزة هذا التصوّر إلى البحث في الخطابات والآثار التي خلّفتها المشاريع الاستعمارية من أجل تمكين المجتمعات التي عانت من ويلات الاستعمار من الردّ بالكتابة على المستعمرين الذين ألحقوا الضّيمَ بثقافاتها الوطنية.

وإذا كان مشروع إنشاء «إسرائيل» حالة استثنائية في مشاريع الكولونيالية وما بعدها فإنّ وسائط الإعلام والخطابات الأكاديمية الغربية لا تزال تبحث في سجلاّت الفلسطينيين والعرب عمّا يسوّغ ملاحقتهم وتصفيتهم، ذلك أنّ امتلاك الأرشيف يحوّل القاتلَ إلى قاضٍ والضّحيةَ إلى حالة إجرامية أبديّة.

ويؤكّد هذا التصوّر ما يصدرُ من خطابات غربية تُدين الحركات الوطنية العربية التي لم تُذعن للقوى الكولونيالية ولجأت إلى عدوّها التقليديّ المتمثّل بـ«ألمانيا النازية» بزعامة هتلر.

يكتب جيفري هيرف (Jeffrey Herf) أستاذ التاريخ في جامعة ميرلاند كتابًا عنوانه الدعاية النازية في العالم العربيّ يشرح فيه السياسات والمكوّنات الثقافية التي دفعت إلى خلق الاتجاهات الراديكالية في أوروبا وألمانيا، التي أدّت إلى ميلاد مشروع معاداة السامية الذي أسفر عن تحالف الحاج أمين الحسينيّ ورشيد الكيلاني مع هتلر من أجل نشر الإيديولوجيا النازية في العالم العربيّ والإسلاميّ في واحد من أشدّ فصول الحرب العالمية الثانية ومراحلها رُعبًا. ويكتب ميخائيل زونتهايمر مقالة عنوانها «صديق هتلر العربيّ» في استعارة طباقيّة ماكرة يحاول فيها إدانة الفلسطينيين الذين تحالفوا مع هتلر والنازية في مشروع تصفويٍّ يرمي إلى إبادة اليهود وسلبهم مدينة القدس. وسوف يكون الحاج أمين الحسينيّ، حسب زونتهايمر، حجر سنمّار الذي أطاح بالمشروع الفلسطيني، وفرص الفلسطينيين في إقامة دولة فلسطينية، وذلك بعد أن رفض قرار التقسيم، وعدم اعترافه بحقّ اليهود في فلسطين ومضيه في التحالف مع خصوم حكومة الانتداب واليهود.

ولمعرفة بعض جوانب شخصية الحاج أمين الحسيني الخلافية ومقابلته مع هتلر، ارتأينا أنْ نفتح حواراً مع السيد غازي الحسينيّ لمراجعة مشروع الحاج أمين الحسينيّ وأفكاره السياسية.

❖ تثير شخصية الحاج أمين الحسيني عدداً كبيراً من الإشكاليات. ما السبب في ذلك؟

هناك سببان رئيسيان؛ عدم الفهم، ومحاولة التشويه. أما المستوى الإنساني، فالحاج أمين الحسينيّ شخص رقيق ودمث، يحترم ضيوفه، ويقدّر محاوريه، وأذكر أنه لم يكن يعطي ظهره لضيوفه أو مضيفيه، وكان بشوشاً، ومتّزناً في حين أنه عصبيّ إذا ما تعرض إلى استفزاز. ولعلّ أبرز صفات الحاج أمين الحسينيّ كونه معتدلاً في أفكاره، وبعيداً كلّ البعد عن الاندفاع.

وأذكر أنه حضرت صحافيّة يهودية إلى بيروت لإجراء مقابلة مع الحاج أمين الحسينيّ وقالت: إنها ذاهبة لمقابلة عدوّ الشعب اليهودي، وأثناء إجراء الحوار معه فُوجئت أنها بحضرة رجل مهذب خيّب أوهامها ثم أنها عادت واستذكرت أنها كانت بحضرة عدو الشعب اليهودي. وكان بعض الشباب العرب، أثناء صعود حركة القوميين العرب، يحاولون الاستهزاء به والسخرية منه عند مقابلته لكنه كان يتواصل معهم بكل حبّ ودفء فيخرجون من عنده مُكبرين أخلاقه ونبله.

في بداية شبابه كان ضابطاً في الجيش التركي أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان بعيد النظر وحذّر من وجود اليهود في فلسطين وحذّر من خطرهم ليس على الفلسطينيين فحسب، بل على العرب والمنطقة العربية.

❖ هل كانت لك علاقة مباشرة مع الحاج أمين الحسينيّ؟

علاقتي به كانت مميزة وقد أطلعني على أفكاره وهذا الموضوع سيُكشف في قادم الأيام، لكنني أشير مثلاً أنّه حذّر إبّان صعود عبد الناصر

من الانقسامات العربية وأن مشروع الوحدة العربية سيُفضي إلى الانقسام والتجزئة.

❖ هل كان الحاج أمين الحسيني يملك مؤهلات شخصية تمكّنه من تحقيق الزعامة والقيادة أم أنه صار زعيماً بفعل نفوذ عائلة الحسيني ومنصب «مفتي فلسطين الأكبر»، أم بسبب دعم حكومة الانتداب له قبل أنْ يدير لهم ظهر المِجن؟

دعني أوضّح لك مسألة مهمة وهي أنّ البريطانيين نجحوا في إحداث انقسام في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية وضربها عن طريق منصب رئيس بلدية القدس والمجلس الإسلامي الأعلى، ومنذ العهد التركي كانت مؤسسة الإفتاء حكراً على عائلة الحسينيّ. كما أنّ هناك اتجاهات داخل عائلة الحسينيّ فهناك اتجاه «الأفندية» ويمثّله موسى كاظم الحسينيّ الذي كان صلباً في محاورة حكومة الانتداب حيث إنه لم يتقبل فكرة وجود اليهود في فلسطين ولم يعترف بحكومة الانتداب وتشريعاتها وسياساتها، ونجح في تشكيل حالة سياسية رافضة للمشروع البريطاني، وقد انتهج في برنامجه الوطنيّ العصيان المدنيّ وكان أنْ توفي نتيجة إصابته بجروح إثر قيادته ثورة مدنية اتخذت شكل التظاهرة المدنية في مدينة يافا سنة 1934. وفي المقابل هناك محمد كامل الحسينيّ (شقيق الحاج أمين الحسينيّ) الذي كان مفتي القدس قبل الحاج أمين.

لقد كان أمين الحسيني أكثر ليونة وهدوءاً من موسى كاظم الحسينيّ، لكنه كان يؤمن بالخيارين السياسي السلمي، والعسكري الثوري إلاّ أنه أدرك أنه لا يمكن أن يخوض الخيار العسكري لضعف الإمكانيات وعدم القدرة على نجاح الحل العسكري ومواجهة بريطانيا عسكريّاً.

أما الحاج أمين الحسينيّ، فقد أجمع الفلسطينيون على زعامته الوطنية بفضل سياساته وحنكته في التعامل مع حكومة الانتداب. فقد كان دبلوماسيّاً ومناوراً كبيراً مع احتفاظه بالثوابت الوطنية والدينية، وقد نجح الحاج أمين الحسينيّ في تحقيق الزعامة الإسلامية بعد أنْ تمكّن مع إنجاز صلات مع قادة العالم الإسلاميّ بعد أنْ تسلّم منصب المفتي الأعظم سنة 1921.

❖ لكنّ محمد عزة دروزة يقول في مذكّراته: «إنّ الحاج أمين الحسينيّ قد استغلّ مركزه في الإفتاء لجذب الأنصار وتجنيد المؤيدين وتقوية نفوذ العائلة الحسينية»؟

كلام محمد دروزة يندرج في السياق الكيديّ حيث صراع العائلات الكبرى في فلسطين التي كانت تتصارع على مواقع مثل بلدية القدس، وقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، والتجاذبات مع البريطانيين، وتمثيل الفلسطينيين. فالمعارضة الفلسطينية كانت تقبل العروض البريطانية في حين أنّ المجلس الإسلامي كان يرفض العروض البريطانية.

طبعاً لا يمكن أنْ ننكر أنّ الحاج أمين الحسيني كان يملك قدرة كبيرة في استقطاب الناس، لكنّ هذا الاستقطاب كان يهدف إلى إنشاء التنظيمات الاجتماعية؛ فقد كان الوعّاظ والموظفون العاملون في المجلس الإسلاميّ الأعلى يتجوّلون في جميع أرجاء فلسطين؛ أقضية، وألوية، وقرى لوعظ الفلسطينيين وتثقيفهم سياسيّاً واجتماعيّاً ودينيّاً تمهيداً لنشر أفكار الثورة.

كما أنّ الهيئة العربية كانت بقيادة الحاج أمين وعضوية حسن أبو السعود، وصبري عابدين، وإميل الغوري، ومحمد بيوض التميمي، وسعد الدين عبد

اللطيف، ومنيف الحسيني، وآخرين، مما يعني أنّ قيادة الهيئة ضمت مختلف الأطياف والعائلات المقدسية وغيرها وهذا رد على رأي محمد عزة دروزة.

❖ لكنّ حكومة الانتداب البريطانيّ دعمت الحاج أمين الحسينيّ مما يعني أنه كان حليفاً لها حيث تفيد وثائق المجلس الإسلاميّ الأعلى أنّ الحاج أمين كان على علاقة ودودة مع المندوب الساميّ. ما حقيقة هذه العلاقة؟

هذا صحيح نسبيّاً، فحكومة الانتداب تدخّلت في نتائج انتخابات المجلس الإسلاميّ الأعلى وتعيين الحاج أمين بمنصب المفتي الأكبر (أو الأعظم) بعد نزاع بين المرشحين على رئاسة المجلس، والسبب الذي دفع البريطانيين إلى ترجيح كفته أنّ بريطانيا كانت تدرك أنّ الحاج أمين الحسيني يملك سلطة ونفوذاً أكثر من منافسيه ومن ثم فإنّ تأثيره وحضوره سيكونان أبرز وأكبر. كما أنّ عرب فلسطين كانوا يثقون به نظراً لمواقفه المعادية للانتداب والحركة اليهودية. أما حسام الدين جار الله فرغم أنه كان منافساً قوياً للحاج أمين الحسيني إلاّ أنه كان يفتقد النفوذ الشعبيّ.

لقد راهنت بريطانيا على الحاج أمين لتمرير مشروعها السياسيّ فقد عرضت عليه أن يكون ملكاً في الضفتين مقابل القبول بالدولة اليهودية والتعاون مع حكومة الانتداب، وعرضت عليه حكومة مكونة من مسلمين ومسيحيين ويهود وإنجليز بأكثرية عربية، ورفض الحسيني هذه العروض لأنها تنتقص من حقوق الفلسطينيين الشرعية، علاوة على أنه كان يؤمن بأن فلسطين جزء من سوريا الكبرى، ولعله يحسن القول أن ختم الثورة الفلسطينية سنة 1948، كان قد نُقش عليه (القيادة العامة لجيش الثورة سوريا الجنوبية).

❖ كيف تحوّلت علاقة الحاج أمين مع حكومة الانتداب من الحوار والدبلوماسية إلى الصراع والمواجهة؟

وذلك عندما رفض المجلس الإسلامي الأعلى واللجنة العربية العليا (الهيئة العربية) العروض البريطانية وبدأ في التحريض على الثورة في أوساط المجتمع الفلسطينيّ فأدركت حكومة الانتداب أنّ الحاج أمين الحسيني أصبح خطراً عليها فقامت بمحاصرته في المسجد الأقصى لاعتقاله إلاّ أنه تمكن من الفرار عبر أنفاق سرّية، ولم يقتحموا المسجد الأقصى لأنَّ المشاعر الدينية كانت متأججة الأمر الذي قد يُثير نقمة المسلمين ليس في فلسطين وإنما في العالم الإسلامي.

لقد أرادت حكومة الانتداب أن يكون الحاج أمين أداة طيّعة في يدها لتنفيذ مشاريعها ومخططاتها لكن السحر انقلب على الساحر حينما اكتشفت حكومة الانتداب ضلوع الحاج أمين في التمرد والتحريض على الثورة في الخفاء. لقد أصدر الحاج أمين الحسيني قراراً بإنهاء الإضراب العام ولكنه لم ينه الثورة؛ لأنَّ هناك ضعفاً في الإعداد، واستجابة لطلب الملوك والزعماء العرب الذين خاطبوه مطالبين إياه بوقف الإضراب ومؤكدين له ثقتهم ببريطانيا ووعودها.

❖ هل كان الحاج أمين الحسينيّ صاحب مشروع سياسيّ أم أنه مجرّد زعيم محليّ؟

كان للحاج أمين الحسيني مجموعة أفكار سياسية مهمة يمكن أنْ تشكل بمجموعها ملامح مشروعه السياسيّ:

1. إيقاف هجرات اليهود إلى فلسطين.
2. عدم بيع الأراضي الأميرية لليهود.
3. ألاّ يقوم الفلاحون والملاّك ببيع أراضيهم لليهود.
4. التخلّص من الانتداب البريطانيّ الداعم لليهود.
5. وحدة البلاد العربية.

لقد كان الحاج أمين يرفض تسليم الأراضي لليهود ونقل ملكية الأرض من العرب لليهود لأن في ذلك تمهيداً لتأسيس الدولة اليهودية، لذلك قام بملاحقة السماسرة والمتورطين بعمليات البيع وضربهم بيد من نار. وتجدر الإشارة إلى أنّ مجموع ما كان يملكه اليهود حتى يوم 15/مايو/1948 ما نسبته 7% من أرض فلسطين منها 2.5% قام اليهود بشرائه عن طريق سماسرة والباقي عن طريق حكومة الانتداب. كما أنّ هناك سبباً آخر وراء عداء حكومة الانتداب للحاج أمين الحسينيّ وهو رفضه قرار تقسيم فلسطين، في حين أنّ العرب كانوا مع قرار التقسيم، واتهموا الحاج أمين الحسيني بإضاعة الفرصة التاريخية في إنشاء دولة فلسطينية تعيش إلى جانب الدولة اليهودية. لقد رفض الحسيني التنازل عن الأراضي الفلسطينية وظلّ حتى أواخر أيامه يرفض التسليم بحق اليهود في فلسطين.

إنّ الحاج أمين الحسيني لم يكن يبحث عن زعامة محلية ومجد خاصّين بل إنه كان يتطلع إلى بلاد عربية موحّدة وحرّة من وصاية الانتداب وتبعيته. لذلك فإنّ مفاوضاته مع هتلر سنة 1941 لم تقتصر على فلسطين بل شملت شرق الأردن وسوريا ولبنان ومصر وحضرموت والمحميات.

❖ هناك إشارات تاريخية تفيد أنّ الحاج أمين الحسيني كان ضدّ مشروع الثورة التي أطلقها عز الدين القسّام، وأنه لم يكن على وفاق مع القسّام. ما الرأي الذي يمكن الاطمئنان إليه في هذه المسألة؟

العلاقة بين الرجلين كانت سريّة جدّاً خارج نطاق المجلس الإسلامي الأعلى. ورأيي الشخصي أنَّ الحاج أمين الحسيني كان معارضاً لعز الدين القسّام في ثورته؛ لنقص الإعدادات، والمعدّات فالخلاف كان على توقيت الثورة والتجهيز لها.

ومن هنا نشب خلاف في الآراء مع الشيخ عز الدين القسّام الذي كان يؤمن بإطلاق الثورة وفي أثنائها يقوم بالتدريب والتسليح. أما الحاج أمين فكان يؤمن بالتدريب والتأهيل والتسليح ثم الثورة، ولذلك مُنيت ثورة القسّام بهزيمة كبرى إذ إنه سقط في أول مواجهة سنة 1935.

القسّام كان عجولاً وتنقصه الخبرة والوعي السياسيان، وكان ذا روح حماسيّة وجهاديّة ولم يكن يُعدّ لما هو عازم على إنجازه من حيث التخطيط والتجهيز والإعداد والتدريب والتسليح. أما الحاج أمين الحسيني فكان يؤمن بإنضاج مشروع الثورة في قوى المجتمع الفلسطيني كما أنه كان يبحث عن جهات داعمة للثورة سياسيّاً وعسكريّاً وماليّاً، ومن ثمّ فقد كان أكثر نضوجاً من الناحية السياسية من الشهيد عز الدين القسام. وهذا ما جعل الحاج أمين يميل إلى المناورة والتكتيك؛ فرغم إيمانه بمشروع الثورة إلى أنه ظل يرجئها لأنه لا يملك شروطها الموضوعية. لقد آمن الحاج أمين الحسيني بالثورة الشاملة وسعى إلى التمهيد لها والإعداد لها بثقة واقتدار في حين أن ثورة القسام كانت محلية وضيقة جغرافيّاً.

❖ **ماذا عن ثورة عبد القادر الحسينيّ؟ وما سياقها؟ وبماذا تختلف عن ثورة القسّام؟**

عقب ثورة القسّام عاد القائد عبد القادر الحسيني الذي كان قد أتمّ تعليمه في الجامعة الأمريكية في القاهرة وقام بتمزيق شهادته أثناء التخرج وقال: هذه جامعة استعمارية تبشيرية أهانت الدين الإسلامي والرسول (ص) في كثير من المحاضرات. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما تعلّمه عبد القادر الحسيني كان نتيجة المجهود الذاتي وليس من الجامعة الأمريكية، وعندما عاد إلى القدس عمل في دائرة الأراضي والمساحة واستغلّ عمله في إنشاء تنظيم في أوساط القرويين بعد أن استمع إلى خطة الحاج أمين الحسيني وضرورة وضع خطة والتحضير للثورة وقال له الحاج أمين: نحن لا نريد أن نخسر قساماً جديداً.

ذهب عبد القادر الحسيني إلى دمشق وأحضر ضابطاً سوريّاً اسمه سعيد العاص من ضباط الجيش السوري ليقوم بتدريب المجاهدين، حيث استشهد بمعركة الخضر إثر وشاية أحد العملاء وفي المعركة نفسها أُصيب عبد القادر الحسيني. لقد كانت الثورة عند الحاج أمين الحسيني تعني: (أنْ ننظم، وندرب، ونسلح، ثم الثورة).

❖ **برأيك، هل نجحت ثورة عبد القادر الحسيني أكثر من نجاح ثورة عز الدين القسام؟ وما السبب؟**

نعم، استمرت ثورة 1936 مدة ستة شهور وفُضّ الإضراب بضغط من العرب واتفاق بين الحكومات العربية وبريطانيا ينصّ على إعطاء الفلسطينيين حقوقهم الوطنية، فالعرب خاطبوا الفلسطينيين قائلين: إنّ بريطانيا العظمى ستفي بوعودها للشعب

الفلسطيني. ولعدم الوفاء بهذه الوعود عادت الثورة واستمرّت حتى 1939.

❖ ما الملابسات التاريخية حول توجه الحاج أمين إلى ألمانيا؟

قبل أن يخرج الحاج أمين من فلسطين كان يؤمن أن هناك قوى عالمية غير بريطانيا. فقام بمخاطبة الألمان، من القدس، لمنع هجرات يهود ألمانيا إلى فلسطين علاوة على دعم المصالح الفلسطينية لكنه لم ينجح لأسباب كثيرة.

لجأ الحاج أمين الحسيني إلى العراق بعد ملاحقته من حكومة الانتداب واتصل بقادة العراق الوطنيين وقدم لهم نصائحه في مقاومة الاحتلال البريطاني، ثم إنّ العراقيين قاموا باستثمار علاقات الحاج أمين الحسيني مع الألمان طالبين منهم مساعدتهم في مقاومة البريطانيين لكن المُدهش حقّاً أنَّ علاقة ألمانيا النازية باليهود كانت، في تلك المرحلة، متميّزة جدّاً حيث إنَّ ألمانيا قدمت لليهود تسهيلات تجارية ولوجستية واحتكارية، وهناك علاقة وطيدة بين الوكالة اليهودية والنازية حيث سهلت ألمانيا هجرة اليهود.

❖ ما الذي دفع الحاج أمين الحسيني إلى لقاء هتلر؟

لجأ الحاج أمين إلى ألمانيا لعدم وجود جهةٍ يأوي إليها ثمّ إنّ ألمانيا كانت تخشى من قيام كيان يهودي بعد أنّ غدر اليهود بها؛ بإفشائهم أسرارها وتحالفهم مع الحلفاء. فأخذ الحسينيّ يبحث عن بديل ألماني انطلاقاً من الحكمة التي تقول «عدوّ عدوّي صديقي» وقام بالاتصال بالقنصل الألماني في القدس 1937 يدعوه إلى موقف ألماني إعلامي صريح ضد مشروع تقسيم فلسطين وهجرة لليهود، وقد قُدّم عرض للحاج أمين الحسيني يتضمّن وقوف ألمانيا إلى جانب العرب مقابل نشر الأفكار الوطنية (النازية) في العالم العربي والإسلامي.

توجّه الحاج أمين الحسينيّ إلى الألمان لسببين:

1. نكث حكومة الانتداب بوعودها وإطلاقها يد اليهود في مشروع الدولة.
2. ضعف العرب وتحالفهم مع بريطانيا.

وبعد أنْ كشفت حكومة الانتداب الأمر حوصر أمين الحسينيّ ولوحق وعُرضت لقاء القبض عليه جائزة مالية ضخمة.

❖ هل تعتقد أن الحاج أمين الحسيني قد مضى في علاقته مع الألمان إلى درجة التماهي مع الفكر النازيّ؟

لا، الحاج أمين الحسيني كان يرى أن الفلسطينيين بحاجة إلى حليف قوي يقاوم اليهود ويقاوم الإنجليز الذين شجّعوا على قيام دولة يهودية لذلك فعل كلّ ما بوسعه لمنع قيام دولة يهودية بإشراف بريطاني. ولما كانت هناك حرب بين دول المحور ودول الحلفاء وكانت بوادر النصر في صالح دول المحور رأى أنَّ التحالف مع دول المحور سيكون في صالح الشعب الفلسطيني فكان عليه أن يتصرّف بسرعة ليتحالف مع الجهة المنتصرة ليتمكن لاحقاً من انتزاع حقوق الفلسطينيين منه. كما التقى الحاج أمين الحسيني بموسليني الفاشي علماً أنّه كان يعلم أنَّ إيطاليا متورّطة في ليبيا وفي ضرب الحركة الوطنية الليبية، لكن عداء إيطاليا لبريطانيا دفعه للقاء موسليني. وعبر وساطة إيطالية توجه إلى ألمانيا من روما بالقطار حيث وجد في برلين مجموعة كبيرة

من معارضي بريطانيا وجُلّهم من العالم الإسلامي. وهناك التقى الحاج أمين الحسيني بهتلر جاعلاً نصب عينيه مناصرة ألمانيا للحقوق العربية وإلغاء وعد بلفور واستقلال الدول العربية.

لقد كان هتلر يرى أنَّ اليهود خطر شامل على الإنسانية وأنه سيتصدّى لهم، وأنَّ كفاحه يتضمّن القضاء على مشروعهم بإقامة الدولة اليهودية. وبما أنَّ اليهود قد ألَّبوا البريطانيين ضد العرب، فإنَّ من حق العرب أن يؤلبوا الألمان ضد اليهود.

❖ هل نجح الحسيني في مشروعه السياسي؟

كان أمين الحسيني يؤمن بأن قضية القدس وفلسطين عموماً ليست قضية فلسطينية ولا عربية وإنما قضية إسلامية لذلك قام بالتواصل مع العلماء المسلمين في أنحاء العالم لعقد المؤتمر الإسلامي الأول في القدس لترسيخ حضورها في وجدان المسلمين، والتوكيد على إسلاميتها، وفعلا افتتح الحاج أمين الحسينيّ المؤتمر في رحاب المسجد الأقصى سنة 1931 بحضور علماء المسلمين من اثنتين وعشرين دولة وشدد في خطابه على قدسية المسجد الأقصى والأماكن المجاورة له بما في ذلك حائط البراق. ولولا منصبه في الإفتاء لما نجح من الانفتاح على العلماء المسلمين علاوة على أنَّ الدين كان عاملاً حاسماً في توجيه مشاعر الناس. لقد قام الحاج الحسيني بالإيعاز بدفن الشريف حسين بن علي ومولاي محمد علي في القدس علاوة على قيادات من العالم الإسلامي؛ لتعظيم مكانة القدس في نفوس المسلمين والعرب. لقد كان الحسيني مؤمناً بإخراج القضية الفلسطينية من الأفق العربي المسدود إلى الأفق الإسلامي الرحب.

نعم، نجح سياسياً لكن هزيمة ألمانيا لم تحقق المطالب العربية في حين أنَّ العرب انتصر حلفاؤهم عسكريّاً لكنهم خسروا سياسيّاً ووطنياً إذ لم يحصلوا على الاستقلال.

❖ هل كان الحاج أمين الحسيني ذاتيّاً وأنانيّاً؟

نعم كان الحاج أمين الحسيني مثل عدد كبير من الزعماء ممتلئاً بالحضور الذاتي وكان مفرطاً في سلوكه الذاتي القيادي.

الحاج أمين الحسيني بشخصيته القوية المسيطرة على جميع معاونيه كان قادراً على إخضاع الجميع لرأيه، لذلك فشلت محاولات المعارضة الفلسطينية في تجاوز أمين الحسيني وتخطّيه. وأذكر بهذا الصدد حكاية وقعت سنة 1974 حينما عقد المؤتمر الإسلامي في كراتشي فقد دُعيت من قبل القيادة الفلسطينية (أبو عمار، أبو إياد، خالد الحسن، فاروق القدومي) وطلب مني خالد الحسن التواصل مع الحاج أمين الحسيني من أجل توجيه رسالة للملك فيصل يطلب فيها من السعودية عدم الموافقة على قرار 242 في المؤتمر الإسلامي في كراتشي. فتوجهت للحاج أمين الحسيني، وأبلغته قرار القيادة فطلب مني مقابلة قادة فتح فأبلغتهم برغبة الحاج أمين فاتفقوا على موعد في منتصف الليل حيث جاء أبو عمار، وخالد الحسن، وأبو إياد وقابلنا الحاج أمين الحسيني وسألهم عن طلبهم فأجابوه. فسألهم عن مشروعهم في الثورة وناقشهم في منطلقات الثورة ومبادئها العلمانية التي تفضي إلى قرار بحق اليهود في فلسطين فأجاب أبو عمار بأنَّ هذه الأفكار مجرد تكتيك سياسي وإعلامي لاستقطاب الرأي العام العالميّ، فأجابه الحاج أمين: أخشى أنْ تصبح هذه الأفكار عقيدة عند الجيل الجديد! فردّ عليه خالد الحسن: نحن نقوم

بعقد جلسات توعية لعناصرنا وكوادرنا حتى يعرفوا الحقيقة. وبعد نقاش مطول انتهى في الثالثة فجراً قال الحاج أمين الحسيني: إنّ الرسالة لن تفيد نفعاً لذلك سأتوجه شخصياً إلى الرياض لإقناع الملك فيصل بهذا الكلام وبعد أن توجّه إلى كراتشي من الرياض وتمكّن من إقناع الوفود الإسلامية غير العربية برفض قرار 242 وتم له ذلك.

وعاد الحاج أمين الحسيني من هذه الرحلة متعباً ومريضاً فتوفي بعد عودته بأسبوع.

❖ هل تعتقد أن للحاج أمين الحسيني تأثيراً في انطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة؟

أذكر أنّ الحاج أمين قد أصدر تعليمات إلى جميع مؤيديه في الضفة الغربية وشرق الأردن وسوريا ولبنان بتقديم كل العون والمساعدة للثورة الفلسطينية المعاصرة والانضمام لها.

❖ ما طبيعة العلاقة بين الحاج الحسيني والرئيس ياسر عرفات؟

العلاقة قديمة إذ إن والد عرفات كان يعمل مع آل أبو السعود في القدس وكان لهم ابنة اسمها زهوة لم تكن متزوجة فتوسط الحاج أمين الحسيني لعرفات وتزوج منها. علاوة على أنه في عام 1948 انضم ياسر عرفات الشاب آنذاك وكان طالباً في كلية الهندسة بجامعة القاهرة إلى الهيئة العربية العليا بوصفه عنصر رصد وكان مسؤول جهاز الرصد، في ذلك الوقت، حيدر كامل الحسيني (ابن شقيق الحاج أمين وابن المفتي السابق) وقد طلب منه عدّة مهام لتنفيذها في القاهرة ومن أبرزها الكشف عن جهاز إرسال كان اليهود يرسلون بوساطته رسائل إلى الوكالة اليهودية في فلسطين ويبلغونهم عن التحركات العسكرية المصرية وقد نجح ياسر عرفات في ذلك.

❖ ماذا عن العلاقة السياسية بين الزعيمين؟

لم تكن هناك لقاءات كثيرة بين الزعيمين، ويرجع مردّ ذلك إلى طبيعتهما؛ إذ كان ياسر عرفات يريد الاستقلال بشخصيته عن أي زعامة أخرى حيث أخذ يبني لنفسه مساراً فكرياً وسياسياً مستقلاً، وكان الحاج أمين الحسيني في كل مقابلة معه يوجّه له النصائح ويدعوه إلى عدم التفريط بأي شبر من أرض فلسطين مما يجعلني أعتقد أن ياسر عرفات أدرك أنّ الحاج أمين يريد أن يمارس عليه وصاية سياسية الأمر الذي أدّى إلى نفور ياسر عرفات وابتعاده عن الحاج أمين الحسيني.

لذلك قام عرفات بالإعلان عن أن الثورة الفلسطينية المعاصرة ثورة عالمية وأنها سليلة الثورات الكبرى وليست المحلية كما هو شأن الثورة الفلسطينية 1948/1936 ◆

وثيقة (1)

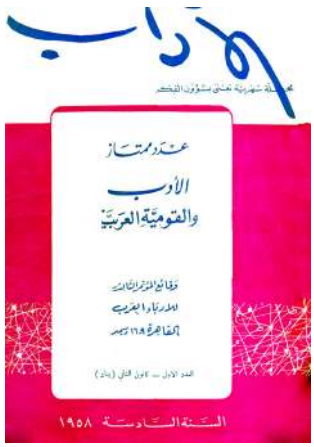

[قبل نصف قرن ونيف نشرت مجلة الآداب البيروتية في عددها 10/9 (عدد ممتاز)، 1958، ص 105-106، في زاوية النشاط الثقافي في الوطن العربي ما شهده مراسلها في القدس، ليذكرنا أن القدس كانت بشكل أو بآخر عاصمة الثقافة العربية وأنها كانت على الدوام مسرحاً للثقافة والفكر والأدب.]

فنان من القدس

ما فتئ نادي الاتحاد الأرثوذكسي العربي بالقدس يرعى الحركة الفنية في لواء القدس منذ أن صمم على إقامة معرض للرسم الفني في شهر آب من كل عام. فقد أقام المعرض الأول سنة 1955، واشترك فيه عدد ضئيل من الفنانين. وما لبث أن ازداد عدد المشتركين عندما ازدادت شهرة المعرض وتحسنت أساليب النادي في العرض والدعوة للمعرض، فبلغ عدد المشتركين في سنة 1957 خمسة عشر فناناً وفنانة من أبرزهم الفنان الفلسطيني إسماعيل شموط. فقد عرض خمس لوحات زيتية من آخر ما أنتج، بينها لوحة بعنوان «متى تعود»؟ تمثل إحدى اللاجئات تنتظر عودة زوجها وهي تحمل طفلاً على ذراعها، وأخرى بعنوان «هنا كان يجلس أبي» تمثل أحد الأطفال اللاجئين يجلس بجوار كرسي صغير ملطخ بالدم، وثالثة بعنوان «ذكريات ونار» تمثل شيخاً لاجئاً يجلس ليلاً في خيمته أمام النار يصطلي ويفكر، بينما تظهر أشباح أطفال نائمين من خلفه.

ولست بمعرض الكلام عن إسماعيل شموط ولا عن غيره من الفنانين المعروفين الذين اشتركوا في المعرض كصبحي القطب وغيره، ولكني أود اليوم أن أتحدث عن واحد من الفنانين الصغار الذين نالوا إعجاباً كبيراً من الزوار والنقاد، ولا سيما من أجل ما أحرزوه من تقدم منذ المعرض الأول.

أما هذا الفنان الصغير فهو كمال بُلّاطة، فقد اشترك في معارض النادي الثلاثة، وكان الزوار يلمسون تقدمه في كل سنة، بدأ التصوير بالفحم والحبر الصيني ثم انتقل إلى الألوان المائية. وفي الشهر الماضي أقام له النادي معرضاً خاصاً عرض له فيه خمساً وثلاثين لوحة بالألوان المائية معظمها من ال «غواش».

ومسحة الكآبة والتشاؤم غالبة على هذا الفنان على الرغم من حداثة سنه. وإذا استثنينا اللوحة التي بعنوان «ظلال لبنانية» فليس في المعرض منظر طبيعي بهيج. وقد اختار مقبرة القدس في أحد موضوعاته ورسم لها لوحة بعنوان «مدينة الموتى» بدا فيها سور المدينة جهماً وراء القبور وقد أخفى مدينة الأحياء عن الأنظار! ولم يستطع أن يصور نفسه إلا في حال كئيبة، فغلبت على «صورته الذاتية» الألوان القاتمة!

ولعله أجاد أحسن الإجادة في رسم الشخصيات التي أخذت النصيب الأكبر من جهده. ومن هذه الشخصيات «جبران» و«خليل مطران» و«خالد العظم» و«فان كوخ» أما الوجوه التي يعبر فيها عن حالات نفسية فمن أجودها لوحة بعنوان «شيخوخة» وأخرى بعنوان «رجولة» وثالثة بعنوان «شراسة» ورابعة بعنوان «شخصية من برلين»، وكلها قوية الخطوط واضحة التعبير.

وقد امتازت بعض لوحاته بروح شعبية محلية، منها لوحة بعنوان «قهوة» يظهر فيها البكرج والفناجين وعلبة السكر أو البن وكوب مكسور اليد، ولوحة أخرى بعنوان «حارتنا». ومنها مناظر لأزقة في مدينة القدس القديمة بقرب الحرم الشريف وأخرى لمشهد داخل دير الروم. وتظهر فيها كلها البساطة في التعبير والنجاح في خلق الجو.

لكن ما هز وصدم معظمهم عدد من الصور التي رسمها كمال بلاطة بأسلوب جديد يعبر فيه عن أفكاره وعواطفه، فقد انتهج لنفسه منهجاً يسير فيه مع الرمزية حيناً والتكعيبية حيناً آخر. من ذلك لوحة بعنوان «الوحيد في حزنه» ظهر فيها إنسان ذو رأس كبير لا فم له وجسم ضئيل، يسير وحيداً في طريق الحياة الملتوية وراءه. وأمامه شجرة لا ورق عليها تظهر من خلال أغصانها العارية كرة ملتهبة بعيدة. وقد غلب على هذه اللوحة لون ليلكي قاتم وجو من الكآبة غريب.

وفي لوحة أخرى بعنوان «عندما يحب المراهق» ظهر في الصورة شكلان: الأيمن مربوط بسلسلة إلى

عمود وكأنه يصور صخور الواقع وقيود التقاليد والعادات، والأيسر مربوط بخيط واه إلى العمود نفسه وقد بدا منطلقاً إلى الأمام ويحتوي على أشكال رمزية في طليعتها قلب مندفع وراء العواطف والأهواء، ثم رسالة غرام وعين دامعة وغيوم ونجوم لعلها خيالات المراهق وأحلامه. وكأني بالفنان يشبه المراهق بمركبة ذات حصانين ينطلق منها حصان اليسار وهو حصان العواطف والخيالات، ويتأخر حصان اليمين وهو حصان الفكر والتعقل فيختل توازن حياته.

وفي لوحة ثالثة بعنوان «المراهقة بين الخير والشر» يبدو رأس المراهقة وقد تلون بألوان زاهية من الجهة اليمنى ولعلها جهة الخير حيث نرى محباً راكعاً يرفع على كفه قلباً ويقدم زهرة، وتلون من الجهة اليسرى بألوان قاتمة وكأنها جهة الشر أحاطتها أنياب مفترسة وذئاب جائعة وفي أعلى الجهة اليمنى قصاصات من الجرائد ملصوقة موضوعها الحب والجنس.

ولن أستطيع أن أمضي في تحليل صور المعرض الباقية المماثلة، ومن أبرزها «وادي الشقاء» و«المفكر» و«راجعون». وهذه اللوحة الأخيرة هي الوحيدة ذات المضمون الوطني الجماعي إذ تمثل عودة اللاجئين إلى فلسطين. أما اللوحات الأخرى فذات مضمون فردي شخصي جداً تبرز لنا هذا الفنان الناشئ ذا شخصية متألمة كئيبة منطوية على ذاتها.

ونحن لا نشك في أن لهذا الفنان طاقة عظيمة على التعبير بالألوان والظلال، ونرجو له مستقبلاً باسماً.

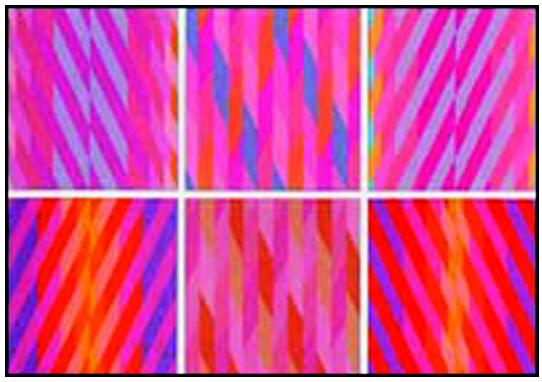

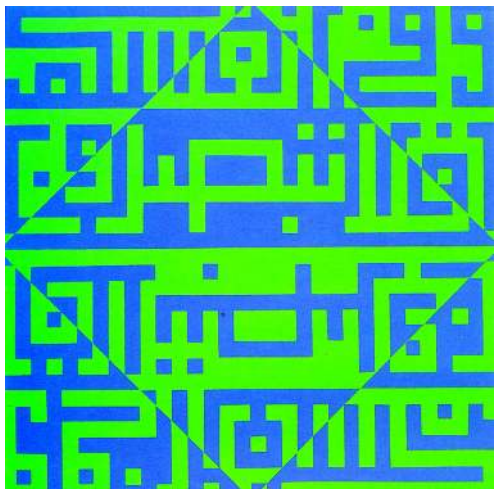

فنون

رافع الناصري

عدنان مدانات

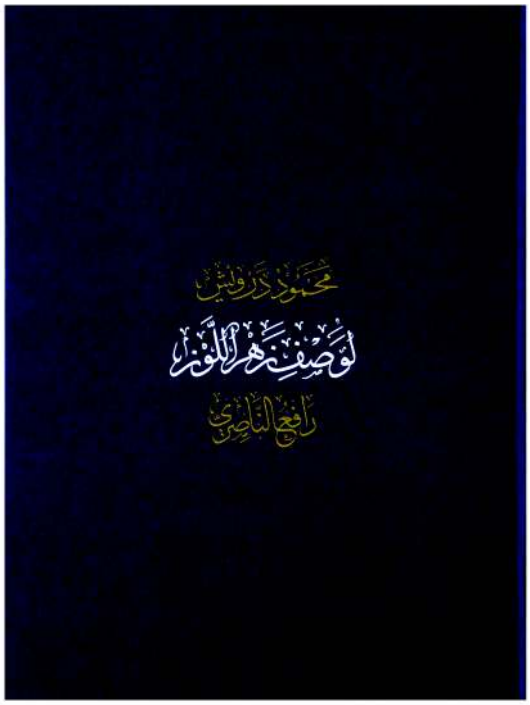

طبع هذا الكتاب الفني في المحترف/ جبل اللويبدة/ عمان
ربيع عام ٢٠٠٩

بواسطة الشاشة الحريرية (سلك سكرين)
على ورق ساندرز ووترفورد ٣٠٠ غم (مولد ميد) قطن ١٠٠٪
وبطبعة محدودة بعشر نسخ مرقمة وموقعة من قبل الفنان
إضافة إلى نسختين (نسخة الفنان التجريبية)
قام بطباعة وتجليد الكتاب: سيف رجلال

الكتاب رقم:

ولوصف زهر اللوز. لاموسوعة الأزهار
تسعفني. ولا القاموس يسعفني
سيخطفني الكلام إلى أحابيل البلاغة
والبلاغة تجرح المعنى وتمدح جرحه
كمذكر يملي على الأنثى مشاعرها
فكيف يشع زهر اللوز في لغتي أنا
وأنا الصدى؟

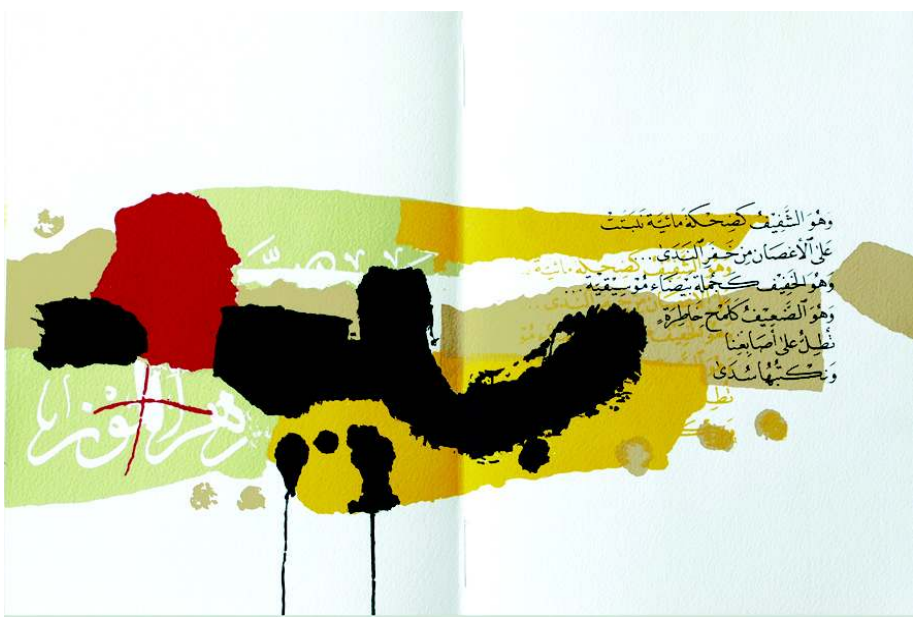

وهو الشفيف كضحكة مائية نبتت
على الأغصان من خفر الندى...
وهو الخفيف كجملة بيضاء موسيقية...
وهو الضعيف كلمح خاطرة
تطل على أصابعنا
ونكتبها سدى

وهو الكثيف كبيت شعر لا يدون
بالحروف
لوصف زهر اللوز تلزمني زيارت إلى
اللاوعي ترشدني إلى أسماء عاطفة
معلقة على الأشجار. ما اسمه ؟
ما اسم هذا الشيء في شعرية اللاشيء ؟
زهر اللوز

يلزمني اختراق الجاذبية والكلام.
لكي أحس بخفة الكلمات حين تصير
طيفا هامسا. فأكونها وتكونني
شفافة بيضاء
زهر اللوز

شفافة بيضاء
لا وطن ولا منفى هي الكلمات
بل ولع البياض بوصف زهر اللوز
لا ثلج ولا قطن / فما هو في
تعاليه على الأشياء والأسماء

لو نجح المؤلف في كتابة مقطع
في وصف زهر اللوز، لانحسر الضباب
عن التلال، وقال شعب كامل
هذا هو /
هذا كلام نشيدنا الوطني!

To Describe an Almond Blossom

To describe an almond blossom no encyclopedia of flowers
is any help to me, no dictionary.
Words will carry me off to the snares of rhetoric
that wounds the sense, and praises the wound it has made.

Like a man telling a woman her own feeling.
How should the almond blossom shine in my own language,
when i am the echo?

It is the translucent, like liquid laughter which has sprouted
on the boughs out of the shy dew . . .
It is light as a white musical phase . . .
It is weak as the glance of a thought which peeps out over our fingers
and in vain we write it . . .
It is dense as a line of verse not arranged alphabetically.

To describe an almond-blossom, I need to make visits to the unconscious
which guides me to a emotional names hanging on trees.
What is its name ?
What is the name of this thing in the poetic of nothing ?

I must brea out of gravity and words,
in order to feel the lightness of words when they turn
into whispering ghosts, and i make them as they make me:
a white translucency.

Neither *homeland* or *exile* are words,
but the patience of whiteness in a
description of the almond blossom.
Neither snow nor cotton.
One wonders about its exultation over things and names.

If a writer were to compose a successful piece
Describing an almond-blossom the mist will rise
from the hills, and people all people would say :

This is it.
These are the words of our national anthem.

Mahmoud Darwish

Almond Blossom and Beyond, Interlink 2009, p20.

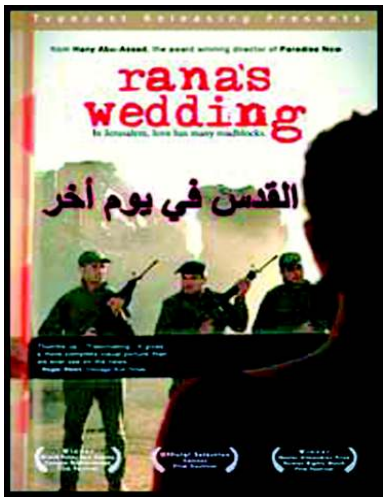

فيلم
القدس في يوم آخر
وإشكالية الحب وسط الاحتلال

عدنان مدانات

شهد مهرجان «كان» السينمائي لعام 2002، مشاركة سينمائية فلسطينية متنوعة فاز أحدها وهو «يد إلهية» للمخرج إيليا سليمان بجائزة لجنة التحكيم الخاصة، وكان ثمة فيلم فلسطيني روائي طويل هو باكورة إنتاج وزارة الثقافة الفلسطينية. الفيلم هو «القدس في يوم آخر» وله عنوان ثان استخدم في الترجمة الفرنسية هو «عرس رنا»، أخرجه هاني أبو أسعد الذي اشتهر فيما بعد عالمياً بعد أن أخرج فيلم «الجنة الآن» الذي رشح لجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي.

يلجأ الفيلم الروائي «عرس رنا/ القدس في يوم آخر» إلى ذات الثنائية المتعارضة الموجودة في فيلم «عرس سحر» الزواج والاحتلال. لكننا في «عرس رنا» لا نتعامل مع مادة فلكلورية تشتغل على تفاصيل خاصة بتقاليد الزواج. هنا أيضاً لا توجد واجهة رئيسية تتصدر الشاشة بل ثمة عرض متزامن متواز لطرفي الثنائية.

يبدأ الفيلم بمشهد مركب، هو نوع المقدمة، تستخدم فيه مؤثرات بصرية لصور أشخاص ثابتة ملتقطة من الخلف حيث لا ترى الوجوه، صور أم، وأب، وأخ وآخرين، ملصقة على لقطات سينمائية تصورهم في وضع الاستلقاء على الأسرّة، بمصاحبة تعليق على كل مشهد على حدة، يوحي بأنه يتعامل مع حدث مضى.

الحدث الذي مضى هو ما حصل خلال نهار واحد مع الشابة رنا التي قررت الزواج من حبيبها في نفس النهار.

يبدأ الحدث فجراً، تستيقظ رنا من نومها قلقة، ترتدي ثيابها على عجل، تتسلل خارجة من المنزل بعد أن تلقي نظرة سريعة على والدها المستغرق في النوم. تعيش رنا مع والدها في القدس، فيما يعيش أخوتها في القاهرة، وهو لا يريد أن يترك ابنته تعيش وحيدة في القدس. لهذا اشترط عليها إما الزواج في نفس اليوم وقبل أن تبلغ الساعة الرابعة بعد الظهر أو مصاحبته للعيش معه في خارج البلاد. كان الوالد قد جهز قائمة بأسماء مرشحين محتملين للزواج، محامين، أطباء، موظفين، كان كل منهم قد طلب يدها وجوبهوا برفضها، والآن يريد منها أن تختار على عجل أحدهم. هكذا بات على رنا أن تبحث فوراً عن حبيبها خليل، المخرج المسرحي، لكي تتزوج منه قبل المهلة التي حددها الأب في الساعة الرابعة من بعد الظهر. هذه هي العقدة التي تقوم عليها حكاية رنا والتي تجعل من الحكاية ومساراتها أشبه بلعبة تحمل في طياتها قدراً ما من السخرية أو المفارقة.

تجوب رنا شوارع القدس وأحياءها بحثاً عن حبيبها، تتصل به مراراً على الهاتف الخلوي فلا يرد، تبحث في المنازل التي يمكن أن يتواجد فيها فلا تعثر عليه، إلى أن تعلم أنه أمضى ليلته في صالة المسرح في رام الله لأن في عودته ليلاً إلى القدس مغامرة خطرة مليئة بالتوتر والقلق، تضطر رنا للذهاب إلى رام الله وتعود مع حبيبها فتقام مراسم الزواج. ينتهي الفيلم بزواج رنا من حبيبها في آخر لحظة. لكن مراسم الزواج وما تبعها من احتفال بسيط ترقص خلاله رنا في الشارع وسط

المدعوين والشهود تتم في الطريق قرب حاجز الجيش الإسرائيلي لأن المأذون لم يتمكن من عبوره بعد أن احتجز جنود الحاجز هويته.

من لحظة استيقاظ رنا فجراً وحتى زواجها في الساعة الرابعة من بعد الظهر، تعيش رنا مغامرة، ففي كل مكان هناك جنود وحواجز، كل خطوة تحتاج إلى تصاريح من الاحتلال وكل طلب تصريح مخاطرة غير مضمونة النتائج. الاحتلال واقع يومي يشمل كل نواحي الحياة، ويبدو أن الناس أدمنوا على التعامل معه كظاهرة يومية.

هناك مشهدان منفصلان يدلان على تعايش هذه الثنائية المتضادة. في المشهد الأول نرى رنا تمرّ وآخرين قرب حاجز للجيش الإسرائيلي. نرى الناس يتوقفون في انتظار نهاية المعركة الجارية بين الجنود خلف الحاجز والأطفال الذين يلقون عليهم الحجارة، تنظر رنا المستعجلة أصلاً قليلاً إلى أن يعيل صبرها فتقرر المضي والعبور بين الطرفين المتجابهين، الأطفال والجنود. لكنها إذ تصبح في الوسط تتوقف لحظة لتحمل حجراً تلقي به نحو الجنود ثم تتابع طريقها. في المشهد الثاني يصطف حبيب رنا خلف طابور كبير من المراجعين يقف أمام مكتب للإدارة العسكرية كل منهم يحتاج إلى شهادة موقعة أو تصريح ما. ولأنه يسابق الوقت للحصول على شهادة بأنه غير متزوج، يحاول أن يتجاوز دوره شارحاً للآخرين في مقدمة الصفوف وضعه، لكن ما من أحد يستجيب له لأن الجميع في وضع استثنائي مستعجل، وهنا لا يتمكن من تحقيق مراده إلا بشراء مكان قريب للوقوف من شاب يبدو، ويا للمفارقة، أنه يتاجر بمكان الوقوف.

فيلم «عرس رنا» يستغرق في عرض تفاصيل مدينة القدس، تفاصيل الأحياء والأزقة والشوارع القديمة والمنازل، بما يشبه الرحلة السياحية في أرجاء القدس تحت الاحتلال والموازية بدورها لرحلة رنا بحثاً عن حبيبها. إن تلك التفاصيل التي برع المخرج والمصور في تقديمها تجعل من الفيلم بدوره وثيقة عن القدس تستحق الانتباه إليها◆

وثيقة (2)

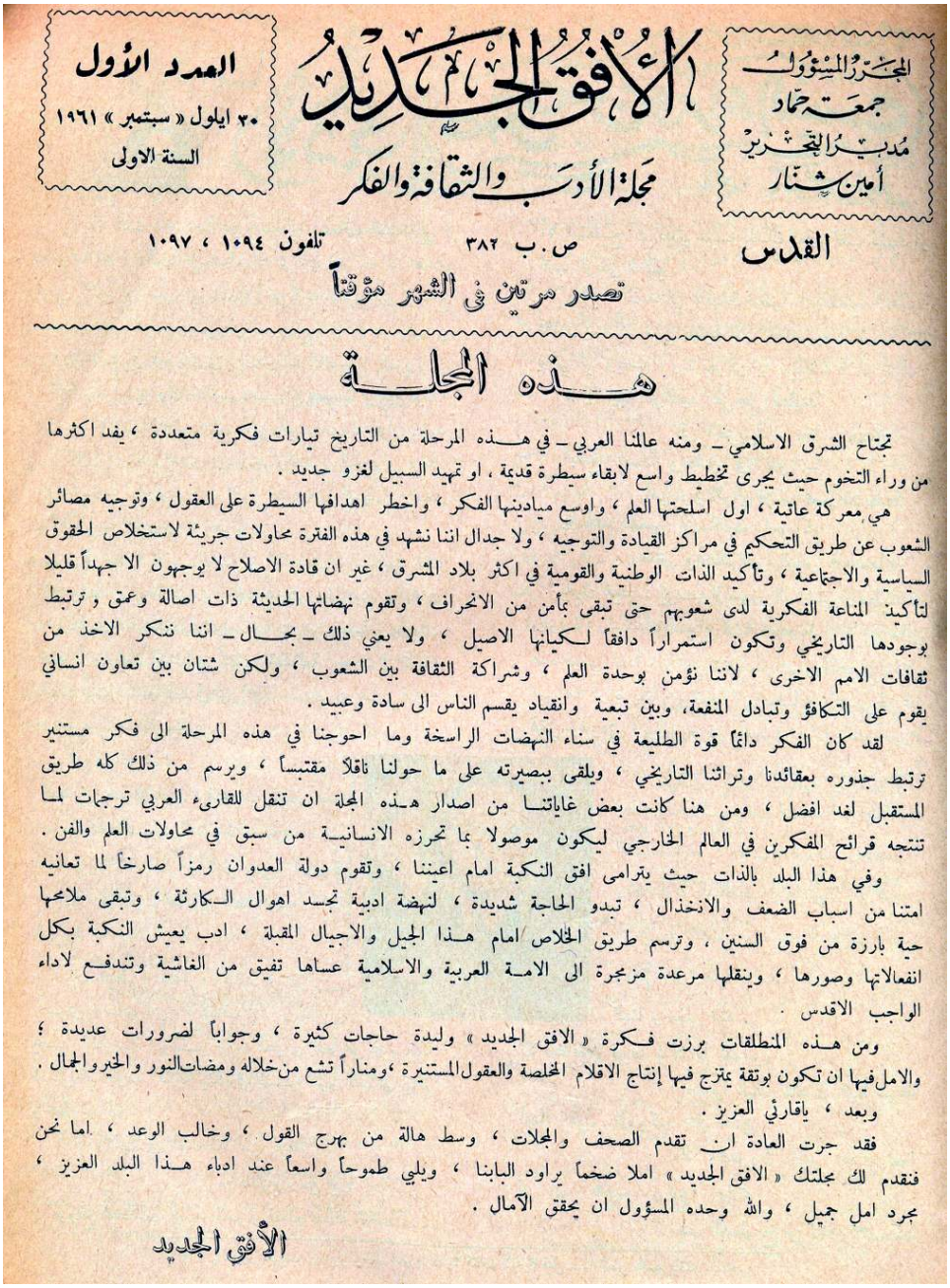

العدد الأول
٣٠ ايلول « سبتمبر » ١٩٦١
السنة الاولى

الأفق الجديد

مجلة الأدب والثقافة والفكر

المحرر المسؤول
جمعة حماد
مدير التحرير
أمين شنار

القدس ص.ب ٣٨٢ تلفون ١٠٩٤ ، ١٠٩٧

تصدر مرتين في الشهر مؤقتاً

هذه المجلة

تجتاح الشرق الاسلامي – ومنه عالمنا العربي – في هذه المرحلة من التاريخ تيارات فكرية متعددة ، يفد اكثرها من وراء التخوم حيث يجرى تخطيط واسع لابقاء سيطرة قديمة ، او تمهيد السبيل لغزو جديد .

هي معركة عاتية ، اول اسلحتها العلم ، واوسع ميادينها الفكر ، واخطر اهدافها السيطرة على العقول ، وتوجيه مصائر الشعوب عن طريق التحكيم في مراكز القيادة والتوجيه ، ولا جدال اننا نشهد في هذه الفترة محاولات جريئة لاستخلاص الحقوق السياسية والاجتماعية ، وتأكيد الذات الوطنية والقومية في اكثر بلاد المشرق ، غير ان قادة الاصلاح لا يوجهون الا جهداً قليلا لتأكيد المناعة الفكرية لدى شعوبهم حتى تبقى بأمن من الانحراف ، وتقوم نهضاتها الحديثة ذات اصالة وعمق و ترتبط بوجودها التاريخي وتكون استمراراً دافقاً لكيانها الاصيل ، ولا يعني ذلك – بحال – اننا ننكر الاخذ من ثقافات الامم الاخرى ، لاننا نؤمن بوحدة العلم ، وشراكة الثقافة بين الشعوب ، ولكن شتان بين تعاون انساني يقوم على التكافؤ وتبادل المنفعة، وبين تبعية وانقياد يقسم الناس الى سادة وعبيد .

لقد كان الفكر دائماً قوة الطليعة في سناء النهضات الراسخة وما احوجنا في هذه المرحلة الى فكر مستنير ترتبط جذوره بعقائدنا وتراثنا التاريخي ، ويلقى ببصيرته على ما حولنا ناقلا مقتبساً ، ويرسم من ذلك كله طريق المستقبل لغد افضل ، ومن هنا كانت بعض غاياتنا من اصدار هذه المجلة ان تنقل للقارىء العربي ترجمات لما تنتجه قرائح المفكرين في العالم الخارجي ليكون موصولا بما تحرزه الانسانية من سبق في محاولات العلم والفن .

وفي هذا البلد بالذات حيث يترامى افق النكبة امام اعيننا ، وتقوم دولة العدوان رمزاً صارخاً لما تعانيه امتنا من اسباب الضعف والانخذال ، تبدو الحاجة شديدة ، لنهضة ادبية تجسد اهوال الكارثة ، وتبقى ملامحها حية بارزة من فوق السنين ، وترسم طريق الخلاص امام هذا الجيل والاجيال المقبلة ، ادب يعيش النكبة بكل انفعالاتها وصورها ، وينقلها مرعدة مزمجرة الى الامة العربية والاسلامية عساها تفيق من الغاشية وتندفع لاداء الواجب الاقدس .

ومن هذه المنطلقات برزت فكرة « الافق الجديد » وليدة حاجات كثيرة ، وجواباً لضرورات عديدة ؛ والامل فيها ان تكون بوتقة يمتزج فيها إنتاج الاقلام المخلصة والعقول المستنيرة ، ومناراً تشع من خلاله ومضات النور والخير والجمال .

وبعد ، ياقارئي العزيز .

فقد جرت العادة ان تقدم الصحف والمجلات ، وسط هالة من بهرج القول ، وخالب الوعد ، اما نحن فنقدم لك مجلتك « الافق الجديد » املا ضخماً يراود البابنا ، ويلبي طموحاً واسعاً عند ادباء هذا البلد العزيز ، مجرد امل جميل ، والله وحده المسؤول ان يحقق الآمال .

الأفق الجديد

[أما زالت هذه الافتتاحية تنطق بلسان الحال؟]

صور من القدس

سبيل السلطان قايتباي، شيّد عام 1482م

مأذنة الزاوية الخلوتية، شيّدت بين عامي 1932-1933

باب الحديد

منظر عام لقبة المدرسة النحوية التي كانت تدرس علوم النحو والشريعة في القدس

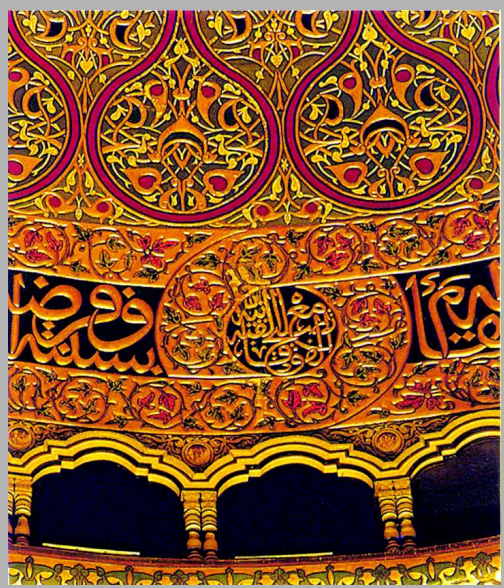

تصميم داخلي لقبة الصخرة

بلاطات مزجّجة من قبة الصخرة، من عهد سليمان القانوني (الفترة العثمانية)

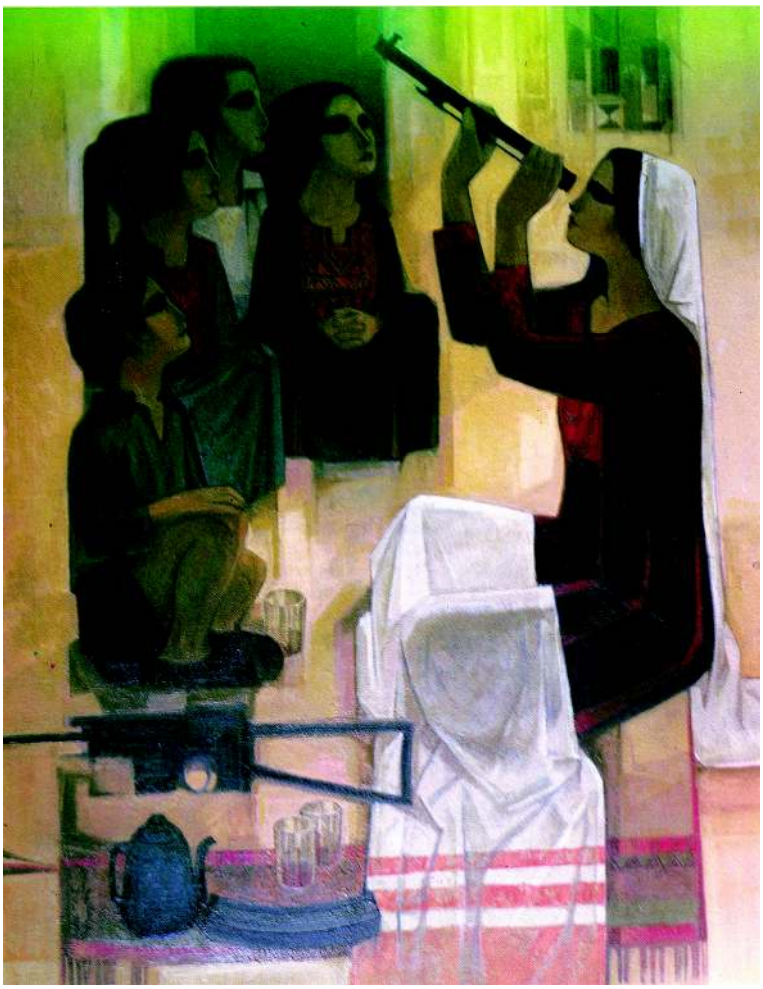

اللوحة للفنان نصر عبد العزيز- فلسطين.

اقتباس

حسين ياغي
فارسين أغابكيان
مهند مبيضين

قصة كتاب

قدسنا: شهادة على الحدث والحقيقة

حسين ياغي

ربما يكون في عنوان الكتاب قدسنا ما يشي بمضمونه، قبل القراءة، وما يفصح عن المضمون، صريحاً، بعد القراءة. والكتاب سيرة ذاتية لعائلة سبافورد الأمريكية، قامت بتدوينها ابنتها بيرثا سبافورد فستر، جاءت إلى القدس في مطلع القرن الماضي مدفوعة، ربما، بعبق التاريخ، الذي يطلق في ذاكرة البعض فيضاً من الأطياف أو منجذبة، ربما إلى فكرة الخلاص، ذلك أن في غموض القدس ووضوحها، ما يستقدم أرواحاً تبحث عن النور الأصلي.

تعرّفت العائلة، في إقامتها الطويلة، على المدينة المقدسة المهجورة وغير المهجورة في آن: مهجورة هي، لأن فيها ما كان يحتاج إلى ترميم وإعادة بناء، وغير مهجورة أبداً، لأنها كانت تستقبل «غرباء»، يبحثون فيها عن «مجد قديم»، بقدر ما كانت تغري «حاكماً تركياً» بإطلاق اسمه على جزء من أجزائها.

ومع تكاثر «الغرباء»، المبشّرين بمذاهب مختلفة، أو الطامعين بـ«فتوحات سياسية» استيقظت المدينة القديمة، شيئاً فشيئاً على ما يختلس هويتها، بدءاً بوعد بلفور، الذي أخلص له ساسة بريطانيون «صهاينة»، وصولاً إلى قادة صهاينة، أقنعهم هرتزل بدولة يهودية جديدة.

عاشت هذه العائلة المسيحية في القدس، وعاشت مع أهل المدينة، مسلمين كانوا أو مسيحيين، اختلطت بهم محاولة التخفّف من «عبء الإنسان» واختلطوا بها، مصرّحين ببساطة تثير الشجن. أتاح لها هذا الاختلاط أن تتعلم شيئاً من العربية، وأن تتعرّف على «مطبخ الشرقيين»، الذين فاتتهم الحداثة ولم تفتهم في آن: فاتتهم الحداثة وهم مقيّدون إلى «سلطان عثماني» لا يكترث ببناء المدارس والمستشفيات، ولم تفتهم الحداثة، لأنهم احتفظوا بأصالة القيم، المحدثة عن التسامح والكرم واستقبال «الآخر» والاعتراف به. ولعل هذه القيم هي التي أملت على كاتبة **قدسنا** سرداً بسيطاً واضحاً، لا يزدري الفلسطينيين ولا ينكّل بهم. تعاملت صاحبة الكتاب بشكل يومي مع «عمّال» بسطاء لا يرون في «المسيحية الأمريكية» عدواً.

تضمن كتاب **قدسنا** ما يشبه سيرة ذاتية مجزوءة لشخصية مرموقة، التقت بشخصيات لعبت دوراً في مسار «الشرق الأوسط»، فإنّ في الكتاب، وبسبب السياق التاريخي، ما يفيض عن السيرة الذاتية، ثلاثة أمور واضحة تخالط السيرة الذاتية: تسامح القدس، كما عمقها الديني الرمزي، الذي سمح بالتقاء بشر متعددي الجنسيات: اليوناني والألماني والروسي والإنجليزي والأمريكي و«اليهودي». وسواء أشارت هذه الجنسيات المتعددة إلى التبشير الديني أو إلى أطماع سياسية، فإن في حضورها الكثيف ما يفصح عن أهمية المدينة، ليس فقط بالمعنى الديني وحده، بل بمعان مختلفة.

أما الأمر الثاني، فيتكشف في التسلل المنظم لليهود إلى فلسطين، كما أشار الكتاب، الذي استمر منذ مطلع القرن العشرين، بوتائر متفاوتة، إلى أن أفلت من عقاله مع مجيء الحرب العالمية الثانية 1939-1944، حتى بدا انتصار الحلفاء على «هتلر» انتصاراً للصهيونية وإعلاناً عن ميلاد دولة إسرائيل. سردت المؤلفة هذا التسلسل بعفوية كاملة، قبل أن تستفزها المجازر لاحقاً، التي بلغت ذروتها مع مجيء «دولة الاستقلال» التي سلّحت «الوعد الإلهي» بما شاءت من الأسلحة و«العنف المقدس».

لم يغادر أهل القدس مدينتهم طوعاً، ولم يرحلوا عنها ملبّين «نداءات عربية رسمية». كما تدعي إسرائيل فقد خرجوا منها، كما تقول الكاتبة، هرباً من «الموت الصهيوني» فبعد مجزرة «دير ياسين» أراد الصهاينة تعميم النموذج فزرعوا الخوف في «الأعمار الفلسطينية كلها». «وقف الصبي الذي يقترب من السادسة مرتجفاً، وحين أحضرنا شيئاً لمعالجته كان قد سقط ميتاً». في فترة لاحقة، تلت «النشوة الصهيونية»، عنوانها التقسيم، فقسم الصهاينة، كل ما تمكن قسمته: قسموا الأرض والقرى والبيوت والأشخاص، فغدت القرية قريتين والبيت الواحد بيتين، والدار دارين، واجتاح التقسيم الطفل فأصبح «طفلين» واستقر تحت التراب.

ينطوي كتاب **قدسنا** على وثيقة نزيهة متعددة الوجوه: القدس في غموضها المهيب الذي يجتذب أرواحاً متعددة، أرض فلسطين التي استضافت «أقلية يهودية» طردت السكان الأصليين، الإرهاب الصهيوني، الذي يقتل الشجر والبشر والسياسة البريطانية التي كانت صادقة مع «اليهود» وكاذبة الكذب كله مع العرب.

عملت الكاتبة بيرثا سبافورد فستر وعاشت في القدس لما يقارب السبعين عاماً قبل أن تنشر كتابها قدسنا في لندن عام 1948. وقد ضم الكتاب حكاية أمريكية بدأت بحريق شيكاغو الكبير عام 1871،

وتقول الأسطورة. إن النار قد اشتعلت عندما قامت بقرة تملكها السيدة أوليري، والدة شخصية سياسية من شيكاغو، بركل مصباح ليسقط على كومة من القش.

كانت عائلة سبافورد تتمتع بمكانة كبيرة في شيكاغو، حيث كان والد بيرثا محامياً ناجحاً يذهب به عمله إلى أوروبا بين حين وآخر، وكانت له عقارات وممتلكات كبيرة في الوطن غير أن الحريق الكبير آتى على الكثير من ممتلكاته.

حلّت الكارثة الأكبر عندما عبرت السيدة سبافورد وأبناؤها الثلاثة الصغار المحيط الأطلسي للانضمام إلى الزوج في إنجلترا، حيث غرقت السفينة وفقد الأطفال الثلاثة في البحر. وكانت كلمتا «نجوت وحدي» هي محتوى البرقية التي أرسلتها السيدة سبافورد إلى زوجها بعد أن أنقذتها سفينة عابرة. وعندما التأم شمل الزوجين، شرعا في تأمل مغزى الكارثتين التوأمين اللتين حلتا بحياتهما: هل كانت هذه هي إرادة الله؟

في النهاية غادر أفراد عائلة سبافورد، وأفراد عائلة كبيرة تدعى عائلة «لارسن» وبعض السويديين- الأمريكيين شيكاغو ليستقروا كلهم في القدس، وفيما بعد، قيل أن هؤلاء قاموا بهذه الخطوة انتظاراً لعودة المسيح الثانية.

بعيد ذلك، في حوالي عام 1878، انضم أقارب عائلة لارسن من السويد إلى المجوعة في المدينة المقدسة، وأصبحوا جميعاً يعرفون باسم «المحمية الأمريكية» The American Colony. وقد تخلد الاسم في البناية الحجرية القديمة البهية التي كانت ذات مرة واحدة من أماكن سكنى المجموعة، والتي أصبحت تشكل الآن الجزء الرئيسي من «فندق المستعمرة الأمريكية». وقد أصبح هذا الفندق مع الإضافات وإعادة التأثيث مجمعاً للإدارات والملتقى للصحافة الدولية في القدس الشرقية.

أعمل المستوطنون أيديهم في صناعة الأحذية، والنجارة والميكانيك والأعمال الإنسانية التي أثمرت، فيما بعد، عن تأسيس مستشفى للأطفال داخل جدران المدينة القديمة. وفي الغضون، رزق الزوجان سبافورد بطفلة أخرى أسمياها بيرثا.

تزوجت بيرثا سبافورد من فريدريك فستر، وهو ابن لعائلة تبشيرية ألمانية في القدس. وقد أصبح منزل عائلة سبافورد القديم اليوم المكتب الرئيس ومكان الإقامة للقنصل الأمريكي العام في القدس الغربية اليهودية. وعبر سنوات إقامتها في القدس، قابلت بيرثا وكتبت فيما بعد في كتابها قدسنا عن العديد من الشخصيات ذات الشهرة العالمية ممن زاروا القدس أو عاشوا فيها. من بين هؤلاء كان اللورد هيربت صموئيل، وهو صهيوني وأول مفوض بريطاني أعلى لفلسطين، والجنرال البريطاني اللورد أللينبي، الذي قام جيشه في الحرب العالمية الأولى بانتزاع فلسطين من قبضة الأتراك قبيل عيد الميلاد عام 1917، وقابلت السيدة كلاً من ونستون تشرشل الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء بريطانيا، ورئيس إسرائيل مستقبلاً حاييم وايزمن، والصحافي الأمريكي البارز لويل ثوماس، ولورنس العرب الذي ساعده ثوماس بصناعة شهرة عالمية، والملك عبد الله ملك الأردن، و جيرترود بيل الكاتبة الشاعرة والمكتشفة وضابط المخابرات البريطانية، ومفتي القدس الحاج أمين الحسيني وعدداً من الشخصيات الأخرى. كما وصفت في كتابها الأوقات الصعبة الكثيرة التي واجهتها «المحمية الأمريكية» خلال أشدّ حقب فلسطين اضطراباً. وضمت تلك

الأوقات تعرض زوج بيرثا الألماني للاعتقال والسجن في الحرب العالمية الأولى باعتباره غريباً وعدواً على يد الجيش البريطاني القادم.

رغم تقلب الظروف على تاريخ أسرتها، كانت السيدة سبافورد فستر نفسها واحدة من أولئك الأفراد النادرين الذين بدوا وأنهم يمتلكون كل شيء: جمالاً متميزاً وذكاءاً حاداً والكثير من السحر الشخصي، كانت قائداً بالفطرة، وقد كانت إرادتها ونزوعها وموهبتها في جمع التبرعات والأموال هي التي أبقت على المحمية الأمريكية متماسكة معاً خلال فترات الازدهار والأزمات، وكانت مهاراتها الغريزية في الكتابة هي التي حفظت هذه الحكاية متعددة الثقافات للتاريخ في كتابها **قدسنا**.

عندما قدمت مسوّدة كتابها إلى ناشر بريطاني، كان أحد فصول الكتاب يصف بإسهاب، وبأمانة تلك الوحشية الإسرائيلية التي مورست ضد السكان الفلسطينيين لدى إقامة الدولة في عامي 1947-1948.

وعندما استلمت بيرثا النسختين الأوليين من الكتاب من الناشر، صعقت لدى اكتشاف أن الفصل الذي ينتقد إسرائيل قد حذف تماماً من الكتاب. وأعقبت ذلك صدمة أكبر، حين علمت لاحقاً أن كتابها لم يكن متاحاً للجمهور على الإطلاق، كانت السفارة الإسرائيلية في لندن قد ابتاعت كافة النسخ المطبوعة وحالت دون توزيعها. ولم يظهر كتابها للعلن أبداً.

حوالي عام 1960، استطاعت بيرثا سبافورد فستر إعادة طباعة كتابها، بما فيه الفصل المحذوف عن إنشاء إسرائيل. مع ذلك، وعلى نحو يبين أن «التاريخ يكتبه المنتصرون»، ولأكثر من عقد، بينما كان يجري تشكيل نظرة العالم وتصوره عن السكان اليهود ومنافسيهم من المسيحيين والمسلمين في فلسطين، استطاعت الحكومة الإسرائيلية تدبر أمر حذف رواية متبصرة ومصادرتها كتبتها شاهدة عيان مسيحية أمريكية عن هذا الفصل الساخن والجدلي من التاريخ الإسرائيلي.

في الوقت الذي انتقل فيه كتابها أخيراً إلى دائرة الانتشار، كانت الصورة النمطية لتكوين إسرائيل قد تشكلت، ليس على يد المشاركين في الحدث، وإنما على أيدي مأجورين، مثل ليون أوريس. وهو كاتب أفلام هوليود لم يكن قريباً من موقع الحدث بأي شكل عندما وقع، لكن آلة الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة فوضته بكتابة عمل روائي عنوانه الخروج Exodus والذي أصبح لاحقاً من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة، ثم تحول إلى فيلم سينمائي. وحتى هذا اليوم ما يزال تصويره الأحادي الجانب للأحداث يشكل النسخة التي يصدقها معظم الأمريكيين، على المستوى غير الواعي على الأقل، للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. من الناحية الأخرى، تبقى رواية السيدة سبافورد الرفيعة المستوى والمشتبكة بالحدث قابعة على الهوامش ويصعب الوصول إليها. ويشكل هذا الانتصار للدعاية مأساة ومصادرة على الحقيقة.

مقتطفات من الفصل الأخير من الكتاب

لم يتورع الصهاينة عن إخفاء سعادتهم حين مورست الضغوطات على كوبا وليبيريا والفلبين في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام 1947 للتصويت لصالح قرار تقسيم فلسطين؛ فقد عبروا عن سعادتهم بالرقص في الشوارع، وبالغناء والهتاف. وزينوا العلم الصهيوني بالأزرق وبنجمة داوود البيضاء. لكنهم نسوا أن اعتراف الرئيس

ترومان بدولة إسرائيل أشاط غضب الشعب الذي يشاطرهم البلاد، وأغضبهم من هذا القرار الأرعن. وانتهز الصهاينة الفرصة فارتكبوا مجزرة بحق الأطفال والنساء في قرية دير ياسين جاعلين منها عبرة لسكان القرى الفلسطينية الأخرى. وبعملهم هذا فقد كرروا ما فعله جوشوا بسكان مدينة أريحا حين اجتاحها فمارس فيها الإرهاب. لقد وضع الصهاينة مكبرات الصوت على سيارات الجيب والسيارات المصفحة، وجالوا الجزء الغربي من مدينة القدس محذرين السكان من مصير مشابه لمصير دير ياسين إنْ لم يغادروا بلادهم. وقد فرَّ كثيرٌ من المسلمين والمسيحيين حفاظاً على أرواحهم. فأدْخَلتُ خمسين طفلاً من أطفال دير ياسين ممن كانت أعمارهم أقل من سنتين في المستشفى الذي يخصُّنا.

وبينما كنت أسجل أسماء الأطفال وأستمع إلى شهادات النساء عن فظاعة ما حدث لهن، كان طفل في السادسة من عمره بجانبي، وحين أدرك أنني غيرُ عربية زعق سائلاً: «هل هي واحدة منهم؟» وسقط على الأرض فاقداً وعيه. فهُرعت لأُحضر الماء في محاولة لمساعدته لكنه فارق الحياة. لا أريد أن أُطنِب هنا.

لقد تبجح زعيمُ عصابة ستيرن، الأكثر شراسةً بين العصابات الخارجة على القانون التي كانت قد انشقت عن عصابة أورغون وفي لومي، حين أعلن عن مسؤوليته عن تفجير فندق الملك داوود، وعن وضعِ قنبلة في مكتب الاستيطان البريطاني في لندن، وعن خنق وشنق جنديين برتبة رقيب في الجيش البريطاني، وعن قتل الأطفال والنساء في مجزرة دير ياسين.

لاحقاً، ذهب زعيمُ العصابة هذا إلى الولايات المتحدة لجمع تبرعات من أجل حملته الانتخابية لمنصب رئيس الوزراء الإسرائيلي، فكان في استقباله لجنةٌ مؤلفةٌ من أعضاء في الكونجرس وقضاةٍ وحكامٍ ولايات وبعضِ أفراد العائلات الأرستقراطية في نيويورك.

وكتبت **النيويورك تايمز** مقالة عنه بعنوان «الرجل الذى تحدى إمبراطورية وكَسَبَ المجدَ لإسرائيل». ولكن عندما اكتُشِفَتْ حقيقته خبا مجده وتلاشى. وقد تنصلتْ إسرائيل من عصابتَي الستيرن والارغون واعتبرتهما عصابتين منشقتين خارجتين عن السيطرة. وفي الأسبوع الأخير من شهر حزيران عام 1954 أعلنت جريدة **الجروساليم بوست** الاسرائيلية في مقالة لها بأن عصابتي الستيرن والارغون كُوفِئتا ومُنِح أعضاؤهما لقب «المحارب القديم المشارك في حرب التحرير». وها هو قائدُ حزب اليسار المتطرف قد أخذ مقعداً في الكنيست الإسرائيلي.

صَعُبَ علينا أن نتخيل للانتداب البريطاني نهاية. صَعُبَ أن نصدق أن نهايته محتملة. ولكن كلما اقترب موعد الخامس عشر من شهر أيار عام 1948، أصبح كابوساً حُلُمُنا بأنْ تكون هذه آخرَ الحروب الصليبية. كنتُ ألبس في إصبعي خاتماً هديةً من تصميم زوجي. وكان منقوشاً عليه من الداخل صليبٌ من الحروب الصليبية وتاريخُ 9 كانون الأول 1917، تاريخُ اليوم الذي استولى أللِنْبي فيه على القدس. فخلعته من إصبعي في الخامس عشر من شهر مايو عام 1948. ولسخرية الأقدار فإن العرب واليهود قبل واحد وثلاثين عاماً بكوا فرحاً بتحررهم من الحكم العثماني. يا لها من نهاية مأساوية لبداية مشرقة!

طالب المفوض السامي بوقف إطلاق النار

خلال انسحاب السلطة المدنية، وكان قد تبقى يومان لانسحابها في الخامس عشر من أيار. وبعد منتصف ليل الرابع عشر بدقيقة قامت الهاجنا بالمسير إلى جبل صهيون واحتلت موقع (كنيسة رقاد السيدة العذراء)، ذلك الموقع الذي يخبرنا التاريخ أن فيه تناول السيد المسيح العشاء الأخير. فتصدى الخوري لهم محاولاً منعهم من الدخول بحجة أن الموقع دير مقدس، إلا أن جهوده لم تفلح واحتلوا الدير. ثم اكتسحوا باب يافا، واحتلوا المستشفى الحكومي وأسروا كل المرضى والموظفين فيه. ثم اجتاحوا نوتردام دي فرانس ووصلوا شمالاً إلى ميا شيرم. فلم تتصدَ لهم مقاومة منظمة. إذ كان الفيلق العربي ما زال في أريحا، خلال هذه المدة دافع الناس عن الأحياء العربية من القدس بالقاع والرقاع واستخدموا أنواعاً من الأسلحة تتراوح ما بين البنادق والأسلحة الحديثة من مسدسات برن و ستين. دافع عن القدس ابتداءً الهامل والكامل والمجرم، ولكن فيما بعد أصبح هناك ما يشبه التنظيم في الصفوف غير النظامية للفلسطينيين العرب.

استخدم الفيلق العربي بنايةً من طابقين تقع مباشرة إلى الغرب من المحمية الأمريكية. وكانوا يحرسون طريق نابلس بالإضافة إلى الطريق المؤدية إلى مستشفى هاداسا والجامعة العبرية، إلا أن الهاجنا كانت تعقد العزم على احتلال منطقتنا الاستراتيجية وكان العرب بنفس القدر من العزم على الدفاع عنها، فاستبسلوا حقاً. واستمرت المعركة ليلاً ونهاراً، ولم تتوقف إلا بعد الهدنة الأولى.ومع أن علم الصليب الأحمر كان يرفرف فوق مبنى المحمية الأمريكية، إلا أن ذلك لم يمنع الرصاص ومدافع الهاون من إصابته. لقد كانت الدكتورة (ماك انس) زوجة رئيس الشمامسة (ماك إنس) من كاثدرائية القديس جورج هي الجرّاحة في وحدة مساعدة المصابين لدينا. وقد أُصيبَ بعيار ناري (ماك إنس) وهو في رفقة زوجته في الطريق إلى وحدة مساعدة المصابين حين كان على مقربة من بوابة الوحدة، ما أدى إلى كسرٍ في رجله ونزيف حاد. ولما كانت لدينا حمالةُ مرضى واحدة فقط، وقد استُعمِلَت لأخذ رجل ميت، فقد حمل ستة رجال رئيس الشمامسة ونقلوه إلى مبنى كاثدرائية القديس جورج على بُعدِ حوالي 500 قدم. عملت زوجة الأسقف (ستيوارت) والدكتورة (ماك إنس) والممرضة التابعة لنا كل ما في الوُسعِ لمساعدته، إلا اننا انتظرنا عشرين ساعة قبل أن يصلَ طبيب. ثم حملت سيارة مصفحةٌ رئيس الشمامسة هو وزوجته ونقلته إلى المستشفى الفرنسي، ما أدى إلى ترك وحدتنا الطبية دون الطبيبة (ماك إنس) لفترة من الوقت، ومع ذلك فقد استمررنا في عملنا بمساعدة الممرضة فقط.

بعد أيام قلائل من تلك الحادثة، احتلت الهاجنا التي كانت الجيش الصهيوني الرسمي المستشفى الفرنسي، وملأوا الأسرة بجرحاهم، ووضعوا رئيس الشمامسة في الممر. لقد سهرتْ على زوجها الدكتورةُ (جوي ماك إنس) اثنتي عشرة ليلة متواصلة، ولا تحصل على قسط من الراحة إلا عندما تجلس على الكرسي! أما خلال النهار، فكانت تساعد الأطباء الفرنسيين بالاعتناء بالمصابين من أفراد الهاجانا.

وفي اليوم التالي أُصيبَ شقيق زوجي، السيد وايتنج، بعيار نار يهودي. وكان جرحه سطحياً، ولكن بسبب الضغوط النفسية التي مر بها فقد تأذى كثيراً. كان الأطباءُ قِلَّةً ويعملون ساعات طويلة. إذْ لم يجد الأطباءُ موقعَ المحمية الأمريكية في الشيخ جراح مرغوباً فيه. فجازف أحد رجالنا بحياته لإحضار البنسلين لمعالجة السيد وايتنج.

وقد أخذنا طُعمَ التيفوئيد خشيةً من الذعر الذي انتشر في حينه. لقد قُطِعَت أسلاكنا الكهربائية وتعطل الهاتف ولم يكن باستطاعتنا الحصول على الثلج. ونظراً لهذه الظروف الصعبة فقد وضعنا البنسلين وطُعُم التيفوئيد في طشت وغمرناه إلى النصف في صهريج ماء الشرب للمحافظة عليه من الفساد. حدث ذات ليلة في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل أن سمعنا صوت انفجار وتبعَه صوتُ زجاج يتحطم. بدا الصوت قريباً جداً وتَبِعَتْ ذلك انفجارات أخرى. وفي الصباح تبين أن البيت الرئيس في المحمية الأمريكية على بُعد بضعة أقدام من منامي قد أُصيب بطلقة هاون يهودية المصدر. لقد أصاب المدفع زاوية الساحة المفتوحة وانتقل منها إلى صهريج ماء الشرب فأخذ في طريقه البنسلين والتطعيمات المضادة للتيفوئيد. لم يتبقَ في المبنى لوحٌ زجاجي واحدٌ في مكانه.

انقطعتْ المياه التي تزودنا بها البلدية. وسقطت طلقةُ هاون أخرى على كومة الحطب، فوقعتْ على غطاء الزينكو أولاً وجعلتْ شدةُ الحرارةِ الصفيحَ ينكمش. لكننا على الفور أطفأنا النار التي اشتعلت في الخشب. ثلاثون قنبلة انفجرت في محميتنا. كان كاز الوقود قليلاً جداً، وكان ثلاثون منا يجلسون حول شمعة واحدة في المساء لتناول طعام العشاء.

جُرِحَ ثلاثةٌ من مساعدينا وواحدةٌ من ممرضاتنا قبل موعد الهدنة. وذات صباح كنت أُغيِّرُ لُفافة ذراع أحد المصابين من جنود الفيلق العربي، فسمع صوت إطلاق نار، فأسرع خارجاً، ووجد أحد المحاربين غير النظاميين العرب يُطلق النار من بيوت جيران لنا. كان يصوب على عمود شك بأنَّ أحدَ أفراد الهاجنا يختبئ وراءه. فأشار الجنديُ المريضُ إلى علم الصليب الأحمر وقال للمحارب: «لا تطلق النار من هنا. هذا العلم يمثل رمزاً مقدّساً». فعل ذلك، وعاد الجندي المريض لِأُكمِلَ تضميد جرحه.

بعد هدنة دامت شهراً، استُؤنف القتال بحقد مكثف. المقامات المقدسة والقبر المقدس وقبة الصخرة كلها لم تسلم من النسف بالقنابل. استولى العرب على القدس القديمة كانت الخسائر في الأرواح قليلة جداً إذ أخلا اليهود بيوتهم قبل الحرب. أما الجزء الغربي من القدس، حيث المحلات التجارية والأحياء السكنية، فقد كانت هناك ثمانيةُ مستشفيات تبشيرية توفر العناية الطبية للفقراء من المرضى. تلك المناطق كانت كلها تحت السيطرة اليهودية. وقد قدَّر أحدُ سكان المنطقة من الأمريكان عددَ البيوت العربية المنهوبة والمدمرة في المنطقة بعدة آلاف.

لم يُعوِّض الإسرائيليون العرب مطلقاً. بل استولى في وقتنا الحالي (عام 1954) قيِّمُ «الممتلكات المهملة» على أملاك العرب وبيوتهم ومزارعهم وكرومهم وأراضيهم الزراعية، وباعها لليهود، ولم يدفع أبداً أية تعويضات لمالكيها العرب.

مقتطفات من مفكرتي الخاصة:

23 أيار، 1948: «قتلتْ قنصلنا الأمريكي، السيد روبرت واسون، نيرانٌ يهودية يومَ الجمعة وتوفي اليوم".

«مدفع كبير لكنه قديم على جلجلة جوردن يقصف المركز الرئيسي للهاجنا في نوتردام دي فرانس»

26 ايار، 1948: «اندلعتْ معركة ضارية الليلة الماضية قبيل منتصف الليل. لكن المعركة الأعنف هي تلك التي تخاض على مشارف محميتنا. فقد

ثقب الرصاصُ النوافذ وهشَّمها. استطاع خمسة وعشرون رجلاً من الفيلق العربي يتمركزون في بيت النسيبي قبالةَ المحمية الأمريكية صدَّ هجوم لعصابة الستيرن. واستيقظنا الساعة الرابعة صباحاً لمعالجة المصابين الذين أحضروا إلى مركزنا للعناية الطبية. لقد فارق أحد المصابين الحياة فوراً، إذ اخترقت رصاصةٌ رأسَه جاعلةً دماغَه ينزُّ خارج رأسه ويغيب عن الوعي. وقد ألقيت القنابل اليدوية على المحمية الامريكية مباشرة. وفي الصباح التالي سألني الضابط المسؤول عن حمايتنا إنْ كنتُ رأيت في حياتي أمواتاً تحبو. فقلت:»لا». قال: «أما أنا فقد رأيت. بعد هجوم عصابة الستيرن الليلة الماضية، سحبتْ العصابة جرحاها إلى الحدود. لا بُدَّ أنهم ربطوا أرجلهم بحبال قبل الهجوم".

28 ايار، 1948: «هناك حظر تجول في المدينة القديمة. وقد أجلى العرب جميعَ اليهود من الحي اليهودي في المدينة القديمة. ويُقالُ إن العربَ أسروا 1249 سجيناً. وقد سلموا النساء والأطفال وكبارَ السن من الرجال للصليب الأحمر".

«ذهبتُ إلى مستشفى الأطفال. فوجدتُ الرصاص الذي أطلقته نوتردام قد كسر جميع نوافذ الجانب الغربي من المستشفى. فنقلنا جميع الأطفال الرضع إلى الطابق السفلي. فيما بعد، سمحت لنا «إرساليةُ الأصدقاء» أن نأخذ الأطفال الرضع الخمسين الذين أُنقِذوا من مجزرة دير ياسين إلى منزل الطلبة التابع لمدرسة الفرندز في مدينة رام الله".

17 ايلول، 1948: «اغتيل الكونت بيرنادوت».

في 15 أيار 1948: أصبحتْ إسرائيل دولةً. وأوشك ترومان أن يعترف بها قبل مولدها. كيف نستطيع نحن الامريكيين الذين نعيش في فلسطين تسويغ مثل هذا العمل؟ نشعر بالخجل من الاعتراف بأن رجال الدولة الأمريكيين يمكن أن يسيروا في أي اتجاه سعياً وراء أصوات الناخبين.

أفلح الدكتور بونش في تحقيق هدنة رودس في عام 1949. فجلبت هذه الهدنة فرجاً مؤقتاً. وكان من المفترض أن تؤدي في النهاية إلى حل دائم. لكن ها قد مر على الهدنة خمس سنوات ولم يتغير شيء منذ ذلك الوقت. وكانت الحكمةُ في رسم خط الهدنة ذلك الحين مثل حكمة استخدام خط العرض التاسع والثلاثين في كوريا خطَ هدنة. لهذا فقد أدى إلى الفصل بين القرى وخطوط الماء التي تمدها، وفصلت بين القرى وأراضيها الزراعية ومقابرها. وقسمت القرية الواحدة إلى نصفين، بل في بعض القرى قسمت البيت الواحد إلى نصفين! هل مثلُ هذه الظروف ستوصل إلى السلام؟ هل يستطيع أحدٌ أن يتصور أن عمليات التهريب لن تحصل تحت هذه الظروف؟ لهذا بالضبط ما فتئت حوادث كثيرة تحصل على حدود خط الهدنة.

وفي ليلة 14/15 من تشرين الأول عام 1953، قصفتْ بالقنابل والأسلحة الأوتوماتيكية وغيرها من الأسلحة القواتُ المسلحةُ الإسرائيليةُ قريةَ قِبية التي تقع على مسافة 11 كم داخل الحدود الأردنية. وكان يحرسُ القريةَ ستةُ حُراسٍ لا حول لهم ولا قوة في مواجهة قوة تتكون من مئات الجنود. فأدى القصفُ إلى مقتل اثنين وخمسين شخصاً بينهم الكثيرُ من الأطفال.

لم تكن هذه المجزرةُ الإسرائيليةُ هي الأولى؛ فخلال السنتين الماضيتين عانت الكثيرُ من القرى الحدودية مثلُ بيت جالا، وفلامية، وصوريف، وإدنا، ووادي فوكين، وغيرُها من القرى الحدودية من

إعتداءات قوات تسيطر عليها الحكومةُ الإسرائيلية. فقد قُتِلَ وجُرِحَ عددٌ أكبرُ مِن الأردنيين نتيجةً للهجمات الإسرائيلية.

واستطاعت إسرائيل أن تستغل جيداً الدعاية الإعلامية التي في متناولها بينما لم يتعلم العرب استغلال ذلك لمصلحتهم أو لدحض الادعاءات الإسرائيلية.

أمضت المحمية الامريكية سبعةً وثلاثين عاماً في القدس وهي تقدم المساعدة للمحتاجين والفقراء دون تمييز عرقي أو ديني.

وقد مكثنا في القدس خلال الحرب العالمية الأولى مع أن القنصل الأمريكي في حينه نصحنا بأن ننتقل إلى مكان آمن. وكنا هنا خلال الحرب العالمية الثانية ثابتينَ في مكاننا خلال الحرب العربية-اليهودية. لقد عالجنا 15000 حالة في وحدة معالجة الجرحى.

حتى بعد أن توقفت الاعتداءات لم ينفك الفقراء عن المجيء إلينا لتلقي العلاج. ففتحنا عيادةً على الطرف الآخر من الشارع مقابل فندق المحمية الأمريكية. وعالجنا فيها 47000 مريضاً خلال اثني عشر شهراً.

لقد ذكرتُ في مكان سابق أن ثمانية مستشفيات تابعة للمؤسسات التبشيرية البروتستانتيه والكاثوليكية كانت تتخذُ الجزءَ الغربي من القدس مقراً لها، ذلك الجزءَ الذي يقع في إسرائيل الآن. وكان الإسرائيليون يستخدمون هذه المستشفيات ولا يسمحون للعرب استخدام مستشفى هاداسا، وهو الآن فارغ وفيه حارس فقط، مع أنه موجود في الجزء منزوع السلاح التابع لسيطرة الأمم المتحدة.

يحتوي مستشفى سبافورد ميموريال للأطفال على خمسين سريراً، وفيه أقسامٌ طبية وجراحية على السواء. وقد عملت مؤسسةُ فورد له توسعة جديدة. هذا المستشفى جميل ويستحق أن يُزار. فهو يقع بين بوابة دمشق وبوابة هيرودوس على سور المدينة، ويُطِلُّ إطلالةً خلّابةً على كُلٍ من القدس القديمة والجديدة. وفي إدانةٍ صامتة ترى بين القدسين؛ الشرقية والغربية أرضاً خاليةً لا لهؤلاء ولا لأولئك، تملؤها الأعشاب مع أنها طريق رئيسية.

القدسُ فريدة من نوعها؛ مقدسةٌ عند أتباع ديانات التوحيد الثلاثة ◆

المرجـــــع:

Our Jerusalem: An American Family in the Holy Land by Bertha Spafford Vester, Middle East Export Press, Lebanon, 1950, pp. 374-381.

هناك طبعات أخرى لاحقة للكتاب من دور نشر مختلفة.

الصمت الدولي
يفتح الطريق لتهويد القدس

فارسين اغابكيان*

فجر الأحد في الثاني من شهر آب 2009، داهمت شرطة الاحتلال تسعة منازل لعائلتي حنون والغاوي في حي الشيخ جراح في القدس العربية وأخرجتهم من ديارهم قسرا، وشردت ثلاثة وخمسين مواطنا بينهم عشرون طفلا بحجة أن المنازل تعود منذ زمن لعائلات يهودية كانت تقيم في القدس خلال فترة الانتداب البريطاني، ورغم أن العائلات الفلسطينية أثبتت ملكيتها للمنازل بوثائق عثمانية وأنها تمتلك المباني السكنية أباً عن جد وتوارثتها منذ أجيال بعيدة، إلا أن شرطة الاحتلال نفذت أوامر قضائية باستيلاء المستوطنين على المنازل في قلب الحي العربي الفلسطيني تمهيداً للاستيلاء على ملكيات واسعة في الحي المجاور للأحياء اليهودية في القدس الغربية.

* الأمانة العامة - القدس عاصمة الثقافة العربية، رام الله.

لم تكن عملية الاستيلاء المنظمة والمباغتة على أملاك عائلتي حنون والغاوي أمرا طارئا واستثنائيا بل قاعدة كشفت حجم الخطوة العدوانية ومستوى توظيف قوات الاحتلال لجميع أجهزتها الأمنية والقضائية والتشريعية ومدى استخدام أذرعها المختلفة والملتوية من أجل الاستيلاء على المتاح من الأملاك الفلسطينية بهدف تهويد بيت المقدس وطرد مواطنيها وتستبدل بهم مستوطنين يبذلون مالا وجهدا وتخطيطاً وعنفاً لتغيير الطابع العربي للمدينة المقدسة، لكنهم لن يتمكنوا من بلوغ أهدافهم بفعل المقاومة والصمود لمواطني المدينة الذين يدافعون عن هويتهم الفلسطينية بكل شجاعة ويرفعون عاليا شرف المدينة وتاريخها ويحتفلون بها عاصمة للثقافة العربية 2009 بدعم شعبي عربي وإسلامي.

تعرضت القدس لإجراءات إسرائيلية غير مسبوقة، فبعد سقوط الجزء الغربي في قبضة إسرائيل عقب نكبة 1948 أصبح الجزء الشرقي للمدينة مع الضفة الغربية جزءاً من الوحدة التي قامت بين الضفتين عام 1950، إلى أن حلّت هزيمة حزيران العام 1967، ومنذ اليوم الأول للاحتلال أقدمت الجرافات الإسرائيلية على تهجير مواطني حي الشرف المجاور لحائط البراق ومسحت منازله جميعها عن وجه الأرض، وحولت المكان إلى ساحة واسعة تطل على حائط البراق!! وعلى وقع صوت الجرافات أصدر الاحتلال مجموعة من الأوامر العسكرية بالاستيلاء على أملاك «الغائبين» وقيد عمليات البناء ومنح التراخيص اللازمة لذلك، ثم أقدم على حملة هدم واسعة للمنازل تحت ذريعة البناء غير المرخص، في حين فتح الطريق أمام عمليات البناء الاستيطاني في قلب المدينة المقدسة وعلى أطرافها وفي ضواحيها البعيدة بهدف عزلها وتعميق فصلها عن الضفة الغربية.

تفيد الإحصائيات أن المقدسيين امتلكوا نحو 12 ألف وحدة سكنية في القدس الشرقية في العام 1967 في حين لم يكن لليهود مسكنٌ واحدٌ، ومع تزايد وتيرة الاستيطان على مدار أربعين عاماً بات لليهود 64 ألف وحدة سكنية في القدس والمستوطنات الملاصقة للمدينة مقابل 38 ألف وحدة سكنية لأبناء الشعب الفلسطيني.

استندت إسرائيل في سياستها العامة وخططها الاستراتيجية على تسمين المستوطنات وتوسيعها حول القدس وزرعها بشبكة كبيرة من المساكن الاستيطانية في إطار مشروعها التوسعي «القدس الكبرى» الذي يلتهم نحو ثلث مساحة الضفة الغربية ويضم نحو 18 مستوطنة تطوق عنق القدس من الشمال والشرق والجنوب. وبدأ مشروع «القدس الكبرى» عام 1993 بهدف توطين مائة ألف مستوطن كل عام بحيث يبلغ العدد النهائي في العام المقبل 2010 نحو نصف مليون مستوطن. ويفصل المشروع الذي يوفر له الاحتلال سنوياً نحو ملياراً ونصف المليار دولار شمال الضفة الغربية عن جنوبها ويقطع بالمحصلة الطريق على إقامة دولة فلسطينية مترابطة جغرافياً، والأخطر من ذلك ربط «القدس الكبرى» بالكتل الاستيطانية الضخمة «ارئيل» المتاخمة لمدينة نابلس في شمال الضفة وغوش عتصيون المجاورة لمدينة بيت لحم والخليل في الجنوب وكتلة معاليه أدوميم المجاورة لمدينة أريحا في الشرق بحيث يكون متاحاً في المستقبل القريب للمستوطنين إعلان «دولتهم اليهودية» الثانية في الضفة الغربية التي يطلقون عليها يهودا والسامرة،

على أن تكون مرتبطة الأطراف فيما تربط الكانتونات الفلسطينية بشبكة أنفاق وطرق ضيقة.

لم تتوقف سياسة الاحتلال عند هذا المستوى من العدوانية، بل واصلت خططها في إقامة جدار الفصل العنصري في قلب الأراضي التي احتلتها عام 1967، واستكملت حلقة عزل القدس كلياً بحيث تمكنت من عزل 125 ألف مواطن مقدسي عن مدينتهم، وبالفعل دخل بناء الجدار مرحلته الرابعة والأخيرة بحيث يستكمل تشييد نحو 670 كيلو متراً من الإسمنت والأسلاك الشائكة التي تخترق الضفة من شمالها إلى جنوبها ويستولي على مساحة شاسعة من الأراضي الزراعية في غرب الضفة ويعزل في المحصلة النهائية نحو 35 تجمعا فلسطينياً عن مدنهم المجاورة، فيما أحكم الطوق كليا على مدينة قلقيلية في الشمال وعزلها نهائيا عن باقي مدن الضفة وترك لمواطنيها ممرا يتيماً للتنقل تحت سيطرة نقطة عسكرية ثابتة.

لم يتوقف الاحتلال أيضا عند هذا المستوى من السلوك العنصري، بل واصل سياسة خنق مواطني القدس على جميع الجبهات: حفر شبكة أنفاق تربط المستوطنات مع بعضها، توسيع شبكة الطرق الخاصة بالمستوطنين وحظر استخدامها على المواطنين، استمرار الحفريات تحت المسجد الأقصى المبارك بذريعة البحث عن هيكل سليمان، وقد باتت المقدسات الإسلامية مهددة فعليا بالانهيار، تعزيز الاستيطان في قلب الأحياء الفلسطينية، سحب البطاقات الشخصية للمواطنين وإبعادهم قسرياً إلى الضفة الغربية، تقييد عمليات البناء وهدم المنازل بحجة عدم الترخيص، فرض ضرائب باهظة على الأملاك الشخصية ودفع المواطنين للمغادرة الطوعية، فرض الضرائب الباهظة على المؤسسات التجارية والثقافية والاجتماعية ودفع المؤسسات الوطنية لمغادرة مواقعها في المدينة المقدسة.

واضح أن الاحتلال يسابق الزمن في سياسته من أجل تكريس واقع يبتلع القدس ويهدد هويتها فعليا ويقتطعها من الضفة الغربية ويخرجها من دائرة التفاوض باعتبارها «عاصمة أبدية» للاحتلال وخطا أحمر يصعب تجاوزه، وتصبّ كل هذه السياسات المنظمة في جهود الحرب السكانية التي تستهدف حتى العام 2020 ضمان نسبة يهودية كبيرة في «القدس الموحدة» وتنفيذ طرد صامت لمواطني القدس باتجاه مدن الضفة الغربية وفرض الجنسية الإسرائيلية على المجموعة المتبقية، في حين يغلق مشروع الاستيلاء على القدس وضواحيها وربط مستوطناتها معاً الطريق أمام قيام كيان وطني فلسطيني مستقل ومترابط الأطراف جغرافياً.

قد يكون من حظ القدس أن مجلس وزراء الثقافة العرب اختارها لتكون عاصمة الثقافة العربية 2009 وذلك من أجل التدقيق بكل الممارسات العدوانية التي تستهدفها وتسليط الضوء على مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأيضا من أجل أن تأخذ المدينة فرصة لتوفير الدعم العربي لمشروعاتها الثقافية وتعزيز النشاطات الإبداعية في قلبها وإعادة ترميم البنى التحتية لمؤسساتها الوطنية المهملة بفعل سياسة الاحتلال رغم أنف الاحتلال.

لم تمر الاحتفالات الثقافية في بيت المقدس بسهولة، وباتت إسرائيل تجند أجهزتها الأمنية المختلفة لملاحقة النشاطات الثقافية حتى أنها بدت بحاجة إلى إضافة جهاز جديد لأجهزة شرطتها يستهدف ملاحقة النشاطات الثقافية الفلسطينية

في القدس وحجبها وإغلاق المؤسسات الثقافية، وقد يكون من المنطقي أن يتساءل العالم عن سرّ خوف إسرائيل النووية من نشاط ثقافي وطني في المدينة المحتلة. هذا السؤال مطروح على جميع المثقفين في العالم الذين يشتعل ضميرهم الإنساني بالحق دفاعاً عن أبسط الحقوق المدنية، وقد يقتضي الواجب الأخلاقي زيارتهم الدائمة والمنتظمة للمدينة المحتلة لمتابعة واقعها وتنظيم الأنشطة الثقافية ردا على ممارسات الاحتلال.

من خلال عرض سريع لوضع القدس الراهن والنشاطات الثقافية في القدس ومن أجلها، يتضح أن المؤسسة الفلسطينية بمختلف ألوانها الرسمي والأهلي والشعبي لم تقدم ما يكفي للمدينة المحاصرة ولم تنجح في فك الحصار الخانق الذي يستهدفها، فيما يغط العالم العربي والإسلامي بل والعالم بأسره في نوم عميق تجاه ممارسات الاحتلال بحق بيت المقدس، فبينما نجد دولاً أوروبية تحتفل بهدم جدار برلين رسمياً وشعبياً نجد هذه الدول تلتزم الصمت عن الفصل العنصري الذي لا مثيل له في التاريخ.

نعترف بوضوح أن الاحتفاء بالقدس كعاصمة للثقافة العربية وفق البرنامج الذي تم إعداده على مدار العام 2009 لن يحرر القدس، لكنه قد ينجح في نفض الرماد عن المدينة ويكشف الظروف القاسية التي تعيشها تحت قبضة الاحتلال ويفرض واقعا من التحدي العربي لمواجهة عدوانية الاحتلال. وبات الأمل معقودا على القرار العربي بوقف العلاقات الدبلوماسية القائمة بين بعض الأنظمة وإسرائيل في حال مواصلتها استهداف المدينة وتهويدها ومواصلة بناء جدار الفصل العنصري وعزلها عن محيطها العربي والفلسطيني، وفي المقابل يتطلب الأمر نهضة شعبية واسعة في العالمين العربي والإسلامي لمواجهة ممارسات الاحتلال في القدس العربية بالضغط على المنظومة الدولية لاتخاذ قرارات واضحة بإدانة المذبحة والتطهير العرقي الذي يتعرض له شعب فلسطين، وذلك حتى لا تظل إسرائيل تواصل الاعتقاد بأنها دولة فوق المحاسبة ولا تخضع للمساءلة الدولية وبدون ذلك وفي ظل استمرار الصمت القاتل على الممارسات العدوانية ستواصل دولة الاحتلال خططها ومشاريعها في تهويد بيت المقدس وتعزيز الاستيطان والاستيلاء على المياه والتلال والطرق تمهيدا لترحيل صامت لأبناء الشعب الفلسطيني◆

القدس
في رحلة ابن عثمان المكناسي

مهند مبيضين

حين قرر الفيسلوف الألماني غوته أن زمن الآداب القومية المتقوقعة داخل حدودها اللغوية والثقافية والسياسية قد انتهى جراء المحاكاة والاتصال والنشر، فإنه بذلك كان يعارض روديارد كبلنغ (Rudyard Kipling 1865-1936) الكاتب والشاعر البريطاني صاحب أطروحة الشرق والغرب، التي يركّز فيها على أن الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا، انطلاقاً من نظرة استعمارية يُعدُّ من أكبر دعاتها.

إن ثمة فعلاً تواصلياً تخلقه عملية الاتصال بين الثقافات، ومن هنا لا يمكن للباحث في التاريخ الثقافي إلا أن يمعن النظر خارج المدونات التاريخية التقليدية؛ ليكتشف أن ثمة فعلاً كتابياً أنتجته حالة التواصل الثقافي عبر أدب الرحلات، الذي قدم التاريخ الثقافي والعمراني والسياسي بعين مختلفة عن عين المؤرخين التقليديين.

وظل يُنظر لأدب الرحلات على أنه أدب شعبي؛ لأنه يصف تقاليد الشعوب وعاداتهم وأعيادهم وأديانهم وعمارتهم، وفي حالات خاصة نجد رحالة أمثال ابن بطوطة وابن جبير تعديا في وصفهما عادات أهل البلاد التي زاراها.

والسفر أو الرحلة عند العرب لهما ثقافة أنتجتها ولهما وصاياها التي ارتقت بالرحلة إلى مصاف تتجاوز الوصف، إذ حفل التراث العربي الإسلامي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول السفر والرحلات، فيروى أن حكيما أوصى صديقاً له أراد سفراً فقال: «إنك تدخل بلداً لا تعرفه ولا يعرفك أهله، فتمسَّك بوصيتي تُكتب لك السلامة: عليك بحسن الشمائل؛ فإنها تدل على الحرية، ونقاء الأطراف؛ فإنه يشهد بكرم المنبت والمحتد، ونظافة البزة؛ فإنها تنبئ عن النشأة في النعمة، وطيب الرائحة؛ فإنها تظهر المروءة، والأدب الجميل؛ فإنه يكسب المحبة. وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرك. وألزم الحياء والألفة؛ فإنك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة، وإن أَنِفْتَ من الغلبة لم يتقدَّمْك نظير في مرتبة». وهذا ما يؤكد أن الغاية من الرحلة أحيانا لم تكن مجرد السفر وكتابة أوصاف البلاد بقدر ما كانت تعبر عن حالة معرفية لها تجلياتها الاجتماعية التي ارتقت بها إلى مصاف الأدب.

وفي حالة الرحالة المغاربة فإنه يمكن القول إن رحلاتهم ارتبطت بالقدس والخليل بشكل كبير وتجاوزت في معطياتها الأوصاف التقليدية للمدن والبلاد والعادات إلى معايشة المجتمع، ونقل كافة تفاصيله، إذ شدتهم أواصر الرحلة إلى القدس والخليل بقدر ما شدتهم إلى الحجاز الشريف، وكان جلّ حجاجهم يمرون بالقدس والخليل عند مقفلهم من الحج لينعموا برؤية مسرى الرسول الكريم.

ودأب المغاربة على الرحلة للشرق هو جزء من ثقافة وحالة «سسيوثقافية»، تؤكد عدم صحة القطيعة الثقافية بين لحظيتن مشرقية ومغربية قال بها محمد عابد الجابري، فأشهر ما عرف من الرحالة العرب منهم، وافلح المغاربة في إنتاج أدب رحلات عن الديار التي كانوا يزورونها، فمثلت رحلاتهم وثيقة معاصرة عن وصف حال البلدان التي كانوا يفدون إليها، وعدوا الرحلة لأجل طلب العلم تطبيقا لقاعدة من قواعد المعرفة في الإسلام.

وثمة ما لا يعد ويحصى من الرحالة المغاربة، فمنهم الحجاج والمثقفين والأدباء والمؤرخين والسفراء، ومنهم احمد بن محمد بن عبد ربه (328هـ/940م) وأبو عبيد الله البكري (447هـ/1094م) ومحمد بن جبير القرطبي البلنسي (614هـ/1217م) الذي وقف عند وصف المسجد الأقصى وقال عنه:» وطول مسجد بيت المقدس أربعمائة وخمسون ذراعا وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وقناديله خمسمائة وأبوابه خمسون بابا..».

وأما الرحالة الإمام عبد الله بن العربي الذي رحل للقدس في عهد الدولة المرابطية وصحبه ولده القاضي أبو بكر سنة 485هـ/1092م في سفارة

للخليفة المستظهر العباسي من قبل السلطان يوسف بن تشفين كما يروي العلامة ابن خلدون في تاريخه الشهير (المجلد السادس ص386، دار الكتاب اللبناني) فقد وصل القدس وكان فيها الإمام أبو بكر الطرطوشي الفهري الذي يعد من كبار علماء المالكية بالأندلس وصاحب كتاب سراج الملوك قائلا:» تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة إن من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم»

ويمضي الرحالة المغاربة شغوفين ببيت المقدس، فهذا الشريف الإدريسي (560هـ/1164م) وهو من عهد الدولة الموحديه في رحلته **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** يقارن المسجد الأقصى بمسجد قرطبة، وتحدث في رحلته عن الكنيسة الكبيرة الشهيرة بكنيسة القيامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم من جهة الشمال وينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة ويسمى هذا الباب باب «شنت مرية» ...وإذا خرجت من الكنيسة العظمى وقصدت شرقا ألفيت البيت المقدس... فكان معظما في ملك المسلمين وهو المسجد المسمى بالمسجد الأقصى اليوم وليس في الأرض مسجد على قدره إلا الجامع الذي بقرطبة من ديار الأندلس وفي وسط الجامع قبة عظيمة تعرف بقبة الصخرة وهذه القبة مرصعة بالفص المذهب والأعمال الحسنة من بناء خلفاء المسلمين..»

ومن بين الرحلات المغاربية المهمة في التاريخ الثقافي لمدينة القدس رحلة ابن عمثان المكناسي (1214هـ/1800م) المسماة **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**. وقد نشرها وحققها المحقق العالم المغربي عبد الوهاب التازي، ونشرها للمرة الاولى العام 1997 عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وعاد في عام 2005 ونشرها في طبعة مزيدة ومنقحة، ويستعرض التازي في مقدمة هذا العمل أسماء عشرات ممن عرجوا على زيارة البيت المقدس والخليل؛ ومنهم إلى جانب من أشرنا إليهم أعلاه أبي عبد الله محمد محمد المكناسي، والعبدري الحيحي، وابن بطوطة، وابن خلدون، وابن الأزرق الغرناكي المالقي، وأبي العباس المقري صاحب **نفح الطيب**، وأبي سالم العياشي.

عرف عن ابن عثمان محمد بن عبد الوهاب المكناسي (1214هـ/1800م)، أنه ولد المولود بمكناسة الزيتون من المغرب، وكان العام 1193هـ/ 1779سفيرًا لسلطان المغرب محمد بن عبدالله (الثالث) لدى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، مكلّفًا بالسعي للإفراج عن عدد كبير من الأتراك التابعين لولاية الجزائر وتونس وطرابلس وسائر بلاد المشرق، فَوُفِّق في مسعاه، وضمّ، سفارته تلك في كتابه **الإكسير في فكاك الأسير**.

وجاءت سفارته الثانية إلى مالطة ونابولي أواخر العام 1195هـ /1781م للغرض نفسه الذي حمله على زيارة إسبانيا، ووثّق سفاراته في كتابه **البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدوّ الكافر**.

أمّا رحلته الثالثة فكانت أوائل العام 1200هـ/ 1785م واتجه بداية إلى الاستانة مكلّفًا بمهمة إبلاغ السلطان عبد الحميد خان، بأنّ إسماعيل أفندي، المبعوث التركي للسلطان محمد بن عبد الله الثالث غير مرغوب فيه، ذلك لأنّ هذا السفير قدم إلى المغرب في أمر يتعلق بالأتراك التابعين للجزائر، وتصرّف تصرّفًا غير مقبول، فأصدر السلطان أمرًا

بطرده. وقد أتاحت له هذه السفارة أداء مناسك الحج، ودوّن رحلته في كتابه: «إحراز المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب.

ويمكن القول إن هذه الرحلة فيها عدة ميزات على غيرها من رحلات المغاربة، فهي أولا قام بها سفير معروف بتجربته في السفارات والرحلات وتحري الدقة، وهي ثانيا تصادف تاريخا هماما وهو العام 1202هـ/1788 والذي يعد بداية على الصراع والتنافس الغربي الحديث على رعاية شؤون الأقليات، وثالثا حوت الحلة معلومات أشبه بتقارير عن سلوك بعض الموظفين في الغدارة العثمانية كما أن الحلة المكناسية تقدي لنا معلومات دقيقة عن عدد السكان والحياة الدينية في القدس إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

محطة ابن عثمان الأولى قبل القدس مدينة عكا وعنها يروي كيف دخل حمّامها ويصف لنا أجواء الحمام (ص55) و«ولما خرجت من الحمّام وقعدت في إحدى مصاطبه أتي إليّ بالقهوة» ويبدو أنه أعجب بقيّم الحمّام وخادمه لما عرض عليه القهوة فانشد يقول:

لم أنس عكة إذ جعلتها مأربي

يوم دخلت إلى حمّامها المعجب

إذ قال ظبيبه: أسقيك قهوتنا؟

فقلت:كلا إني لست بالشارب

فقال:أو مِن شراب حلا؟ قلت: إن

كان ولا بدّ من لُماك شارب

وعندما دخل القدس يشير إلى أوقاف المغاربة فيها، وقال: «عن عليها وكيلا ولها أوقاف» ويلاحظ التازي أن من بين مصادر ابن عثمان عن ارض القدس كتاب **الزيارات لأبي حسن الهروي** كما لا يشير إلى إنشاءات العثمانيين العمرانية في القدس ويكتب عن تاريخ القدس والخليل بإسهاب كبير.

ويبدو الجانب الاجتماعي حاضرا في الرحلة، فالمكناسي يبد ومعجبا بأهل القدس وأخلاقهم واريحتهم ومؤانستهم للغريب وحبهم للعلم وعنايتهم بالضيف كما يف عمران المدينة بشكل دقيق» وللمدينة السور الحصين مبني من الحجارة في غاية الإتقان والأبواب الحصينة الغلق فعدد الأبواب ستة..» ويذكر بتاريخ كل باب ويعدد أوقافه ويقدم وصفا دقيقا عقلانيا للمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة ويلاحظ عليه أن لم يكن يصدق كل ما يسمع فيقول: «ثم صعدنا المدارج التي انحدرنا منها فأرونا طرفاً من الصخرة ممتداً شيئاً مت يقولون إنه لسان الصخرة ولا أصل له، وإنما ذلك من موضوعات المزورين».

ويبدو أن الحديث عن القدس وعن المسجد الأقصى يتخذ عند الرحالة المغاربة بعداً دينياً واضحاً، لهذا يجد المطالع لنص الرحلة بأن المواضع المقدسة تحظى بأهمية دينية خاصة ينفذ منها إلى البعد الكوني للمدينة كما يرى الباحث الحسن الغشتول إذ يقول: «وتلك مزية نراها في رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس التي اختلفت عن رحلته إلى القسط كما فمن المحقق أن ابن عثمان قد اعتمد في روايته للقدس وصفا خاصا «يعكس البعد الروحيَّ لهذه المدينة، كما يعكس لنا ميول المؤلف الروحية وتقواه ومعرفته الواسعة بالعلوم الدينية»◆

مراجعات

يوسف بني ياسين

حنين خرفان

فيصل درّاج

آفي شلايم

مشاعل عربية
على دروب التنوير

مراجعة وتقديم: خالد الكركي
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2009، (389 صفحة)

يوسف بني ياسين

صدر كتاب مشاعل عربية على دورب التنوير عن مؤسسة شومان في طبعته الأولى عام 2009م، وقد ارتأت المؤسسة أن تذكرنا بسيرة أولئك الروّاد الذي نعدّهم فعلاً مشاعل عربية على درب التنوير.

ليس سهلاً أن يقوم الإنسان بمراجعة كتاب أسهم به مجموعة من المفكرين العرب المرموقين وصدّره الدكتور خالد الكركي بمقدمة نقدية تنفذ إلى أعماق الفكر التنويري وما هذه المراجعة إلا عرض إضافي لبعض التفاصيل التي لم تتسع لها المقدمة.

يضمّ الكتاب ستة عشر دراسة موزعة بين ثمانية عشر كاتباً، بحثوا في أعمال ثمانية من رواد الفكر العربي بمجالات شتى جمعتها محاور الأدب، والثقافة، والسير التاريخية التي يتداخل فيها الثقافي بالسياسي بالاقتصادي مع العمل العام، كل ذلك في إطار مرجعية قومية عربية فرضت نفسها على محاور عملهم جمعياً.

حظي الروائي والأديب نجيب محفوظ بأولى هذه الدراسات بقلم الدكتور محمود بدوي وعالج فيها «الحداثة ونقد الحداثة في أدب نجيب محفوظ» حيث استعرض مفهوم الحداثة في أعماله باعتباره مثالاً لموقفنا منها فهي «المشكل الأساسي الذي يواجهه العالم العربي»، فقدم موضوع الحداثة انطلاقاً من سؤال ضروري:هل سنصبح جزءاً من سياقاتها أم سنبقى محجوزين عنها خلف الأسوار.

إن الحداثة كما فهمها نجيب محفوظ تعني كل مجهول في الطبيعة يمكن أن نكتشفه ويمكن أن نسيطر عليه، ويمكن أن نضعه في خدمتنا وليس ثمة شيء يستعصى على المعرفة، ومن هنا كان المعيار الأساسي الذي يحاكم الحداثة هو العقل، ولذلك رأى بدوي أن محفوظ فهم الحداثة بما يقابل العقل والعلم.

ظهر موقف محفوظ من الحداثة في روايات **زقاق المدق** و**خان الخليلي** و**القاهرة الجديدة** لكن تبقى أنصع صياغات الحداثة في ثلاثيته، وانتقد محفوظ الحداثة في **الكرنك** و**ميرامار**. ثم ختم بدوي دراسته بإلقاء الضوء على ما حاول محفوظ قوله في **أولاد حارتنا** إذ قدم رؤية للإنسان مرتبطاً بفكرة الروح فلا مفهوم للإنسان خارج فكرة الروح.

أما الدراستان التاليتان في المحور الثقافي، فقد تناولتا المفكر العربي الكبير إدوار سعيد، حيث تناول في الأولى الباحث فيصل درّاج «إدوارد سعيد المثقف السياسة السلطة» بادئاً بانتقال الأكاديمي إلى دائرة المثقف بصفته صاحب أفكار ريادية في تغيير المجتمع حتى ساوى سعيد بين «المثقفين الحقيقيين والأنبياء».

حاول درّاج الإجابة على مصادر ثورية سعيد، وما الذي دعاه إلى مواجهة الصهيونية وما الذي دعاه كأكاديمي مسيحي أن يتصدى لمحاولات تشويه الإسلام.

تأتي الإجابات من خلال تتبع مسيرة سعيد، بعد أن شعر بالغربة في نشأته وتعرف إلى العالم العربي بعد نكسة 1967م، ثم تعرف إلى ثقافة الاستشراق التي كانت «محاولة لجرد الآثار التي تركتها على، أنا الذات الشرقية، تلك الثقافة التي كانت سيطرتها عاملاً بالغ القوة في حياة جميع الشرقيين».

ثم عرض درّاج لصورة المثقف التي أبرزها سعيد وإذا بها صور عديدة ومتنوعة، فبدأ بالمثقف النقدي، والمثقف المنفي، والمثقف الحواري رافضاً مبدأ المثقف المختص الاحترافي، المهني، التقليدي المؤسساتي حيث تصبح المعرفة سلعة قابلة للمكافأة والبيع.

أما سعيد فهو «المثقف الأزلي» الذي واجه الكذب والاختلاق بالمعرفة، أنه يرفض الصمت والاستكانة، ودافع عن الضعفاء لنصرة القيم الأزلية ولذلك أصبح مكروها في الأوساط الأكاديمية الرسمية الغربية.

ثم قدم الدراسة الثانية حول إدوارد سعيد محمد شاهين، وجاءت بعنوان «هجرات متعاقبة في عالم النص» بدأها بتصوير غربة سعيد حيث لم يكن الأدب أدبه، ولا الموسيقى موسيقاه، ولا الثقافة ثقافته، مع أن الثقافة «أهم مكونات المجتمع البشري».

شد سعيد رحاله في أول فرصة (1972) إلى بيروت، ذلك المكان العابق بالتراث العربي ليتعرف إليه، وكتب فيها أول ما كتب «التمنع والتجنب والتعرف» مفصحاً خلالها اهتماماً مبكراً بالقضايا العربية، وعدّها شاهين مدخلاً لأغلب كتاباته اللاحقة.

عاد من الشرق محملاً بالمادة التراثية فقدم كتابه **بدايات** الذي بيّن فيه منهجيته في البحث العلمي، ثم قدم بعدها أطروحاته التراثية في **الاستشراق**، وهي الأطروحه التي خلقت مساحة من الردود المتباينة.

كشف سعيد في **الاستشراق** ممارسات المستشرقين الثقافية في خلق صورة مشوهه عن الشرق من أجل الهيمنة عليه، وأماط اللثام في **الثقافة والامبريالية** عن استخدام الاستعمار ثقافته حصناً يساعد على استمرار هذه الهيمنة، معتمداً في ذلك على روايات الغرب الأدبية لأنها الأقرب إلى واقع الحياة، مقدماً مشروعاً تنويرياً في قراءة الثقافة الغربية التي تتخفى السياسة وراءها.

أدرك سعيد أن الثقافة يجب إلا تكون للهيمنة بل إلى مقاومة الهيمنة، من خلال تفعيلها، لأن تفعيلها، يجسد المقاومة، وعرض سعيد علاقة الغرب بالإسلام من خلال كتابة **تغطية الإسلام**.

أما الندوة الثقافية التي جاءت تالياً فقد خُصصت للشاعر الكبير محمود درويش وعنونت بما يدل على استمرارية درويش فينا «قمر يأبى الرحيل» وشارك فيها خمسة من الكتاب حاوروا تجربة محمود درويش الشعرية كما بدت في دواوينه وقصائده.

قدم فيصل درّاج بحثاً بعنوان «محمود درويش شاعر المقاومة في جميع الأزمنة» و تدرج في قبول درويش للقب شاعر المقاومة الفلسطينية حتى أصبح «شاعر المقاومة في جميع الأزمنة»، فإن كان ارتضى الأول في دواوينه الاولى حين عبر بقصيدة تحريضية فلسطينية عن هموم الفلسطينيين، نجده قد انتقل إلى قصيدة أكثر اتساعاً وتعقيداً تتسع للفلسطيني المضطَهد والمضطَهدين جميعاً، فكأن درويش في فترة نضجه الشعري أراد أن يبرهن أن الشعر لا هوية له ولا يختزله السياسي أو الجغرافي.

ثم عرض لإدراك درويش أن الإبداع لا يكون بصيغة المفرد، فبين أن المقاومة مقاومات، وأن المقاومة المسلحة غير المقاومة الشعرية، فقاوم خيبة اتفاق أوسلو، وكل سياق له شكل من المقاومة: المقاومة بالسلاح، مقاومة الكتابة الرديئة، مقاومة الخيبة، مقاومة اليأس، مقاومة الحصار، مقاومة الحقد.

ثم قدّم خليل الشيخ دراسة بعنوان «السعي لامتلاك المعنى» أضاء فيها لحظتي الميلاد والوفاة، إذ وقف درويش أمام الميلاد في قصيدة «الأرض» و«في

يدي غيمة» رابطاً بينها وبين التحولات الجوهرية التي أصابت وطنه.

أما لحظة الموت فتكاد لا تفارق شعره، إذ بقي يرصد موت الشهداء، وأصدقاءه، والمثقفين والمفكرين والمناضلين، أما الموت الشخصي فقد برز في «جداريته» حيث تُجسد على المستوى البنيوي مشروعاً فنياً ضخماً.

قسم الشيخ أعمال درويش إلى ثلاثة أسفار مبتدئاً بسفر التكوين الذي بدأ مع درويش في «عصافير بلا أجنحة» إلى «حبيبتي تنهض من نومها» وهي تشكل مرحلة السرد عن طريق الكتابة، ثم وقف أمام سفر الخروج الذي حاكى خروج درويش من فلسطين إلى موسكو والقاهرة وبيروت وباريس، وهو خروج أشبه بخروج آدم من الجنة.

ثم بعد خروجه من بيروت أعاد درويش النظر في تجربته الشعرية فبدأ زمناً شعرياً جديداً يسعى فيه للانفتاح على معارف وثقافات شتى استوعب في بنيته عناصر قادمة من المسرح والسينما والموسيقى وصولاً إلى حداثة تعي لغة الموروث وتثور عليه ليستعيد تركيبها على نحو شعري، يجمع بين الفعل والوجدان واستبطان الذات المشظاة ووجدانها الجريح.

أما ثالثها، فقد جاءت بعنوان «تلك أرواح لها شكلها ومقامها» لجمال باروت حيث قرأ القصيدة التموزية لدى درويش حول رمزية الأرض في شعره، وتحديداً حول طبيعة الرمز الديناميكي التي تفتح في أفاقها تلك الرمزية.

أبان باروت أن الرؤية التموزية الانبعاثية تتغلغل في شعر درويش غير أنه عينها في شكل قصيدة من خلال تحويله الرمز التموزي إلى نمط أصلي لقومه، وبشكل خاص في «قصيدة الأرض» التي تحيل مرجعياً إلى يوم الأرض الفلسطيني.

أما الدراسة الرابعة فقد جاءت لزياد الزعبي بعنوان «القبض على الحياة في حضرة الموت» ليدرس تلازم ظاهرة الموت والحياة في شعر درويش، ويطرق سؤالاً مهماً مفاده، هل يُكمل الإنسان ما عزم عليه وبدأ به، ثم يجلس ينتظر الموت؟

إن اقتران الموت بالتشبث بالحياة عند درويش يمثل ظاهرة كبيرة في شعره تجلت في صور الموت في حالاته المتعددة بدءاً من الاقتلاع من الأرض، ثم المنفى، ثم العودة التي انبثقت من الذات حتى اتحدت بالذات الجمعية الفلسطينية.

تساءل الزعبي عما إذا كان الموت هو الذي جعل درويش يعاين ذاته، وتاريخ شعبه، ويقول «لعل استقراء كتابات درويش الأخيرة تضع المرء أمام هذه الحالة المدهشة. لقد استعاد درويش سيرته في سياق سيرة الأرض والشعب الفلسطيني استعادهما مقترنين بالموت ومتشبثين بالحياة».

تمثل «الجدارية» النص الخالص للموت ومحاورته على نحو يتسم بثراء مدهش في الخيال والمعرفة والبناء وهو الأمر الذي يمنح الجدارية بنية فكريه وفنية حتى غدت بؤرة تجتمع فيها التجارب والأعمال الإنسانية المعبرة عن جدلية الموت.

ثم ختمت الندوة بدراسة الناقد فخري صالح الذي رصد فيها «تحولات محمود درويش» وقال: إن تجربة محمود درويش تطورت من خلال احتكاكها بالتجارب الشعرية العربية في البدايات، واستطاع أن يتعرف على التطويرات الشكلية والخيارات التعبيرية لهذه التجارب، فصاغها بما يخدم قصيدته وطموحه للتعبير عن مأساته الوطنية.

ثم انعطفت التجربة لتصبح القصيدة أقل كثافة اختزالاً وأكثر التفاتاً إلى ما هو كوني، وأصبحت التجربة الفلسطينية لديه وجهاً آخر من وجوه عذاب البشر على هذه الأرض.

ثم بدأ درويش يسعى إلى تطعيم عالمة بملامح شعرية ذات طموح كوني فلم تعد التجربة الفلسطينية تحتل بؤرة شعر درويش بل أصبحت هذه التجربة تتخايل عبر الأساطير فحضرت لديه الأندلس، والهنود الحُمر ليشكل الشاعر من هذه المادة التاريخية صيغة للتعبير غير المباشر عن حكاية الفلسطينيين الخارجين من الأندلس.

ثم تحول درويش إلى كتابة سيرة ذاتية مازجاً من عناصر عيشه الشخصي مع عناصر من التاريخ الفلسطيني الجماعي للتعبير عن الإحساس العميق بالمنفى الجماعي والشخصي.

توقف صالح أمام «الجدارية» التي أخذ الشاعر فيها قارئه نحو أصقاع جديدة في تجربته الشعرية، كما توقف أمام كتابه في **حضرة الغياب** الذي يعده منزلة بين المنزلتين من الشعر والنثر، يستعرض فيه درويش حكايته الشخصية مفصلاً الأحداث ومستذكراً الأشخاص والأمكنة والأزمنة وكأنه استعادة للماضي، واستشراف للمستقبل، وكأنه كان يرثي نفسه فيه منتظراً ملاقاة النهاية.

وفي نفس المحور الثقافي جاءت دراسة الباحث فيصل درّاج ليبحث في «موقع هشام شرابي في الثقافة الفلسطينية» مقدماً بحثه ببيان معنى الثقافة الفلسطينية التي غدت بعمومها تعني كل قلم يؤمن بعروبة فلسطين، ثم ثقافة بخصوصها تعني ما أنتجه المثقف الفلسطيني الذي عاش تجربه الاقتلاع واللجوء والمعاناة.

استعرض الباحث جذور الحداثة الاجتماعية لدى المثقفين الفلسطينيين لبيان ما إذا كان شرابي في أطروحاته امتداداً لتلك الحداثة التي نادى بها من سبقه من المفكرين من مثل روحي الخالدي ونجيب نصار، وأبان عن التزام شرابي بقضايا الحداثة الاجتماعية.

تساءل شرابي في **الجمر والرماد** عن المعيقات المختلفة التي تمنع الوعي القومي أن يأخذ شكله الصحيح وحاول صياغة الأجوبة في كتابه التالي **البنية البطريركية** حيث نقد فيهما الوعي الغائب الذي يعبر عن ذات مقموعه غائبة، وهو ما دعاه إلى طرح قضية الذات المفردة الحرة، وقضية الذات القامعة المكتفية، ليخلص إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يعي معنى التحرر الوطني الصحيح إلا إذا كان قد تلقى تربية تحررية صحيحة.

دعا شرابي في أعماله تلك الذات القامعة بالأب وهو مجازٌ عامٌ، فهو موجود في الموظف الصغير، والأستاذ الجامعي، والزوج والأخ، إن التربية الأبوية هي أساس الوعي الذي انتقده شرابي.

وصل شرابي في بحثه عن أسباب ضعف الوعي القومي وإخفاق النهضة العربية إلى مفهوم البنية البطركية التي تنتج إنساناً خائفاً يعطل العقل الجماعي وينتج التعصب بكافة أشكاله.

نقد شرابي في كتابه **المثقفون العرب والغرب** الشروط الاجتماعية العربية التي تحول دون تركيز الطاقة الفكرية والعلمية في إنتاج معرفة موضوعية مفيدة، ونقد المثقفين الحريصين على مصالحهم الشخصية، ودعا إلى غايات ثلاث: الدعوة إلى الفكر الناقد، وإرساء النقد الفكري على قواعد علمية، وتطبيق النقد العلمي على تاريخنا.

بدأت الدراسات التاريخية في الكتاب بشكل واضح مع الدراسة الاستقصائية التي قدمها محمد عيسى صالحية حول المفكر العربي أكرم زعيتر (1909-1996) وأبان عنوانها عن مضمونها فهي **تاريخ أمة في سيرة رجل**، فلا يمكن تناول حياة العظماء معزولين عن بيئتهم وواقعهم، ولذا جاءت الدراسة خاصة من جوانب بحياة أكرم زعيتر وعامة من جوانب بتاريخ فلسطين والقضية الفلسطينية، إذ أن أكرم زعيتر لم يكن مجرد إنسان معاصر وحسب، ولكنه كان أيضاً مناضلاً فاعلاً في قضيته ومؤثراً فيها.

ختم الباحث دراسته بتقديم قائمة بمؤلفات زعيتر المتنوعة الغزيرة، مع تقديم نبذه عن كل واحد منها، وتبقى وثائقه عن الحركة الوطنية أغناها وأهمها.

ثم جاءت الدراسة التاريخية الثانية للباحث جودة عبد الخالق بهدف تعريف القارئ باسماعيل صبري «المفكر الموسوعي والمناضل السياسي» مستعرضاً حياته من خلال المحاور التي امتاز بها ابتداءً من انفتاحه على الآخر، والسعي لتطوير ذاته، ثم الموسوعية العارفة، واهتمامه بالمستقبل.

لم يكن عرض جودة عرضاً تاريخياً وإنما سياحة في فضاءات أفكار اسماعيل صبري التي بثها في كتبه مبتدئاً بكتابه **وحدة الأمة العربية، المصير والمسيرة**، الذي عرض فيه صبري تاريخ الأمة العربية وعلاقة ذلك بالدولة، ثم ظهور الجامعة العربية وخاصة بنود الوحدة الاقتصادية مستعرضاً آراءه الاقتصادية.

كذلك قدم جودة عرضاً لكتابه **الآخر في مواجهة إسرائيل** الذي ضمنه إستراتيجية عربية طويلة الأجل في مواجهة الاستراتيجية الصهيونية وعرض في كتابه الثالث **نحو نظام عالمي جديد**، النظام الاقتصادي الجديد إلى غيرها من الموضوعات◆

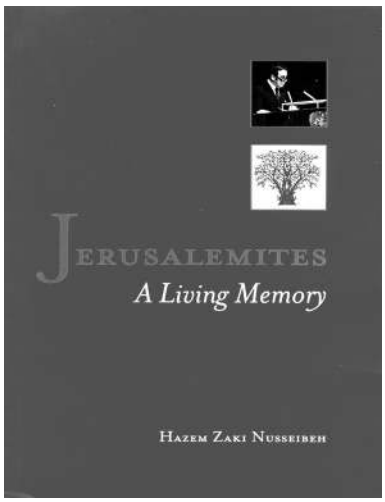

ذكـريات مقدسي ليست للنسيان: سيرة ذاتية

تأليف: حازم نسيبة
الناشر: ريمال للنشر، قبرص، 2009، (456 صفحة)

حنين خرفان

خلال تاريخه الطويل كسياسي ودبلوماسي، بقيت القدس، مسقط رأسه، ساكنة في وجدان الدكتور حازم نسيبة، الرجل المقدسي . يتحدث د. نسيبة في كتابه ذكريات مقدسية في سيرة ذاتية عن نشأته في فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني واصفاً الألم الذي أصاب الفلسطينيين عند إعلان دولة إسرائيل، فأهمية القدس بالنسبة له تكمن في أنها مسقط رأسه ونشأته وتربيته وانتمائه، عندما كانت بأغلبيتها العربية المطلقة، حاضرة فلسطين المزدهرة، ومهوى أفئدة أهل فلسطين، ومقر فعالياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرياضية، ومجمع آمالهم في الاستقلال الناجز والتقدم والازدهار. فخوفاً من أن تضيع تلك الصورة الناهضة الجامعة التي عاش في كنفها سنين شبابه وزهرة عمره، بفعل احتلال أجنبي بغيض، قضى وما زال يقضي على عروبة القدس الأزلية منذ فجر التاريخ، أقدم نسيبة على كتابة هذا الكتاب.

ويرى أن العالم ، بما في ذلك شعوب أمتنا، قد نسي تلك الصورة الساطعة لقدس عربية كبرى، هي قبلة المسلمين الأولى وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين.

إن هذا الكتاب سيرة ذاتية، لا تقتصر على الذات والعائلة وإنما تشمل المجتمع العربي الذي نشأ في أكنافه، وهو سرد صادق ومبسّط مع انطباعات وتأمُلات مُستوحاة من تجربة حياة إنسانية قضاها الكاتب في خِضَمِّ أحداث فلسطين منذ نُعُومة أظفاره وحتى يومنا هذا. كما يتناول نسيبة بالتفصيل حياته المهنية التي كرسها في خدمة الشعب الفلسطيني ليساعدهم على الحصول على حقوقهم الأساسية، وأهمها حق العودة. و يقدم نسيبة وصفاً للأحداث الأساسية في التاريخ العربي والعالمي. وينفرد الكتاب بأنه عاصر الفترات كلها، بدءاً من سن الطفولة والمدرسة والكلية والوظيفة وعلى امتداد أكثر من نصف قرن على أرضها الطاهرة. ويرى نسيبة أن السِّيَر الذاتية فرع من الآداب التي لا تأخذ حظها في ثقافتنا مثل الشعر مثلاً وبقية أنواع الإبداع.

يبدأ الكاتب حديثه عن نشأته في مدينة القدس؛ تلك المدينة التي كانت تجمع الفلسطينيين (عرباً ويهوداً، مسلمين ومسيحيين) الذي كانوا يعيشون في جو من الصداقة والسلام في ظل الانتداب البريطاني. يقدم نسيبة وصفاً للحياة في تلك الفترة، سواء الحياة الشخصية أو العامة، حيث يصف أباه وأمه وأفراد عائلته جميعاً، ثم يصف لنا وسائل الإعلام في تلك الفترة من صحف وإذاعة ويصف لنا المطبخ الفلسطيني ومدى الالتزام بالدين في تلك الفترة. كما يصف الفلاحين والمجتمع القروي والثوب التقليدي الذي كانت ترتديه المرأة الفلسطينية، والرقص الفلسطيني (الدبكة). ويصف المجتمع الفلسطيني بالتجانس والسلم إلى أبعد الحدود.

ثم يصف الكاتب لنا قدسه التي عاشها وعرفها، فنشعر وكأنه يتغزل بها حيث يصف هواءها بالنقي ومناخها بالمعتدل المنتظم ويصف جبالها ووديانها وأشجارها، كما يصف بيوت المدينة المبنية من الحجارة التي تصور تزاوجاً رائعاً بين القديم والحديث. ولا ينسى طبعاً ذكر المعالم الدينية والتاريخية التي تضفي أهمية كبيرة على هذه المدينة مثل قبة الصخرة وكنيسة القيامة وحائط البراق، فالقدس هي القبلة الأولى للمسلمين وموطن معراج الرسول صلى الله عليه وسلم. ويحدثنا نسيبة عن التسامح الديني الرائع الذي كانت تعيشه المدينة، حيث كان يستيقظ في الصباح على صوت المؤذن وصوت أجراس الكنيسة، وكان بيته قريباً من الحي اليهودي حيث كان يسمع صوت البوق كل يوم جمعة استعداداً ليوم السبت.

يتناول الكاتب تاريخ القدس الممتد منذ عهد الكنعانيين فالأيوبيين، فالعموريين، فالآراميين، فالفينيقيين، فالأنباط، فالفلستينيين والسريانيين. ويذكر كيف توالت هذه الشعوب على مدينة القدس، حتى يصل إلى عام 1948، عندما قُطِّع الفلسطينيون من جذورهم وشُرِّدوا في جميع أنحاء العالم، ويستغرب الكاتب التناقض بين مفردات الديمقراطية والحضارة في القرن العشرين ومبررات الاحتلال الواقع على الفلسطينيين حتى الآن!

إلا أن هذا السلام القائم بين العرب واليهود كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، ففي عام 1939 بدأ الفلسطينيون يطالبون باستقلالهم، إلا أن الحكومة البريطانية طالبت بأن تبقى فلسطين مركزاً لها.

وفي عام 1947، جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة عربية وأخرى يهودية، حيث يصف الكاتب خيبة الأمل التي أحس بها الشعب الفلسطيني الذي كان ينتظر عودة فلسطين كاملة وغير مقسمة كما جاء في British White Paper، حيث أحس الفلسطينيون أن هذا التقسيم قد سلب فلسطين جسدها وروحها. ثم يخبرنا الكاتب عن تقسيم القدس إلى جزأين؛ القدس الشرقية التي بقيت على حالها والقدس الغربية التي اغتصبها المهاجرون اليهود.

يذكر الكاتب تفاصيل حياته الشخصية متحدثاً عن حياته العائلية وزوجته وأطفاله، ثم يتناول الحديث عن دراسته بدءاً من مدرسة الروضة التي كان يرتادها في القدس، إلى كلية فكتوريا في الإسكندرية التي اضطر إلى الذهاب إليها بعد أن رأى والده أن الحياة في القدس أصبحت مستحيلة، إلى الجامعة الأمريكية في بيروت حيث حصل على شهادة البكالوريوس، ثم إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على درجة الماجستير في العلاقات العامة وشهادة الدكتوراه في العلوم السياسية وكان عنوان رسالته «أفكار الوطنية العربية» والتي نشرت من قبل جامعة كورنل.

كما نجد في الكتاب أيضاً سرداً لتاريخه المهني، حيث تقلد نسيبة مناصب دبلوماسية وسياسية كثيرة. فبعد تخرجه من الجامعة الأمريكية في بيروت بدأ نسيبة حياته المهنية في القسم الإعلامي في حكومة فلسطين ومساعداً في إعداد البرامج في إذاعة فلسطين، وقد ساعدته هذه الوظيفة على بقائه مطلعاً على الأحداث العالمية. كما تقلد نسيبة مناصب دبلوماسية حيث كان سفيراً للمملكة الأردنية الهاشمية في مصر وروما وتركيا وقد تحدث عن هذه الدول والأحداث السياسية والتاريخية فيها خلال فترة توليه منصب سفير في كل منها. كما تقلد مناصب سياسية عدة فكان وزيراً للإعمار والتنمية، وأمين عام وزارة الاقتصاد الوطني، ووزير الشؤون الخارجية (السياسة الخارجية) في الأردن، ووزيراً لشؤون رئاسة الوزراء، وكان عضواً في مجلس الأعيان وكان مندوب الأردن الدائم في الأمم المتحدة في نيويورك لمدة سبع سنوات كما كان ممثل الأردن في المجلس الاستشاري للأنروا. كما ترأس نسيبة العديد من اللجان وكان مستشاراً وممثلاً للملك الحسين بن طلال وممثلاً للمملكة الأردنية الهاشمية في مناسبات عدة. وقد حاول أن يكرس حياته المهنية لخدمة الفلسطينيين، فمثلاً، عندما كان وزيراً للخارجية الأردنية أعد مخطط تحرير فلسطين بهدف إعادة الأولوية للقضية الفلسطينية.

ويخصص نسيبة فصلاً كاملاً في كتابه للحديث عن منصبه كمندوب دائم للأردن في الأمم المتحدة، حيث يعتقد أن هذا المنصب هو من أهم المناصب التي تقلدها لأنها بمثابة تمثيل للمجتمع الدولي ككل، وقد كان عدد الدول الممثلة 150 دولة في ذلك الوقت وقد وصل عدد الدول الآن إلى 192 دولة. إلا أن المجتمع الدولي لم يعترف بفلسطين كدولة ذات سيادة مستقلة. وقد كرس نسيبة للقضية الفلسطينية جزءاً كبيراً من السنوات السبعة التي قضاها في أروقة الأمم المتحدة. وكعضو في مجلس الأمن، كان نسيبة بمثابة ممثل للمجموعة العربية والمجموعة الآسيوية وليس فقط للأردن.

وتحدث الكاتب عن الإنجازات والقرارات التي اتخذت خلال فترة تمثيله، كما تحدث عن القرارات الكثيرة التي اتخذت لمصلحة الشعب الفلسطيني وعياً من المجتمع الدولي بحق الشعب الفلسطيني

المغتصب على غير وجه حق من قبل الإسرائيليين. فعندما تسلم نسيبة رئاسة مجلس الأمن في العام 1982، عمل جاهداً من أجل تفعيل إقرار اللغة العربية لغة رسمية إضافة إلى اللغات الأخرى في الأمم المتحدة تمهيداً لاعتراف العالم بهذه اللغة العريقة.

من الموضوعات التي كانت تطرح على أجندة الأمم المتحدة قضايا نزع السلاح وحقوق الأطفال وحقوق المرأة والبيئة وغيرها. إلا أن أهم الموضوعات كانت تلك المتعلقة بالقضية الفلسطينية، فما بدأ في عام 1947 من تقسيم لفلسطين مع حدود واضحة لإنشاء دولة يهودية وأخرى عربية كان يتكاثر ليصبح مجموعة من القضايا المكررة على أجندة الأمم المتحدة. في عام 1980 طالب سفراء الدول العربية لدى الأمم المتحدة بتقليص هذه القضايا إلى عدد واضح من القضايا منها:

1. تشكيل لجنة متخصصة للتحقيق في الممارسات الإسرائيلية التي تعتبر انتهاكاً لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة.

2. تطبيق معاهدة جنيفا في جميع الدول العربية الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ عام 1967 بما فيها القدس.

3. مطالبة إسرائيل بالبدء بالانسحاب الكلي من فلسطين وجميع الأراضي العربية المحتلة منذ 1967 بما فيها القدس.

4. تأكيد حق العودة للفلسطينيين واستعادة استقلالهم الكامل وسيادتهم على أراضيهم وغيرها. إن جميع هذه القضايا تكرار لنفس الأمور التي لطالما تحدثوا عنها وهذا ناتج عن عدم التطبيق للقرارات المتراكمة فيما يتعلق بالاحتلال.

ومن أبرز الأمور التي نادى بها نسيبة كان تأسيس جامعة في القدس، وقد لاقى هذا الأمر اعتراض اليهود القائلين بأن هناك جامعات أخرى مثل جامعة بيرزيت وجامعة بيت لحم، واعتراض العرب ظناً منهم بأن هذه الجامعة ستكون للإسرائيليين، وتقف هذه الجامعة شامخة اليوم في أبو ديس وتحوي 7000 طالب من جميع أنحاء فلسطين.

كما أشار نسيبة إلى الدور الفاعل الذي قام به الأردن في القضية الفلسطينية، حيث كانت الحكومة الأردنية ترسل تقاريراً عن توغل الإسرائيليين في الأراضي الفلسطينية وكان يعمل هو بدوره على توزيعها على جميع الدول الأعضاء كوثيقة رسمية للأمم المتحدة بهدف زيارة الوعي إزاء ما يحدث في الأراضي المحتلة. ودعا نسيبة إلى جلسة لمجلس الأمن بهدف بحث الوضع في فلسطين، حيث تم تشكيل لجنة لعمل تقرير حول الوضع في الأراضي المحتلة، وقامت اللجنة بتقديم تقريرها الذي أدى إلى القرار 465 بتاريخ 1980/3/1 الذي اشتمل على بنود عدة أبرزها قرار اعتبار أعمال الاستيطان التي تقوم بها إسرائيل لاغية وغير شرعية.

وأشار نسيبة إلى الدور البارز الذي قامت به الأردن في دعم قضايا حقوق الإنسان في الأمم المتحدة وبعض القضايا الدولية مثل قضية Falkland War، والغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982.

أما خلال توليه منصب وزير الخارجية فقد قام بأعمال كثيرة تخدم القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني حيث قام بتجهيز ما يسمى بـ White Paper والذي مثل السياسة الرسمية للحكومة الأردنية ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة فروع رئيسية وهي:

1. مواقف الأردن الأساسية تجاه القضية الفلسطينية.

2. العلاقات العربية المشتركة.

3. التوجهات الفكرية في العالم العربي والمتعلقة بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية.

ومن أهم الأمور التي نص عليها الكتاب تأسيس مملكة فلسطين المتحدة وذلك للاعتراف بالدولة الفلسطينية مع الاحتفاظ بالوحدة بين ضفتي النهر، إلا أن هذا الكتاب قد عورض بسبب الظن بأنه سيفرق بين الأردنيين والفلسطينيين، فبرزت الحاجة لمنظمة التحرير الفلسطينية تلبية لحاجة مهمة وهي حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. وقد لاقى هذا الكتاب ترحيباً واسعاً عند إعلانه بعد استثناء بند إنشاء مملكة فلسطين المتحدة من جميع التجمعات الفلسطينية.

كما أولى نسيبة خلال هذه الفترة أيضاً اهتماماً كبيراً بقضية اللاجئين الفلسطينيين المنتشرين في مخيمات في مواقع مختلفة. كما شهد أثناء هذه الفترة ولادة مؤسسة القمة العربية عام 1964، حيث رافق الملك الحسين في أول مؤتمر قمة عربية عندما تولى منصب وزير البلاط الملكي وذلك لبحث الشؤون والأمور المختلفة ذات العلاقة بالدول العربية بشكل عام.

يتحدث نسيبة عن هذه الجوانب الشخصية (حياته العائلية و المهنية) في حياته مقرناً إياها مع الأحداث التاريخية الأساسية واصفاً أثر هذه الأحداث على نفسه وعائلته والمقدسيين والفلسطينيين، حيث لا يمكن لفلسطيني أو لقدسي أن يفصل هذه الأحداث التي غيرت مجرى حياة شعب بأكمله عن حياته الشخصية. ونظراً لأن هذا الكتاب سيرة ذاتية، فإنه يحوي العديد من أسماء الأشخاص الذين كان الكاتب على اتصال مباشرٍ أو غير مباشر معهم سواء من الناحية الشخصية أو الرسمية، فنرى أسماء أفراد عائلته وأسماء أشخاص معروفين في القدس من سياسيين وأصحاب مناصب وأدوار هامة في تاريخ القدس، كما يذكر أسماء الأشخاص الأردنيين الذين عمل معهم في حكومات متعاقبة مما يجعل القارئ يشعر أنه قريب من الكاتب لأن هذه الأسماء مألوفة له بشكل أو بآخر.

وذكر نسيبة العديد من الأحداث السياسية مثل وعد بلفور الذي وعدت بريطانيا من خلاله اليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين. كما تحدث عن الاغتصاب الإسرائيلي للقدس الغربية عام 1948، والاحتلال الإسرائيلي والاستيطاني في القدس الشرقية عام 1967 واصفاً المعارك والمقاومة التي حصلت في تلك الفترة واضطرار العائلات الفلسطينية أن تختار بين بقائها في فلسطين أو هروبها نجاةً بأرواحها من أهوال الاحتلال حتى أن عائلة الكاتب من نساء وأطفال اضطروا للذهاب إلى لبنان بعد أن أصبح الخطر يحدق بهم من كل جانب. وذكر استيلاء اليهود على بيوت الفلسطينيين والآلام المادية والنفسية الناتجة عن هذا الاغتصاب، وكيف هيأت بريطانيا لهذا الاستيطان عندما أعلنت أن فلسطين في مرحلة انتقالية لحصولها على الاستقلال. وذكر بعض المذابح التي ارتكبوها مثل مذبحة دير ياسين. ونظراً لعمله في دول عديدة فقد تناول أيضاً تاريخ هذه الدول والأحداث التاريخية فيها مثل مصر والأردن، حيث تحدث عن إنقاذ الجيش الأردني للقدس الشرقية التي تضم المقدسات الإسلامية والمسيحية عام 1948 ووحدة الضفتين.

كما يحتوي الكتاب على فصل كامل للحديث عن قدس الكاتب؛ قدسه التي عاشها وعرفها وعشقها والتي عاشت في قلبه طوال سنين عمره. فنرى الكاتب يتحدث عن الأحياء الرائعة والبيوت المبنية من الحجارة الزاهية الألوان. كما يصف لنا المباني الرئيسة في القدس كالفنادق والمجمع الروسي والمساجد والكنائس والزوايا الدينية والأسواق والحمامات والنوادي مثل نادي الشباب المسيحيين. ويتحدث الكاتب عن الوجود اليهودي في القدس وتزايده في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر حتى صار عدد اليهود في القدس مساوياً لعدد العرب، حيث عمل اليهود على هدم بعض الأحياء العربية بهدف توسيع منطقة حائط المبكى. كما يذكر الكاتب الوجود العربي المسيحي في القدس والعلاقات الأخوية التي جمعت المسلمين والمسيحيين حيث يعدد أسماء العائلات المسيحية التي عاشت في القدس. ويتحدث نسيبة عن التطور التدريجي في مدينة القدس من حيث المواصلات التي تطورت من ركوب الخيل والعربة إلى إدخال الباص في الثلاثينات، وبدء استخدام الهاتف في العشرينات. كما يذكر بناء الإسرائيليين للجدار العازل الذي غير معالم فلسطين وفصل بين أفراد شعبها والتهم مزيداً من الأراضي الفلسطينية وجعل الحياة الطبيعية مستحيلة. كما يتحدث نسيبة عن بعض ذكرياته الخاصة في القدس الهامة منها وغير المهمة (كما يراها الكاتب)، السعيدة منها والحزينة كقصة إنسانية لقدسيٍ ولد وعاش في المدينة المقدسة إلا أن مصيره أن يكمل حياته خارج ترابها المقدس.

ينهي نسيبة كتابه بسؤال الهوية الأساسي: من أنا؟ إنه السؤال الذي يسأله كل من قُطِّع من جذوره وأبعد عن أرضه حيث يبدأ الإنسان بالتساؤل عن هويته الحقيقية. ويتحدث الكاتب في هذا القسم عن العلاقة بين الغرب والشرق (العرب والمسلمين)، حيث يتحدث عن الاختلافات بين (نحن) و (هم). يتحدث الكاتب عن الأمور التي شكلت هويته، وهي مقسمة إلى قسمين: شرقية وغربية. تشكلت هوية نسيبة بداية مما تعلمه في مجتمعه وما درسه في مدرسته في القدس من تعاليم قرآنية وإسلامية، وشعر وأدب عربي، وأعمال مفكرين وفلاسفة عرب. أما الأثر الغربي فجاء من دراسته للشعر والأدب الغربي وأعمال الفلاسفة والمفكرين الغربيين. ويعتبر نسيبة أن تأثير الحضارتين الغربية والشرقية على هويته متساوٍ. وهو يعتقد أن الجذور الروحانية والثقافية لدى الشعوب والحضارات واحدة، ويرى أن مسألة الخلاف بين (نحن) و (الآخر) ستصبح ذكرى منسية نظراً لعالم العولمة والاتصالات السريعة الذي نعيشه حالياً حيث يتأثر الإنسان ويؤثر بكل ما ومن حوله بحيث تتناقص الفروقات والاختلافات بين الحضارات.

إن هذا النص رواية للتاريخ الشخصي مع ومضات وذكريات من القدس التي ولد الكاتب وترعرع فيها وحيث تعلم ولعب. لا يعمد الكاتب إلى العودة إلى كتب التاريخ المتعلقة بالقدس حتى لا يكون كتابه عبارة عن إعادة لما تم ذكره في كتب سابقة وإنما يهدف الكاتب إلى أن يكون الكتاب سرداً جديداً وبسيطاً مليئاً بالذكريات والانطباعات العفوية ليتمكن من وصف فترة من الزمان بمصطلحات إنسانية، ولذلك، فهو لا يتقيد بالتسلسل الزمني للأحداث حتى لا يعترض ذكر هذه الأحداث تدفق المشاعر والذكريات التي قد تؤدي إلى تداخل الأحداث مع بعضها البعض.

إن المستقبل الذي يتخيله الكاتب للقدس هو

حتمية عودتها إلى عرين عروبتها وإسلامها ومسيحيتها الأصيلة، طال الزمن أم قصر. وجاء هذا المنظور نتيجة فهم عميق للعوامل الروحية والتاريخية والتراثية التي تتسم بها هذه المدينة المقدّسة، وما تعنيه في حياة آلاف ملايين البشر من المؤمنين بالله ووجدانهم وضمائرهم. يرى الكاتب أن العرب والمسلمين لم يتحدوا في تاريخهم الطويل مثلما اتحدوا للذود عن القدس أو تحريرها من أيدي الغاصبين على مرّ العصور. فالمستقبل القريب المنظور، كما يرى الكاتب، هو إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي قلبهما القدس الشريف، ولا يمكن أن تتم أية تسوية للنزاع العربي الإسرائيلي دون عودة القدس إلى عرينها العربي.

وقد صدر الكتاب باللغة الإنجليزية – وسيصدر باللغة العربية قريباً- حيث يهدف الكاتب أن يجعل القارئ غير العربي يعرف عن قضيتنا شيئاً بعد أن أغرقته أجهزة الإعلام الصهيونية بطوفان هائل من التزوير والتعتيم وقلب الحقائق رأساً على عقب. وقد صادف إصداره في نفس العالم الذي تم فيه إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية لهذا العام◆

اللوحة للفنان محمد الركوعي- فلسطين.

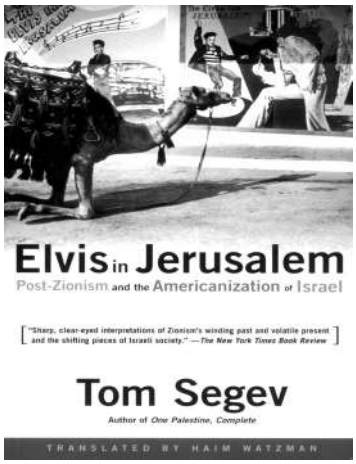

إلڤيس في القدس*

ما بعد الصهيونية وأمركة إسرائيل

تأليف: توماس سيچيف
ترجمة: حاييم واتسمان
الناشر: دار ميتروبوليتان، نيويورك 2002، (168 صفحة)

فيصل درّاج

في كتابه إلڤيس في القدس، يستأنف المؤرخ الإسرائيلي توماس سيچيف شرح أفكار «المؤرخين الإسرائيليين الجدد»، معتمداً على مادة عالمية التوثيق وأسلوب يجمع بين الموضوعية والمراوغة، يقرا تاريخ دولة إسرائيل من دون تقديس، دون أن يشكك في وجودها، أو أن يستثير هذه النزوعات المتشددة، التي تبدأ من مقدس مصطنع وتنتهي به.

*العنوان مجازي، حيث لم يدخل إلڤيس برسلي القدس في حياته.

يتمحور الكتاب حول أطروحة رئيسية تقول: قصدت الصهيونية، في شكلها الكلاسيكي، إلى إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين واستطاعت، بأدوات مختلفة تحقيق الحلم الذي قالت به، تصدر عن هذه الأطروحة أخرى لاحقة تقول: إذا كانت الصهيونية قد تحققت، نظراً وعملاً، في دولة إسرائيل عام 1948، فإن هذا التحقق ينقل الصهيونية إلى مرحلة جديدة عنوانها: ما بعد الصهيونية، الذي يفتح أفقاً جديداً داخل الدولة وخارجها، ويوكل إليها أهدافاً جديدة، توائم «المرحلة الجديدة»، أو عناوينها «الاعتراف بالشعب الفلسطيني»، والعمل على إقامة سلام «يرضي» الإسرائيليين والفلسطينيين معاً.

يدرج المؤرخ في خطابه عناصر ثلاثة يقول أولها: لقد تحدث هرتزل، «الأب الروحي لدولة إسرائيل» عن فكرة الدولة، دون أن يحدد الآليات التي تفضي إليها. وبما أن الفكرة وجدت طريقها إلى الحياة، فإن الآليات كانت، ولا تزال، أمراً يمكن التصرف به، يشير العنصر الثاني إلى تحولات المجتمع الإسرائيلي، في العقود الأخيرة، التي مهما كانت اتجاهاتها، يميناً أو يساراً، تشهد على مجتمع متغير، أعطى مناحيم بيغن، الذي عقد صلحاً مع مصر، إسحاق رابين الذي دخل في «عملية السلام» مع الفلسطينيين، يتكشف العنصر الثالث في الحراك الفلسطيني المستمر، الذي لا يهدد وجود دولة إسرائيل، وإن كان يقضي بمعالجة جدية، تأمر بها مرحلة: ما بعد الصهيونية. والواضح في العناصر جميعاً أن «الصهيونية» من حيث هي، مشروع بعيد عن الجمود والتكلس، وبعيد عن «امتلاك أحلامه الكاملة» ذلك أن الصهيونية لم تمنع «الهولوكست» أو «المحرقة» التي أزهقت أرواحاً يهودية كثيرة.

غير أن فكرة «ما بعد الصهيونية» تطرح، في السياق الراهن، سؤالين أساسيين يمسّان «الوعي اليهودي»، دينياً كان أو غير ديني: فقبول ما بعد الصهيونية، أي اكتفاء إسرائيل بحدودها الراهنة، يعارض التصور الديني اليهودي، الذي يجعل من «أرض الميعاد» كلها حقيقة يهودية (إسرائيل الكبرى) مثلما أن الاعتراف بالفلسطينيين، الذين يعيشون في دولة إسرائيل يمس الهوية اليهودية، ويقصي عنها «النقاء المفترض» الذي تنص عليه العقيدة الإسرائيلية، وواقع الأمر، وكما يرى سيچيف، فإن إسرائيل مجتمع ديمقراطي، يعيش العلمانية بأقساط مختلفة، لأن الديمقراطية في ذاتها لا تعارض العلمانية في شيء كثير. بل إن «النموذج الأمريكي في الحياة» وكما تشهد مدينة تل أبيب، متغلغل في حياة المجتمع الإسرائيلي الأمر الذي يحوّل «يهودية المجتمع»، كما هويته النقية المفترضة، إلى سؤال معقد متعدد الوجوه، وعلى هذا، فإن فكرة «ما بعد الصهيونية» التي تقطع خيوطاً كثيرة مع التصور اليهودي الكلاسيكي، تفتح الطريق أمام «هوية إسرائيلية جديدة» تتفق مع العماني والديمقراطي ونمط الحياة الأمريكية، وهذه التحولات التي تضع مبدأ «إسرائيل الكبرى» جانباً، تشكل عتبة لسياسة إسرائيلية تحتقب منظوراً للسلام والتعايش مع الآخر.

إذا كان ما بعد الصهيونية يقطع، نظرياً، مع الصهيونية الكلاسيكية، دون الإساءة إلى روّادها، إلا بمقدار ما يفرضه «النقد الموضوعي» فإن القطع يقضي بمنظور «صهيوني» جديد، له مقولات خاصة به، وله اقتراحات تثير الحوار والمساءلة. ولهذا لامس بعض المؤرخين الجدد فكرة الكنعانية، التي تضع العرب واليهود في جانب واحد في نهاية المطاف،

وفكرة «الوحدة السامية» التي تنتهي إلى شيء نظير بل أن في هاتين الفكرتين ما يطالب بقراءة جديدة لـ«قانون العودة»، إن لم ينته إلى مجابهة الصهيونية ذاتها التي حققت ما تريد بوسائل «ملونة» بعيدة عن البراءة. والسؤال الضروري الذي تطرحه هذه الأفكار هو التالي: ما الفرق بين الصهيوني وما بعد الصهيوني على مستوى المنظور والفكر السياسي؟ والفرق، باستثناء التخلي عن «إسرائيل الكبرى» لا يبدو واضحاً، ذلك أن الصهيوني التقليدي فخور بالدولة والوسائل المختلفة التي جعلت منها كياناً فعلياً، في حين أن ما بعد الصهيوني ينتمي إلى الدولة في حاضرها، ويعمل على استمرارها مكتفياً فقط بالتخفف من الانتساب إلى التاريخ الصهيوني».

أدرج سيچيف في كتابه أربعة مراجع أساسية: أولها ثيودور هرتزل، الذي كان مشغولاً بـ«المشكلة اليهودية في أوروبا»، قبل أي موضوع آخر، اتصل ذلك بـ«الأرض المنشودة» أو بطرق بناء الدولة، الأمر الذي يجعل منه «ما بعد صهيوني» قبل الأوان، أو يعيّنه امتداداً للإيديولوجيات الاستعمارية الأوروبية التي كانت مسيطرة في القرن التاسع عشر، أما المرجع الثاني فيتمثل بالمغني الأمريكي الراحل «إلفيس برسلي» الذي يعني مدى حضور الثقافة الأمريكية في المجتمع الإسرائيلي محيلاً، لزوماً، على السياسة الأمريكية التي أعطت إسرائيل أهمية استثنائية في زمن الحرب الباردة، يثير المرجع الثالث موضوع الخلاف في المجتمع الإسرائيلي بين «الصهاينة المتشددين» وغيرهم، أو بين «اليهود المتدينين الأرثوذكس» وغيرهم من المتدينين مشيراً، بأشكال متعددة، إلى تداخل الدين والسياسة في المجتمع، الذي يحتمل يهوداً متشددين لا يعترفون بحقوق غيرهم، و«يهوداً» آخرين رأوا، ذات مرة، في الفكرة الصهيونية «إثماً دينياً». المرجع الأخير وعنوانه «غادي ما نيلك»، الجندي الذي قتل في حرب 1967، وحظي بنصب تذكاري، فهو مجرد مدخل إلى موضوع: الوحدة الوطنية التي تشتد أو تتراجع وفقاً للسياق والمبرّرات. وبعد، كثيرة هي الأطروحات التي يطلع علينا بها المؤرخون الجدد وأمثالهم من صفوة المثقفين في المجتمع الإسرائيلي وهي أطروحات تهدف في نهاية المطاف إلى ترحيل الواقع المرعب الذي قامت عليه إسرائيل إلى واقع متخيل تذوب فيه معالم القضية الأساسية وتصبح نسياً منسياً. فكلما تكشفت ميثولوجيا الصهيونية، كلما طلع علينا أهلها بميثولوجيا جديدة تبعث الحياة من جديد في الميثولوجيا القديمة تتمشى مع روح العصر وتناسب السوق الاستهلاكي محلياً وعالمياً. تنوعت ميثولوجيا الصهيونية والصهيونية واحدة!

أعطى توماس سيچيف في إلفيس في القدس دراسة موثقة جديرة بالقراءة لأسباب ثلاثة: فهي تكشف عن تحولات المجتمع الإسرائيلي على مستوى القراءة والكتابة، أي تناول التاريخ الذي أنتج دولة إسرائيل، وهو إضافة إلى ذلك، وهنا فضيلته المركزية، يتحرر، بأشكال مختلفة، من ذلك اليقين الصهيوني القديم، الذي كان يساوي بين الحقيقة والمطالب الصهيونية، وهو، ثالثا، مثقل بالأفكار المتقاطعة، التي تختصر الأسئلة وتختزل الإجابات، كما لو كان يتوقع سجالاً محتملاً، يتيح له طرح أفكاره مرة أخرى.

هذا كتاب موثق، يشهد على مثقف إسرائيلي لامع مشغول بمستقبل «مجتمعه» وبما يضمن له الاستمرار والاستقرار، ولعل حرص المؤلف والمراوغة والشجاعة، إنصاف الحقائق أيضاً. ولعل حرص المؤلف، كما أمثاله، هو الذي يجعله ينظر إلى وضوح إدوارد سعيد بعدم الراحة والرضا.

ملاحظة أخيرة، لا بد مها يبعث عليها كتاب سيچيف: إذا كان المؤرخون الصهاينة قد كتبوا تاريخ الشعب الفلسطيني بعد عام 1948، كما يريدون، فإن مؤرخي ما بعد الصهاينة يعملون اليوم، رغم نواياهم، على تقرير الشعب الفلسطيني، ذلك أن «القوى» هو الذي يخترع «الآخر» وشكل وجوده المحتمل في الأزمنة المختلفة. والأمر في النهاية يحيل على موضوع الذاكرة. فقد ادعى ابن غوريون، ذات مرة، ولحق به مؤرخون لا تنقصهم الألقاب الكبيرة، بأن الفلسطينيين جاء إلى «أرض إسرائيل» من دول عربية مجاورة، ماحياً الفلسطينيين وأطياف أجدادهم، ويأتي اليوم مؤرخون يكتبون «المجازر التي أصابت الفلسطينيين» بالطريقة التي تقترحها مناهج بعد الصهيونية، يبقى الفلسطيني مع ذاكرته وحيداً، في انتظار سياق جديد، يزوّده بالقوة، ويتيح له أن يوحّد بين تاريخه الفعلي وأسلوب الكتابة. كان محمود درويش يقول: من يمتلك الكتابة يمتلك الأرض، ومن يمتلك الطرفين لا يترك لـ«الآخر» إلا الدعوات والشفقة المجانية◆

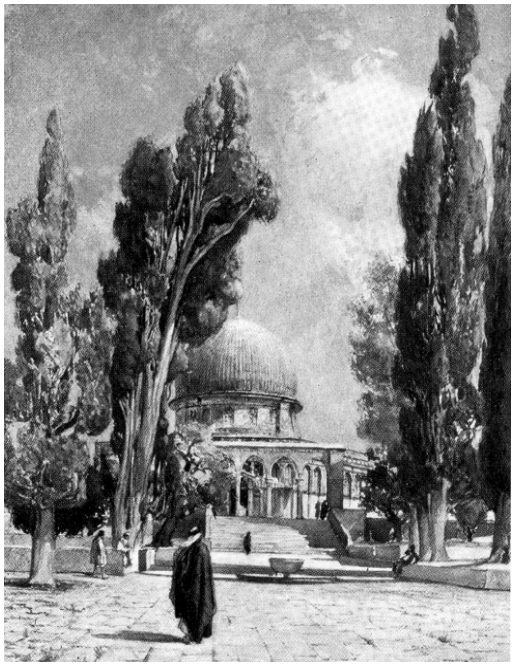

اللوحة للفنان جون فليلوف- 1902.

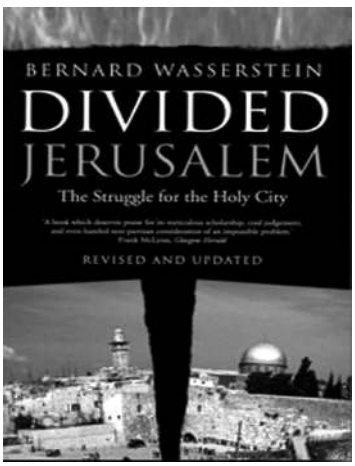

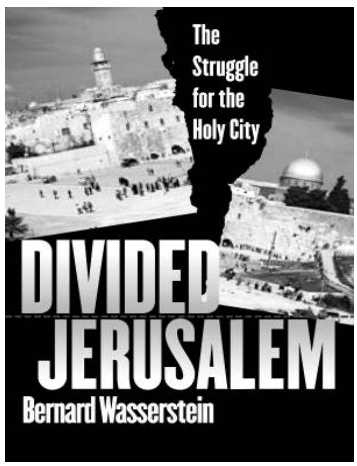

الحماقة الكبرى

تأليف: برنارد واسرشتاين
الناشر: جامعة ييل، أمريكا 2001، (432 صفحة)

آفي شلايم

نجد للرمزية أثراً في السياسة الدولية مثلما نجده في مسألة القدس. فالصراع بين إسرائيل والفلسطينيين من أشدّ النزاعات وأمرّها وأطولها في العصر الحديث، وصُلب هذا النزاع هو قضية القدس. إذ يشترك التعصب الديني لها مع القومية العلمانية فيجعلان القدس من أكثر قضايا هذا النزاع حساسيةً واستعصاءً على الحل (إن لم تكن أكثر). لهذا فقد تحاشت اتفاقية أوسلو التي أخذت الفلسطينيين على طريق الحكم الذاتي القدسَ وكلَّ القضايا الصعبة المتنازَع عليها مثل حق العودة للاجئي عام 1948 ومستقبل المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة وحدود الأراضي الفلسطينية. لقد تأجلت هذه القضايا إلى حين مفاوضات الحل النهائي عند انتهاء الفترة الانتقالية في نهاية فترة السنوات الخمس. وهي نفسها التي وُضعَت على جدول أعمال مؤتمر كامب ديفد الذي دعا إليه بيل كلنتون في تموز عام 2000. ولكن قضية القدس هي التي أدت في نهاية المطاف إلى فشل المؤتمر وتعطيل عملية أوسلو للسلام.

ليست القدس جديدة على المعاناة والصراع والجدل. فارتباطها الروحي بأديان التوحيد العظيمة، اليهودية والمسيحية والإسلام، هو سببُ التنافس بين هذه الأديان وهو الذي جعل معضلتها تستعصي على الحل. وقد ازداد تاريخها دموية بسبب أن السيطرة عليها تجلب الهيبة السياسية. ففي القدس دون غيرها من المدن تختلط السياسةُ بالدين، فتُنتج خلطةً سهلة الاشتعال. يُقالُ إن القدس احتُلَّت 37 مرةً منذ تأسيسها حتى وقعت تحت سيطرة الإسرائيليين عام 1967. وها هي الآن على جدول أعمال الدبلوماسية الدولية منذ قرن ونصف. لقد قال آرثر كستلر حين ذهب إلى القدس أثناء حرب 1948 وعاين الخصام والمساومة والوساطة الدولية: «ما من مدينة في العالم سبّبت هذا القدر من القتلِ والاغتصابِ والبؤسِ غيرِ المقدَّسِ قرناً بعد قرن مثلُ هذه المدينة المقدسة». إن مسألة القدس الحالية تنطوي على أمرين: السيادة على المدينة ووضع الأماكن المقدسة. أما السيادة فتتنازعها قوميتان، وأما المقدسات فتتنازعها ثلاثة أديان. أنصح مَن يرغب بفهم مسألة القدس أن يقرأ الكتاب المتقنَ بحثاً، الجميلَ نصاً، الموضوعيَ محتوىً، الذي ألَّفه برنارد واسرشتاين حول هذا الموضوع.

حتى من المنطلق النفسي فإن «مرض القدس» معروف منذ أمد. فهو يصيب زائري المدينة لاسيما السُّواح الغربيين المسيحيين. وأهم أعراضه انتحال شخصية توراتية والممارسات الصوفية وهاجسُ تملُّكِ قوىً خارقة. لهذا يصف واسرشتاين القدس في الجزء الأول من كتابه بأنها ليست معضلةً وحسب بل هي عاطفة، عاطفة دينية تحديداً. فيعترف واسرشتاين أن حب القدس لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين عميق، لكنه يرى أن هذا الحب يُحتِّم على المؤرخ أن يؤرِّخَ له على أنه عشق روحاني دون أن يرضخ له. ثم ينطلق واسرشتاين من هذه البداية المنطقية ليصوغ فكرته بأن السياسيين مِنْ أتباع هذه الأديان تعمدوا تضخيم قيمة القدس الدينية لتحقيق مآربهم السياسية.

عندما سيطر العثمانيون على القدس عام 1515 كانت غيرَ مهمة ومتخلفة ومنعزلة، وكان عدد سكّانها لا يتجاوز 15000 نسمة. ولم تتحول خلال القرون الأربعة لحكم العثمانيين إلى مركز إداري مهم، بل كانت مجرد عاصمة للواء تابع لإقليم دمشق. جُلّ ما فعله العثمانيون كان في عهد سليمان القانوني عندما بنى الأسوار المحيطة بالمدينة، والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا. وقد ترك العثمانيون لأصحاب الديانات الثلاثة أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم ويديروا مؤسساتهم دون تدخل كبير من الحكومة المركزية. فتكونتْ مسألةُ القدس ابتداءً على شكل صراع حول المقدسات المسيحية، وما تشكلت بشكلها الحديث إلا جرّاء الانهيار البطيء للامبراطورية العثمانية. إذ كلما ضعُفَت سُلطةُ العثمانيين، تعمدت القوى العظمى بَسطَ سيطرتها على الأماكن المقدسة خصوصاً وعلى المدينة عموماً. وقد شرح أحدُ فصول كتاب «حروب القناصل» «The Wars of the Consuls» على نحو هازئ أساليبَ هذه القوى العظمى في تعزيز سلطتها وسمعتها في القدس. فمن هذه الأساليب استغلالُ العاطفة الدينية ودعمُ حلفائها المحليين وبناءُ مؤسسات تابعة لها مثل الكنائس والأديرة والمستشفيات ودور الأيتام والمدارس والكليات.

بعد أن يسرد واسرشتاين القصة المحزنة للتآمرات والنزاعات التافهة والصراعات التي لا نهاية لها، فإنه يعطي كل ذي حق حقه. فيذكر أن

القدس خلت في العهد العثماني المتأخر من العنف الجماعي. فعلى الرغم من أن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود كانت مفعمة بالمرارة والحقد الطائفي إلا أنها ظلت في حدود القانون والسلم المدني. لكن الذي دلَّلت عليه حروبُ القناصل هو أن قضية القدس قابلة للاشتعال وتأزيم العلاقات بين القوى المتنافسة: «استغلالاً لقداسة القضية، فإن القدس أصبحت حُجَةً طيِّعَةً لأنصار الحروب ممن يضمرون أهدافاً أبعد منها». وما يؤسَفُ له أن مرور الزمن لم ينل من خاصية الاشتعال هذه شيئاً.

فقد حكمت بريطانيا القدس في إطار الانتداب على فلسطين من عام 1920 حتى عام 1948. وكانت بريطانيا في الظاهر مسؤولةً أمام هيئة الانتداب الدائمة التابعة لعصبة الأمم المتحدة، ولكنها في الواقع حكمت فلسطين كأنها مستعمرة تابعة للعرش البريطاني. فغيَّرت خلال ثلاثة عقود فقط طبيعة هذه المدينة، ومهدت الطريق لتقسيمها لاحقاً. وكان حكمُ الإنجليز لها أولَ إدارة مسيحية لها منذ الحروب الصليبية، ومع ذلك فقد أعطى حُكمُها صلاحيات غير مسبوقة للمجلس الإسلامي الأعلى وفي ذات الوقت رعى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين. وخلافاً لما عمله العثمانيون، قد أوْلَى البريطانيون للقدس أهمية خاصة حين جعلوها مركزاً إدارياً ومقرّاً للمفوّض السامي لفلسطين، وهو ما أدّى إلى تغيير جذري في علاقة القدس بفلسطين. فأصبحت عاصمتها للمرة الأولى في التاريخ الحديث. وقد عزَّز هذا الأمرُ مكانةَ أعيانها من مسلمين ويهود بسبب قربهم من مقر السلطة. لا شك أن البريطانيين حاولوا أن يتعاملوا مع الطرفين بإنصاف، لكنهم فشلوا في التوفيق بين ادّعاءات الحركتين القوميتين الوليدتين. فاستعدُوا العرب واليهود معاً. ومع مرور الزمن تمرّد الطرفان على سلطة بريطانيا، فثار العرب في الثلاثينات ولحقهم اليهود في الأربعينات. ومع نهاية الانتداب المشؤوم في أيار 1948، لم تبقَ في قلوب العرب أو اليهود تجاه بريطانيا أيُّ مودة.

لقد أصدرت الأمم المتحدة يوم 29 تشرين الثاني 1947 قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، إحداهما عربية والأخرى يهودية، واعتبَرَ القرارُ القدسَ كياناً منفصلاً يجب أن يُوضع تحت الوصاية الدولية. وظلت بريطانيا رسمياً محايدة في شأن التنافس بين العرب واليهود، ولكن في الواقع معاديةً لدولة فلسطينية مستقلة لأنها حتماً ستخضع لحكم المفتي الحاج أمين الحسيني الذي ساند ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية. وما أن أوشكت الحربُ على الانتهاء حتى عادت القدسُ قضيةً ملتهبة على جدول الأعمال الدولي. وما فتئت معظم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة تؤيد وضع القدس تحت الوصاية الدولية، إلا أن الأردن وإسرائيل اللتين كانتا تسيطران على القدس فعلاً شاءتا أن تقتسما المدينة المقدسة. وعندما صمتت المدافع، حكمت الأردنُ القدسَ الشرقية وإسرائيلُ القدسَ الغربية حتى هزّت حربُ الأيام الستّة أرجاء الشرق الأوسط في صيف 1967.

في هذه الحرب، فَقَدَ الأردن الضفة الغربية والقدس الشرقية التي كانت قبل ذلك جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية بموجب قانون وحدة الضفتين عام 1950. لقد كانت مشاركة الأردن في الحرب مأساوية؛ إذ أنه دفع ثمناً باهظاً نتيجة هذه المشاركة. فاحتلتْ القواتُ الإسرائيلية القدس الشرقية في 7 حزيران 1967 ضمن اجتياحها الكامل للضفة الغربية. وفي ظهيرة ذلك اليوم، ذهب

موشي ديان وزيرُ الدفاع إلى الحائط الغربي وأعلن أن القدس قد تحررت قائلاً: «لقد وحّدنا القدس، عاصمةَ إسرائيل المقسَّمة. ها قد عدنا إلى أقدس مقدساتنا ولن نتركها أبداً». لم يكن لدى إسرائيل ابتداءً أيُّ نية مسبقة للاحتفاظ بالضفة الغربية أو بالقدس الشرقية، خلافاً لما ظن معظمُ العرب حينها. ولكن نشوة الانتصار خلقت تيّاراتٍ قوية دينيةٍ تؤمن بالنبوءات التوراتية وعلمانيةٍ قومية، تياراتٍ لا تقوى أيُّ حكومة على إخمادها إن شاءت. وبهذا اختفى في الحال موقف الحركة الصيهونية المعتدل بخصوص القدس. وما لبثت الحياة في الدولة اليهودية أن أصبحت مستحيلة دون صهيون (أحد الأسماء التوراتية للقدس). وأحدث الكنيست في 27 حزيران تشريعات لاقت إجماعاً وطنياً تبسُطُ القانون الإسرائيلي والسلطة والإدارة الإسرائيلية على القدس الكبرى بما فيها المدينة القديمة. وكان في هذا العمل ضمٌّ بالفعل وإن لم يكن بالاسم، وهذا ما فتح صندوق باندورا وأفشى الشر في كل مكان.

خلال ربع القرن التالي، كان رئيسُ بلدية القدس تدي كولك أهمَّ شخصية فيما يتعلق بالسياسة الخاصة بالقدس الإسرائيلية. إذ حاول أن يجد حلولاً منطقية للمشاكل اليومية المتعددة في مدينتة، وحاول أن يوائم بين الأطراف متعددة الأطياف. ولكن هدفه الأكبر الذي لم يحاول أبداً إخفاءه هو أن يجعل القدسَ عاصمةً موحدةً أبديةً لإسرائيل. فتسارعتْ مُصادرةُ الأراضي العربية في القدس الشرقية، ونشأتْ حاراتٌ يهودية جديدة مكانَها على الرغم مما في ذلك استباحةٌ للقانون الدولي. كان وراء هذا النشاط المحموم هدفٌ جيوسياسي بعيدُ المدى وهو إحاطة شمال القدس وشمال شرقها، وجنوبها بحلقة يهودية. وقد اعترف كولك صراحةً في مقابلة صحفية عام 1968 بهدفه قائلاً: «الهدف هو ضمان بقاء القدس إلى الأبد جزءاً من إسرائيل. إن كانت هذه المدينة ستكون عاصمةً لنا، فيجب أن تصبح جزءاً لا يتجزأ من بلدنا. ونحن نحتاج إلى مستوطنين يهود لتحقيق ذلك».

ظل موقف القوى العظمى ثابتاً تقريباً: رفضت الاعتراف بقانونية محاولات إسرائيل أو بشرعية ضم القدس الشرقية لها. فأصدرت الأمم المتحدة سلسلة من القرارات التي تدين فيها الأعمال الإسرائيلية في الجزء العربي من المدينة. لكن فشلت الضغوطات الخارجية في النّيْل من ثقة إسرائيل بحقها الأخلاقي في بسط نفوذها على شعب عربي ممانع. وقد أثارت الممارسات الإسرائيلية حنقاً وتمرداً عند السكان العرب. كما إن الكنيست أصدر في تموز 1980 قانون القدس الذي نصّ على أن «القدسَ كاملةً وموحّدةً هي عاصمةُ إسرائيل». وقد بيّنت بوضوح البرلمانيةُ المتعصبة غيئولا كوهن عضو الكنيست التي قدمت مشروعَ هذا القرار أن هدفها هو منع أي محادثات بشأن المدينة. وخلافاً لكل التشريعات السابقة المتعلقة بالقدس، فقد لاقَتْ مسودّةُ هذا القانون انتقادات كثيرة من داخل إسرائيل نفسها لاعتبارِ أن هذا القانونَ غيرُ ضروري، بل ومضرّ. كما إنه جعل إسرائيل في وضع دفاعي في الساحة العالمية. ولاقى القانونُ انتقادات من القوى الرئيسة. كما أصدر مجلس الأمن بالأمم المتحدة في 20 أغسطس قراراً يوبخ إسرائيل، وكان بأربعة عشر صوتاً مقابل لا شيء، وامتنعتْ الولايات المتحدة الأمريكية عن التصويت. وقد سمّتْ جريدةُ نيويورك تايمز هذا القانون «الحماقة الكبرى».

في السنوات التي تلت ارتكاب الحماقة الكبرى ردد القادة الإسرائيليون من كل الأطياف السياسية

مِثلَ جوقةٍ إغريقيةٍ تعويذةَ أنَّ القدسَ الموحدة هي العاصمةُ الأبدية لدولة إسرائيل. وكانت اللازمةُ الدائمةُ الأخرى هي أن القدس لا تفاوضَ عليها. ولتجنب الخوض في هذا الأمر، فقد ركَنَ مصممو اتفاقية أوسلو الإسرائيليون مسألةَ القدس جانباً في قيد فرضوه على أنفسهم. ولم يذكر إعلان المبادئ الذي وُقِّعَ على باحة البيت الأبيض في 13 أيلول 1993شيئاً كثيراً عن هذا الأمر. وتقرر ألا يكون للحكم الذاتي الانتقالي الفلسطيني سلطةٌ على القدس. وهكذا فقد تُرِكَت حالُ القدس على ما كانت عليه حتى موعدِ مفاوضاتِ الحلِ النهائي التي كانت ستبدأ بعد ثلاث سنوات من الفترة الانتقالية. أي أنَّ كِلا الطرفين كان من حقه أن يتشبث بأحلامه وبرمزية السيادة على القدس إلى ذلك الحين. حتى إن ياسر عرفات كان متفائلاً إلى حدٍّ القول أن الاتفاقية الانتقالية كانت مجرد خطوة نحو «الانسحاب الكامل من أرضنا، من أماكننا المقدسة، من قدسنا». لكن ناطقاً إعلامياً إسرائيلياً صرح أنَّ «القدسَ ليست جزءاً من الاتفاقية وأنَّ موقفَ إسرائيل منها لم يتزحزح أبداً».

اكتمل إطار اتفاقية الحل النهائي بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، ووَقَّع عليها في 31 تشرين الأول 1995 كلٌّ من يوسي بيلين نائبُ وزير الخارجية الإسرائيلي ومستشارُ عرفات المُقرَّبُ محمود عباس المعروف باسمه الحركي «أبو مازن». لقد كانت هذه الوثيقةُ أولَ محاولة لحل القضايا العالقة بين إسرائيل والفلسطينيين. فطرحتْ تصوراً لدولة فلسطينية مستقلة وغير مسلّحة تتكون من غزّة و94% من الضفة الغربية وتكون عاصمتها القدس. لكن بعد مرور أربعة أيام على توقيع هذه الاتفاقية اغتيل إسحق رابين، وخلَفَهُ شمعون بيريز، فلم يمتلك من الجُرأة ما يمكِّنه من تبني هذه الاتفاقية، وأسبابُ ذلك كثيرة لكنّ أهمَها أنه لم يشأ أن يُتهم بتقسيم القدس. ومع ذلك فقد انهزم بيريز بفارق صغير أمام بنيامين نتنياهو زعيم حزب الليكود اليميني في انتخابات أيار 1996. وما أن جاء بنيامين نتنياهو إلى الحكم حتى عكس سياسة السلام الحذرة لسلفه حزب العمل لاسيما تلك المتعلقة بالقدس. لقد كان سرّ أوسلو هو ترك القدس حتى نهاية عملية السلام، لكن نتنياهو وضعها في صُلب سياسته، وهذا مما عرقل التقدم في جميع القضايا الأخرى.

لم ترِد قضيةُ القدس على جدول أعمال الدبلوماسية الدولية حتى مؤتمر القمة في كامب ديفد الّذي دعا إليه بيل كلينتون في تموز 2000 استجابةً لرغبة إيهود باراك. وأثناء المؤتمر تفاوض إيهود باراك وياسر عرفات ظَهراً لِظَهر لا وَجهاً لِوَجه. وذلك لأن كلا الرئيسين كان يواجه مشاكل داخلية خطيرة. فكان تآلف باراك الحكومي آيلاً للسقوط حين حضر هذا المؤتمر. أمّا عرفات فكان يرزخ تحت ضغطٍ فلسطيني بأن يُصِرَّ على الانسحاب الإسرائيلي التام من القدس الشرقية العربية. وهكذا كانت القدسُ القضيةَ الرئيسة في مؤتمر القمة وحجرَ العثرة أمام اتفاق شامل. فحاول الأمريكان تقديم اقتراحات لجَسر الهُوَّة بين الطرفين تقومُ في أساسها على خطة بيلين-أبو مازن. ولكن لم يحصل أيُّ اتفاق في الرأي بين الوفدين، بل لم تجرِ مفاوضات حقيقية بينهما. ولم يقدم عرفات أي حلول بنّاءة بديلة. وبقي مُصِرّاً على موقفه، ورفض تقديم أي تنازلات بشأن القدس والأماكن المقدسة. وحتى اقتراح كلينتون بتأجيل القضية لمفاوضات لاحقة فقد رفضها عرفات. محبطاً من الذي حصل، شبّهَ كلينتون تجربته في هذا المؤتمر بـ «علاجٍ للأسنان لا تخدير فيه».

ما أن انهارت المحادثات حتى بات ظهور العنف في موجة جديدة مسألة وقت. وقد أشعل فتيلَها في 28 أيلول 2000 رئيسُ المعارضة آريل شارون بزيارته الاستعراضية إلى جبل المعبد. وادعى شارون وحوله جمعٌ من رجال الأمن أنه جاء ليوصل «رسالة سلام». لكن الرسالة التي سمعها الجانب الآخر عاليةً وواضحةً هي أن «السيادة لإسرائيل»! وأشعلت هذه الزيارة فتيل الشغب في باحات الحرم الشريف الذي ما فتئ أن انتشر إلى الأجزاء العربية من القدس وإلى الضفة الغربية وغزة، وانتقل لأول مرة إلى بعض المناطق المأهولة بالعرب في إسرائيل ذاتها. وسرعان ما صار الشغبُ انتفاضةً شاملة عارمة. فوصل عدد القتلى فيما أصبح يُعرَفُ بانتفاضة الأقصى إلى مائة خلال الأيام العشرة الأولى منها. وهكذا فإن اتفاقات أوسلو انغمرت بحمم بركان الحقد الجمعي الذي رافق العودة إلى العنف.

في هذا السياق القاتم حاول بيل كلينتون لآخر مرة قبل نهاية ولايته بقليل أن يجسر الهوَّةَ بين الطرفين المتحاربين. فقدم أفكاره عن الحل النهائي في اجتماع في 23 كانون الأول جمع بين ممثلي إسرائيل والفلسطينيين في البيت الأبيض. وبدا أن أفكاره في كامب ديفد التي كان يصفها بالأفكار المعيارية التي تمثلتها المقترحات الأمريكية التوفيقية قد تغيرت تحقيقاً للآمال الفلسطينية. فأصبح يرى أن على إسرائيل أن تنسحب تماماً من غزة ومن 94-96 % من الضفة الغربية. وأصبح يرى ضرورةً لدولة فلسطينية مستقلة مُقَيَّدَةِ التسليح. كما رأى أن حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين يجب أن يسترشد بمبدأ أن الدولة الفلسطينية الجديدة يجب أن تكون «بؤرةَ هدفِ الفلسطينيين الراغبين بالعودة». أما بشأن القدس، «فيجب الاسترشاد بمبدأ أن الأحياء الفلسطينية هي فلسطينية والأحياء اليهودية هي إسرائيلية. وينطبق هذا المبدأ على المدينة القديمة كذلك».

وقد جرت المحادثات على أساس أفكار كلينتون المعيارية في منتجع مصري على البحر الأحمر في طابا في الأسبوع الأخير من كانون الثاني 2001. فوافق الطرفان على مقترحاته في إطارها العام ولكنهما أضافا قائمة طويلة من التحفّظات. وفي شأن القدس كانت تحفّظات إسرائيل جوهرية أكثر مما كانت تحفظاتُ الفلسطينيين. فقد صرح باراك على الملأ أنه لن يتخلى عن السيادة على جبل المعبد. وفي هذا الوقت الحرج، كما كان الحال في الماضي، أصبح السلام رهنَ السياسة الداخلية في إسرائيل. فأجبرتْ انتخاباتُ رئاسة الوزراء المبرمجة للسادس من شباط باراك على اتخاذ موقفٍ متشددٍ بشأن المدينة القديمة وجبل المعبد. وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات، فقد اقترب المفاوضون أكثر من أي وقت مضى من الاتفاق على الحل النهائي، لكن الأحداث غلَبَت. ففاز آريل شارون في الانتخابات بأغلبية ساحقة. وتنصلت حكومتُه على الفور من كل تفاهمات طابا لأنها لم توثَّق في وثيقة موقعة. وما زاد الطين بِلَّةً هو أن إدارة جورج واكر بوش اختارت عدم التدخل في عملية السلام وتنصلت من مقترحات أسلافها في الإدارة السابقة. نتيجةً لهذا، فإن إنجازات طابا تبخرت في رمال الصحراء.

يصف برنارد واسرشتاين «العاصمة الموحدة الأبدية» لدولة إسرائيل في مقدمة كتابه الرائع «المدينة المقسَّمة: الصراع من أجل المدينة المقدسة» بأنها أكثرُ العواصم فُرقَةً في العالم، فيقول: «يعيش

سكّانها العربُ واليهودُ في أحياء مختلفة، ويتكلّمون لغات مختلفة، ويذهبون إلى مدارس مختلفة، ويقرؤون صحفاً مختلفة، ويشاهدون برامج تلفزيونية مختلفة، ويحتفلون بأعياد دينية مختلفة، ويشجعون فرقَ قدمٍ مختلفة، ويعيشون حيوات مختلفة». وما يبيّنه الكتاب ببلاغة فائقة هو أن الصراع على القدس لن ينتهي دون الاعتراف بحقيقة شخصيتها التعددية وبشرعية هذه الشخصية. من المحزن حقاً أن هذا الاعترافَ أكثرُ استحالةً اليوم منه في أي وقت مضى منذ توقيع اتفاقية أوسلو◆

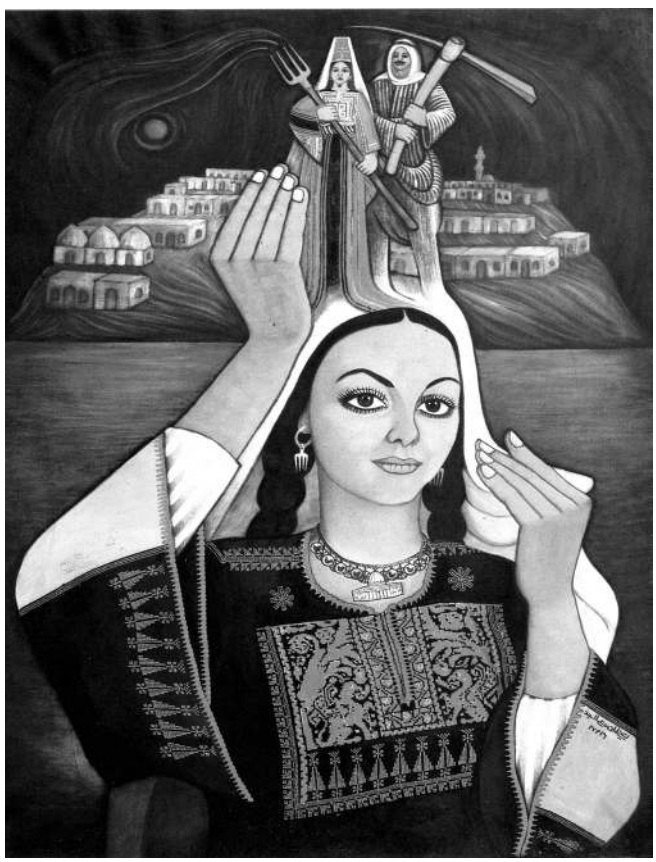

اللوحة للفنان عبد الرحمن المزيّن – فلسطين.

Number 76

Al-Majallah Al-Thaqafiyyah (founded in 1983)
A cultural journal published quarterly
by the University of Jordan

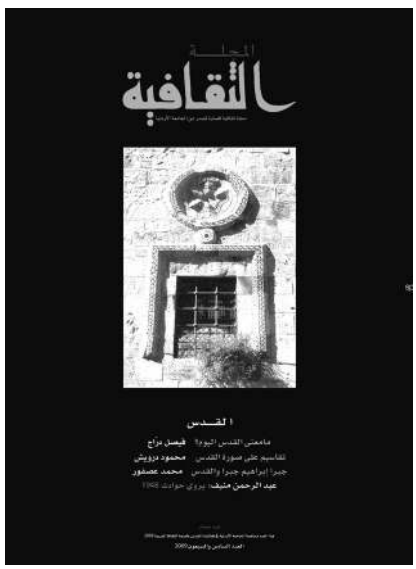

cover picture

Decorative rose window, of madrasa Al-Jawhariyya in Jerusalem (1440).

Editorial Correspondence including subscriptions, submission of articles and books for review, should be addressed to the Editor-in-Chief.

P. Box: 13088 Amman 11942 Jordan,
The University of Jordan

Tel: +962 6 5355000, Ext.: 21044
Fax: +962 6 5357122
E.mail: cult.j@ju.edu.jo

Content of the journal is available at:
www.ju.edu.jo/publications

Editor - in - Chief
Mohammad Shaheen

Art Advisor
Rafa' al Nasiri

Editorial Board
Amjad Qurshah
Rushdi Khalil
Asem Shehabi
Abdul-Karim Hiyari

Production and Layout
Manal Omar

Printing Production
Jordan University Press

Distribution Agent
The Jordanian Distribution Agency

© 2009 by Al-Thaqaffiyya.

The journal does not assume responsibility for the views expressed by its contributers.